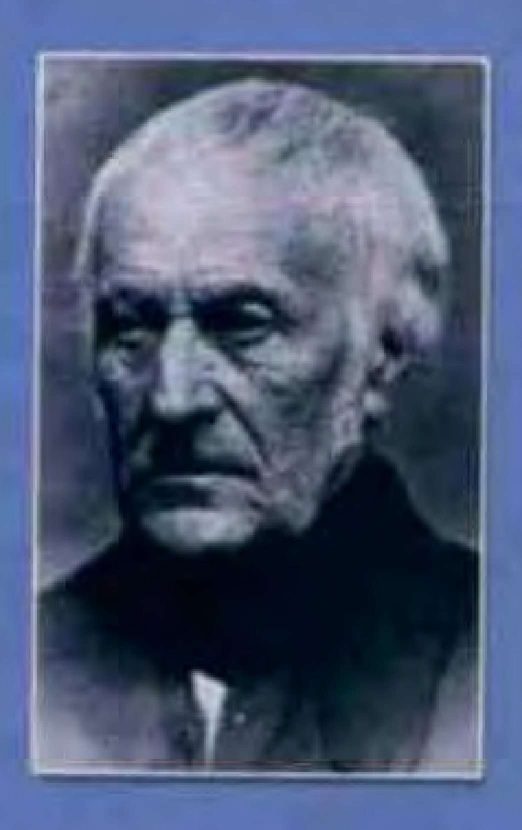




مختارات من كتاب
حياة محمد

ألفونس دي لامارتين



ترجمة
د. محمد قوبعة

مراجعة واختيار
د. أحمد درويش

من إصدارات دورة
«شوقي ولامارتين»
(باريس - أكتوبر ٢٠٠٦)





مختارات من كتــاب

حياة محمد

ألفونس دي لامــارتين

ترجمــة

د. محمد قوبعة

مراجعة واختيار

د. أحمد درويش

الكويــت

2006

راجع هذا الكتاب وأشرف على طباعته

عبدالعزيز محمد جمعة

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

محمد العلي

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

239 حياة محمد: **La vie de Mahomet** / ترجمة محمد قوبعة ؛ مراجعة واختيار أحمد درويش . -

ط1 . - الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2006

144 ص ؛ 24 سم.

في رأس العنوان: مختارات من كتابات الفونس دي لامارتين

1 - السيرة النبوية. 2 - أخلاق الرسول.

أ . محمد قوبعة (مترجم) ب - أحمد درويش (مراجع)

ج - مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. الكويت (ناشر)

رقم الإيداع : Depository Number: 2006 / 438

ردمك: ISBN : 99906 -72 - 38 - 5

العنوان الأصلي للكتاب La Vie de Mahomet

من منشورات: L'Harmattan - Institut des Arts et Lettres Arabes

---

هاتف: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصدير...

تقدم مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري هذه المختارات من كتاب ألفونس دي لامارتين «حياة محمد» اختارتها لجنة مختصة، وقد أخذت اللجنة في الاعتبار أن المؤلف لم يكن رجل دين أو لاهوتياً متخصصًا أو مؤرخًا محترفًا، وإنما كان شاعرًا رومانسياً وأديبًا ورحالة أحب الشرق والإسلام على طريقته، فأنصف أحيانًا وجانبه الصواب والدقة أحيانًا أخرى، وفي الحالتين تلمسنا له العذر، من واقع اختلاف الديانة والنشأة والبيئة، وأنه ولد في بداية العقد الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٩٠م) وتوفي عام (١٨٦٩م)، إذًا عاش جلّ حياته وقدم كل إنتاجه في القرن التاسع عشر، قرن الاستعمار والاستشراق وما نتج عنهما من حيف وخلط.

وعندما قرر مجلس أمناء المؤسسة جعل اسم لامارتين علمًا على دورتها العاشرة إلى جانب أحمد شوقي، وأوصت اللجنة العليا المنظمة للدورة بطباعة أعمال لامارتين، رأى المجلس أن يتم الاختيار من هذه الأعمال، لما يناسب معطيات الزمن الراهن، مع مراعاة عدة أمور منها:

- أن لامارتين كما أسلفنا القول ليس بلاهوتي أو رجل دين متخصص ولا هو بمؤرخ محترف، وأن ما صدر له من أعمال كانت بدوافع عديدة منها رومانسيته التي قادته إلى حب الشرق وطبيعته، وتقديره لدين الشرق الرئيسي وهو الإسلام وإعجابه به.

- أن لامارتين ألف كتاب «حياة محمد» كمقدمة لكتاب أكبر عنوانه «تاريخ تركيا»، وهو مكون من عدة أجزاء وجعله الجزء الأول، باعتبار دراسة حياة محمد ﷺ، هي المدخل الأساسي لأي دراسة عن الإسلام، واستقى الكثير من المعلومات الشحيحة المنقوصة من مصادره القليلة آنذاك، إذا ما قيست بثورة المعلومات الحالية بكل تفرعاتها وثرائها.

- الفجوة الثقافية والعلمية الهائلة بين فرنسا وأوروبا من جهة والشرق المسلم من جهة أخرى.

في ظل وضع كهذا وفي ظل تواريخ وسير وضعت عبر التاريخ، ولم تكتب في جو علمي خال من الدسائس والأهواء، أو من خطل المراجع وأخطائها، - لم يكن لامارتين بدعًا من المؤلفين الغربيين، تأثرًا بالأجواء المحيطة به، وبالتربية المحافظة التي نشأ عليها، في وسط عائلة شديدة المحافظة ومتدينة، فكان لا بد من اختيار يفرز الصورة الأكثر واقعية - قدر الإمكان - للسيد لامارتين، إذ إنه من بين المستشرقين الذين حاولوا إنصاف الإسلام والنبي عليه السلام، لكنه - بلا شك - بقي متأثرًا بدينه والأوساط المحافظة التي نشأ فيها، فجاءت كتاباته - رغم الإنصاف الكبير الذي تخللها - مشبعة ببعض خلفياته الدينية والثقافية.

وجدير بالذكر أنه عندما صدر كتابه هذا في حينه شنت عليه حملات ثقيلة في أوربا اعتبرته مارقًا وأنه باع نفسه للمسلمين وكانت ردة فعل العالم الإسلامي مماثلة.. حيث اتهموه بالتجني وعدم الفهم - فكان موضع انتقاد حاد من الطرفين المتناقضين حينها.. نأمل أن يكون الزمن قد تغير لصالح فهم أفضل - لهذه الجهود الخيرة والمبكرة - من قبل كل الأطراف.

ويسرني أن أقدم جزيل الشكر لكل من أسهم بجهده في إعداد هذه المختارات وبخاصة الدكتور أحمد درويش، لتكون ضمن إصدارات الدورة العاشرة للمؤسسة، دورة «شوقي ولامارتين».

والله ولي التوفيـــق،،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويـت للثالث والعشرين من شعبان 1427هـ

الموافـق السادس عشر من سبتمبر 2006م

****

بين يدي الكتاب

يعد كتاب «حياة محمد» تحية رفيعة راقية أرسلها الغرب إلى الشرق في القرن التاسع عشر، على لسان واحد من أبرز رجالات هذا القرن على المستوى المعرفي والأدبي والسياسي، وهو ألفونس دي لامارتين (١٧٩٠-١٨٦٩م) شاعر فرنسا الكبير، وزعيم المذهب الرومانسي، ورجل الدولة البارز، الذي رأس الحكومة، وقاد المعارضة وتنافس على رئاسة الجمهورية.

وإذا كان الكتاب جزءًا من إبداعات لامارتين المتأثرة بثقافته وتجاربه، وجزءًا من نتاج القرن التاسع عشر بتياراته الفكرية والأدبية والسياسية المتعددة، وحلقة في تاريخ الحوار بين الشرق والغرب الذي يتأرجح بين الاعتزاز والإعجاب، والمنافسة والعداء، فإنه لا بد من أن يقرأ في إطار هذا كله؛ ليتضح لنا قدر الإنجاز الحقيقي الذي حققه في إطار رسم صوره إيجابية لذلك الشرق، وليتاح لنا أن نتلمس للمؤلف بعض العذر، إذا اختلفنا معه في رسم بعض جوانب الصورة، وفقًا لما أتيح له من معلومات، وما أحاط به من ظروف.

ولد ألفونس دي لامارتين في مدينة ماكون في المناطق الريفية الشاسعة في وسط فرنسا، منتميًا إلى أسرة مسيحية متدينة، على جانب من الثراء، وكانت الأسرة ذات مزاج محافظ، لم تألف الخروج على العقيدة، ولا على النظام الملكي، رغم قيام الثورة الفرنسية التي أطاحت به وبزوغ نجم نابليون أكبر ثمار هذه الثورة، ولهذا فإن الفتى عندما شب وجد نفسه وقد تعلم في معاهد اليسوعيين غير راغب في الالتحاق بخدمة حكومة يقودها نابليون، ويعتبرها لامارتين مغتصبة للنظام الملكي، وفضّل أن يقضي وقته في تعميق ثقافته وتأملاته في جمال الحياة والكائنات من حوله، ولكنه اختار أن يعمق ثقافته الدينية على طريقته الشعرية، فلم يهتم كثيرًا بتعميق المناحي العقائدية واللاهوتية كما كان الشأن بالنسبة لبعض كبار الأدباء والمفكرين في عصره، من أمثال: شاتوبريان صاحب «عبقرية المسيحية» ورينان صاحب كتاب «يسوع» وهو التعمق الذي قادهم إلى مواجهة المعتقدات والديانات الأخرى.

وإنما عمق لامارتين ثقافته الدينية، بما يتناسب مع موهبته الشعرية، فحولها إلى استجلاء عظمة الخالق في الطبيعة من حوله.

وبدا ذلك واضحًا في تجاربه الشعرية والنثرية التي رفعته إلى مصاف كبار الأدباء، والتي سجلها في أعمال شهيرة، مثل «جرازيلا» و«البحيرة» و«تآلف الأنغام الشعرية والدينية» و«رافائيل» وغيرها من الأعمال الأدبية التي تجاوزت شهرتها اللغة الفرنسية إلى كثير من لغات العالم، ومن بينها اللغة العربية منذ مرحلة مبكرة في القرن التاسع عشر.

وإذا كان التكوين الثقافي والموهبة الشعرية قد قادا لامارتين في هذا الاتجاه، الذي كان من نتائجه أن يظهر له في الفترة الأخيرة من حياته مثل هذا الكتاب الذي بين أيدينا، فإن مناخ الحركة الرومانسية بصفة عامة، والتي كان لامارتين واحدًا من كبار ممثليها، كان يمجد الاغتراب والحنين إلى الزمان البعيد، والمكان البعيد، وكان «الشرق» رمزًا لهذا الاغتراب الذي تهفو إليه نفوس كثير من الرومانسيين سواء ممن حلموا به وكتبوا عنه من بعيد، أو ممن رحلوا إليه وجاسوا خلاله وكتبوا عن كثير من بقاعه ومشاهد الحياة فيه مثل لامارتين، الذي يعد كتابه الكبير «رحلة إلى الشرق» من أشمل وأعمق ما كتب عن الشرق، وخاصة بلاد الشام، برموزها المكانية والزمانية، وإحالاتها الطبيعية والتاريخية والريفية مكملاً لما كتبه الآخرون عن مصر من أمثال: نرفال وجوتيه وفلوبير وعلماء الحملة الفرنسية، وما امتدوا به من إيحاءات أثرية وتطلعات مستقبلية وكتابات لامارتين عن «حياة محمد» تمثل من هذه الزاوية؛ استجابة لنزعة الحنين للكتابة عن شخصية عظيمة في الزمان البعيد والمكان البعيد وهي نزعة تخلصت سلفًا من المماحكات العقائدية التي ميزت كتابات أدباء فرنسيين آخرين مشهورين، من أمثال: فولتير وشاتوبريان وإرنست دي رينان، فضلاً عن الكتاب ذوي النزعة الدينية الخالصة، وتمخضت عنها كتابات عمقت من مفهوم الخلاف، ولم تلتفت إلى مواطن الالتقاء، وأساء بعضها إلى شخصية «محمد ﷺ»، ووجه إليه من الإساءات ما احتمى بعضها بزعم الاقتراب من المسيحية أو الدفاع عنها. وما احتمى بعضها الآخر بالرغبة في مهاجمة فكرة سيطرة رجال الدين على شئون الناس في أوربا من خلال التستر وراء شخصية نبي الإسلام، كما كان الشأن مع «فولتير» خاصة في مسرحيته حول «محمد» وجاءت نقاط السلب في هذه الكتابات الكثيرة؛ لكي

تشكل في مجملها بقعًا سوداء، يتألف من خلالها في كتابات لامارتين بياض الإيجابيات الكثيرة المعجبة المتعاطفة مع شخصية «محمد» في معظم الأحايين والمحايدة المتسائلة في أحايين قليلة.

ولا شك أن تجربة الحياة السياسية التي خاضها لامارتين أثّرت إلى حد ما في التفاته إلى بعض جوانب العظمة، في شخصية «محمد ﷺ» فقد اتجه لامارتين منذ مطالع الأربعينيات من عمره ١٨٣٣م إلى التركيز على الحياة السياسية، عندما انتخب نائبًا في البرلمان ذلك العام، بعد أن سجل اسمه في مصاف كبار رواد الحياة الأدبية والشعرية خاصة في الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

وكانت فترة اندماجه في الحياة السياسية فترة مهمة في تاريخ الوعي السياسي في فرنسا، بعد اختبار مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى في العدالة والحرية والمساواة، وموقع الطبقة العاملة، والقاعدة العريضة، والملكية الخاصة، ورأس المال على الخريطة التطبيقية لهذه المبادئ، والتي جرى صراع الطبقات السياسية المختلفة حول الأولويات والتوازن في تطبيق عناصرها.

وقد انحاز لامارتين في دعوته منذ البداية إلى الطبقة العريضة ودعا إلى تطبيق ديمقراطية سياسية حقيقية أساسها الأخذ بيد هذه الطبقة والرقي بها، ولم تجد أفكاره قبولاً من الطبقة الرأسمالية، واعتبروه رأسًا للمعارضة ومن هذا المنطلق خاض معاركه السياسية بين نجاح وإخفاق حتى وصل إلى منصب رئيس الوزراء سنة ١٨٤٨م.

ودخل معركة رئاسة الجمهورية تحت هذا الشعار، ولكن قوى اليمين تكتلت ضده وأفشلته.

هذه التجربة السياسية العميقة عند لامارتين، جعلته أكثر قدرة على رؤية جوانب العظمة في شخصية «محمد ﷺ» وهو يحول جموع الفقراء والضعفاء إلى جماعات ترفع رايات العزة والكرامة، وتنطلق بالإنسانية كلها إلى آفاق غير معهودة من قبل.

إن الصورة التأليفية التي اختارها لامارتين لكتاب «حياة محمد» ساعدته كذلك على تجنب الوقوع في كثير من السلبيات التي وقع فيها معاصروه، فبالإضافة إلى نظرة الإعجاب، وتقدير جوانب العظمة، والتمتع بروح الحياد المبرأة من الأحكام الشائعة

والمسبقة، اختار لامارتين الكتابة عن «حياة محمد» لا عن «عقيدة محمد» مع ظهور روح التقدير البالغ لكليهما.

ولكنه تلافى المدخل الذي كان يثير لدى معاصريه دائمًا روح الجدل منطلقًا إلى تصوير من رأى أنه لا يكاد ينافسه عظيم آخر في تاريخ البشرية.

وكانت فكرة كتابه في البدء مقدمة لكتاب طويل عن تاريخ تركيا من سبعة أجزاء كتبه لامارتين بعد أن جاوز الستين من عمره سنة ١٨٥٤م، وبعد أن ترك الاشتغال بعالم السياسة وصراعاتها، وكان من قبل قد تخفف من سطوة الإبداع الشعري والأدبي وتجنيحاتهما التي ارتاد من خلالها آفاقًا رائدة في الأدب العالمي.

كان لامارتين إذن قد قرر العودة إلى التاريخ بعد أن عاش الحاضر، وملأ الدنيا وشغل الناس، ولفت الأنظار بقدرته على التأليف الغزير حول تاريخ روسيا وتاريخ تركيا في مجلدات كثيرة، ولا بد أن نتذكر أن المسألة «الروسية» والمسألة «التركية» كانت من أكثر ما يشغل السياسيين في أوربا في القرن التاسع عشر فلم يبتعد لامارتين إذن باختياراته عن حجم تأملاته وتجاربه السابقة.

ويبدو أنه بعد أن انتهى من كتابة تاريخ تركيا التي كانت تمثل الإمبراطورية الإسلامية لذلك العصر، رأى أنه لا يمكن فهم تاريخ تركيا، بمعزل عن «حياة محمد» صاحب الدعوة الإسلامية، فكتب المقدمة التي تطورت فأصبحت كتابًا مستقلا يتصدر الأجزاء السبعة لتاريخ تركيا، وقد حدث للمقدمة والكتاب ما حدث من قبل لكتاب عبد الرحمن بن خلدون في التاريخ أيضًا، والذي يحمل عنوان: «العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» والذي وضعت له مقدمة للتمهيد لقضاياه وقد امتدت فأصبحت كتابًا مستقلاً يحمل عنوان «مقدمة ابن خلدون».

وقد حظي دون شك من الشهرة بأضعاف ما حظي به الكتاب الأصلي الذي كاد ينسى في زحمة كتب التاريخ، على حين أسست المقدمة لعلم جديد هو علم الاجتماع كما يعترف بذلك كبار العلماء في الشرق والغرب.

«حياة محمد» إذن، هي المقدمة الشهيرة لكتاب «تاريخ تركيا» الذي تجاوز التاريخ إلى تفاصيل الاهتمام بجزئياته، فأصبح لا يقصده إلا خاصة المتخصصين على حين ظل كتاب «حياة محمد ﷺ» نقطة هامة متميزة في قضايا الحياد والإنصاف والإعجاب والحوار بين الشرق والغرب.

ويكفي أن تقرأ لأكبر كاتب وأكبر رجل دولة في القرن التاسع عشر، وهو يكتب عن حياة محمد، عبارات من الثناء والإعجاب مثل قوله: «فما من إنسان ألبتة رسم لنفسه إدراك هدف أسنى مما نوى هو أن يبلغ، إذ كان هدفًا يفوق طاقة البشر يتمثل في نسف المعتقدات الزائفة التي تقف بين المخلوق والخالق، وإرجاع الله للإنسان، وإرجاع الإنسان لله وبعث فكرة الألوهية المجردة المقدسة في خضم فوضى الآلهة المادية المشوهة، آلهة الوثنية، وما من إنسان ألبتة – في نهاية المطاف – قدر على أن ينجز في وقت أوجز ثورة على الأرض، أعظم ولا أبقى مما أنجز هو...».

«فإذا كانت عظمة المقصد، وضآلة العدة وضخامة النتيجة، هي مقاييس عبقرية الإنسان الثلاثة. فمن يجرؤ أن يقارن – على الصعيد الإنساني – أي عظيم من عظماء التاريخ الحديث بمحمد؟! إذ إن أبعدهم في الشهرة لم يهز سوى أسلحة وقوانين وممالك، ولم يؤسس – إن كان أسس شيئًا – سوى قوة مادية غالبًا ما انهارت قبل أن ينهار هو.

أما محمد فإنه قلقل جيوشًا وتشريعات، وزرع ممالك، وهّز شعوبًا وعروشًا، بل إنه هزّ فوق ذلك معابد وآلهة وأديانًا وأفكارًا ومعتقدات وأرواحًا، وأقام على أسس كتاب صارت كل كلمة فيه قانونًا، انتماءً إلى أمة روحية تجمع شعوبًا من مختلف اللغات والأجناس، وطبع في تلك الأمة بأحرف لا تمحى مقت الآلهة الزائفة وعشق الله الواحد المجرد».

ولا شك أن استقبال كتاب «حياة محمد» في الأوساط الثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر، كان مختلفًا، خاصة عند المهتمين بقضايا الفكر الديني، والمتعصبين ضد الإسلام وحضارته، فقد وجهت إلى لامارتين تهم تصل إلى حد الإلحاد والكفر من جراء تعاطفه وإعجابه الشديد بشخصية محمد وبالسيرة الحضارية الراقية لدعوته، وبالارتفاع بقيمة الشرق مصدر الحضارات، ومنبع الديانات.

ولم يكن حظ الأجيال التالية أقل قسوة على الكتاب، فقد تم عمدًا إهمال إعادة طباعته على مدى ما يقرب من مائة وخمسين عامًا منذ صدور طبعته الأولى سنة ١٨٥٤م، حتى صدور طبعته الثانية بالفرنسية سنة ٢٠٠٦م .

وهي الطبعة التي حققها بالفرنسية الدكتور علي كورخان، الذي أدار رسالته للدكتوراه بجامعة السربون حول كتاب «تاريخ تركيا» للامارتين، ومن خلال عمله اكتشف الأهمية البالغة لكتاب «حياة محمد» الذي كاد يطويه النسيان.

ثم واكب صدور الطبعة الفرنسية، ظهور ترجمة لمختارات منها، رعتها «مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري»، ولوحظ فيها ترجمة خلاصة الكتاب وفكرته، مع الالتزام في الفقرات التي تم اختيارها، بصياغة لامارتين، كما قدمها في لغته الفرنسية الرائعة، ومحاولة الاقتراب بها من ذوق القارئ العربي، وقد بذل الدكتور محمد قويعة جهدًا علمياً مشكورًا في هذا المجال .

ولا نود أن ندخل في اقتباسات أو تعليقات حول النصوص الموجودة بين يدي القارئ – إلا عند الضرورة –، تاركين له فرصة اللقاء بها والحوار معها.

ولكننا نود أن نؤكد على القيمة العظمى لهذه التحية الرفيعة الراقية في إطار حوار الحضارات بين الشرق والغرب، والتي تحملنا إلى هذا المستوى العظيم الذي نتمنى أن ترتفع إليه لغة الحوار في عصرنا، بعد أن أصابها ما أصابها على أيدي المتعصبين والمتطرفين وفلاسفة صراع الحضارات.

الدكتور أحمد درويش

****

السّفر الأول

(١)

... فلنبدأ – قبل كل شيء – برواية سيرة محمد.

(٢)

إذا ما نشر المرء أمامه خارطة العالم لينظر في جغرافية الأديان، إن جاز لنا أن نقول ذلك، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن، فيثير فيه العجب، هو أن تلك الرقعة الصغيرة من الأرض التي تقع بين البحر المتوسط الشرقي وسواحل البحر الأحمر، وهي رقعة يغطيها بكاملها تقريبًا جبل لبنان وهضاب بلاد يهودا، وجبال الجزيرة العربية والصحراء، قد كانت مهد الديانات الثلاث الكبرى التي اعتنقها الجنس البشري (باستثناء الهند والصين) وكانت مسرحها وموقعها، وأعني الديانة اليهودية والديانة المسيحية ودين محمد، حتى قد يقول القائل، إذا ما تأمّل خارطة العالم، إن تلك المنطقة الصغيرة المتكونة من الصخور ومن الرمال القائمة بين بحرين صافيين وتحت نجوم متلألئة، تعكس وحدها، طاقة من الألوهية أعظم مما يعكسه باقي العالم، فَلِمَ ذلك؟ إننا إذا ما تركنا جانبًا كل فعل مباشر لله في الوحي بالعقائد والشعائر والعبادات التي هي مطابقة كأجلى ما تكون المطابقة لجوهره، وإذا ما اقتصرنا على المفاهيم التاريخية دون غيرها، قلنا إن شعوب تلك المنطقة قد خصّتهم الطبيعة – بما لا يدع مجالاً للشك – بمَلَكة تطغى على سائر الملكات فيهم، ملكة تريهم ما لا يُرى، هي المخيّلة، فلئن كان العقل قادرًا على أن يستنتج وجود الألوهية، من خلال نظره في الكون، فإن المخيّلة – وحدها– قادرة على أن تراها، وتسمعها وتكلمها، وتجعلها تتحدث إليها، وتصفها وتكشف عنها حجابها، وتعبدها، وهي – بفضل ما في حدسها من طاقة – قادرة على أن تنقل حماسها لسواها من المخيّلات – تنشئ بين الأرض والسماء تلك العوالم الخفية التي لا ترى، والتي تحتل من فكر البشر مساحة أكبر ممّا

يحتل العالم الحقيقي. إن المخيّلة هي التي تضفي الروحانية على الجنس البشري، وإن الروحانية هي التي ترتفع به إلى اكتشاف الله، وإن إدراك الله هو الذي يعظ الإنسان ويصلحه ويجعله يتوق إلى الألوهية. فالحذر الحذر إذن من احتقار الأمم ذات الخيال الشّاسع، فستكون دومًا هي سيّدة الأمم، كما أنها هي أجداد البشر، فهي التي جعلتنا ندرك قوى السماء.

فإن قال قائل: لم وُهبت هذه الملكة، ملكة الخيال - وهي ثانية ملكات الفكر، إذ العقل أولاها - للعرب بنصيب أوفر مما وُهبنا، كما لو كان ذلك حق البكورة في ميراث الأب الخالد لأبنائه، قلنا إننا لا نعرف من ذلك شيئًا. فالله حرّ مطلق الإرادة في أن ينعم بمختلف هباته على عباده، فكان نصيبَ بعضهم عقلٌ خالٍ من الانفعال يحلّل ويضع المبادئ ويستخلص النتائج وينسف الأخطاء، وكان نصيبَ بعضهم الآخر موهبةٌ تشريعية تؤسس المجتمعات وتسوس أمورها، وكان نصيب البعض الآخر أيضًا موهبة الكلمة التي تفتن البشر وتقنعهم، وكان نصيب البعض الآخر كذلك موهبةُ الشجاعة لغزو الأرض ودفع العبودية، ولكن كان نصيب كل منهم جميعًا قسط مخصوص، يطغى على سواه من أقساط مختلف الملكات التي تؤلف - في تناغمها - توازن الإنسانية وعظمتها.

أما الأسباب المادية المحض التي منحت جنس الأجداد خيالاً أنشط ممّا مُنِحَت أجناس الغرب، وأخصب منه وأبعد في التديّن، فإننا نذكر منها ثلاثة لا غير: المناخ و المتعة والتأمل.

إن دفء الطقس دفئًا لذيذًا وصفاء السماء التي تغطّي هذا الجزء من الكرة الأرضية يحفظان الجنس البشري هناك من ذلك العدد الكثير من الحاجات التي نسعى إلى دفعها عنا بعمل لا يني، وهو عمل يلهي عقولنا عن الأمور التي لا تُرى، ويجعل حياتنا مراوحة لا تنتهي بين حالات التعب والنوم، فيجور الجسد على الفكر، فإذا بنا نألم أو نلتذّ، ولكن ليس لنا وقت للتأمل. أما تلك الشعوب، فهي على العكس، تكاد لا تحسّ بحاجات مادية إلا بادرت الطبيعة فكفتهم إيّاها: فالقطعان - وهي ترعى- تمشي بغذاء أولئك الناس، والعيون تجري بما يروي ظمأهم، والنخل - دون فلاحة ولا رعاية - يوفّر معيشتهم، والإبل تنقلهم،

والقطع من نسيج الوبر تشدها أوتاد تقيهم الحرَّ والقرَّ، وهم يقضون أيامهم في الوحدة وفي فترات الصمت الطويلة، وهي بمثابة المنبت الأصم للأفكار.

إن حياة الأجداد تلك كانت تمنحهم ما تفتقر إليه الشعوب الفلاحية أو الشعوب المقاتلة أو الصناعية التي في الغرب: المتعة، فالخيال ابن المتعة، والمتعة تأملية، و لا يفضي التأمل البتة إلا إلى اللانهائي، واللانهائي هو الله. فمن الطبيعي أن يكون ذلك الجنس الذي يتمتع بجو من التفكير أكثر ممّا يتمتع به أي جنس غيره، جنسًا قد وُهب مخيّلة أقوى ممّا وُهب غيره، حتى يتفحص القوانين الماورائية المتحكّمة في العالم الأسمى، كما مكنه صفاء سمائه وشفافية لياليه العميقة في الصحراء من أن يتفحّص - قبل غيره - قوانين الفلك السماوية. أليس التأمل الباطني، فعلاً، هو علم فلك الروح؟

ولئن كنا بعيدين كل البعد عن أن ننسب إلى ذلك الجنس المتزهدِ الورعِ الرفعةَ والتفوقَ اللذين ينسبهما أهل هذا العصر إلى الشعوب التي لا همّ لها إلاّ الإفراط في الحساب والارتياب، شعوب الغرب، فإننا نعتقد أن الله قد حبا قبائل الرعاة، تلك التي كانت تسكن الجزيرة بالحظ الأوفر من ذلك، حسب عبارة التوراة. وإننا لنعتقد كذلك أن أسمى ما تستخدم فيه ملكات كل مخلوق هو معرفة خالقه قصد عبادته وخدمته، ونعتقد أن الله هو هدف الخليقة الوحيد، وأن الجنس المسيطر حقًا من بين مختلف أسر البشرية إنما هو الجنس الذي يحمل في دخيلته أوفر حظ من الشعور بوجود الله وبعبادته، كما نعتقد كذلك، أن أعظم الناس من بين أولئك، في نظر مقدّر كل عظمة، ليسوا من يمتلكون مساحات شاسعة من الأرض، و لا من يقتلون أكبر عدد من الناس، ولا هم أعظم من يؤسسون الممالك، وإنما أعظم الناس هم أتقاهم، فينبغي ألاّ نحكم على الأمور بما يبدو من قيمتها في مظهرها الخارجي الزائل، وإنما يكون الحكم عليها بما في جوهر ذاتها، وللعرب في هذا أمثولة تصوّر - على ما دأبوا عليه دومًا - الحكمة في قصّة:

دعا الملك نمرود يومًا في ما يروون، أبناءه الثلاثة، وأمر الخدم فأحضروا أمامهم ثلاث جرار مختومة، وكانت إحداها من الذهب والثانية من العنبر، والثالثة من الطين، وطلب

الملك من ابنه البكر أن يختار من بينها الجرّة التي تبدو له حاوية الكنز الأثمن - فاختار جرة الذهب وكان قد كتب عليها: المملكة، ففتحها فوجدها ملأى دمًا. ثم اختار الابن الثاني جرّة العنبر، وكان قد كتب عليها: المجد، ففتحها فوجدها ملأى برماد رجال كان ذكرهم مدوّيًا في العالم. أما الثالث، فقد أخذ الجرّة الوحيدة المتبقية، جرّة الطين، ففتحها فوجدها فارغة ولكنّ صانعها كتب في قاعها اسمًا من أسماء الله. ثم إن الملك سأل حاشيته: أي هذه الجرار أثقل وزنًا؟ فأما الطامحون فقالوا إنها جرة الذهب، وأما الشعراء والفاتحون فقالوا إنها جرّة العنبر، وأما الحكماء فقالوا إنها الجرة الفارغة لأن حرفًا واحدًا من اسم الله أرجح وزنًا من الكرة الأرضية.

وإننا على رأي الحكماء، وإننا لنعتقد أن أعظم الأمور ليست عظيمة إلا بنسبة ما فيها من الألوهية، وأن المثيب الأعظم حينما يحكم على هباء أفعالنا وعلى مظاهر زيفنا ورماد مجدنا، لا يمجّد إلاّ اسمه.

(٣)

كانت جزيرة العرب تتاخم - من بعض جهاتها - بلاد الروم، وكان الروم يومئذٍ سادة الشام، وكان يفصلها الفرات - من جهة بابل - عن الفرس، وكان يحميها من الحبشة البحر الأحمر، كما كانت تفصلها عن الهند الشرقية مسافة يكاد يستحيل على المرء قطعها عندئذٍ، يملؤها المحيط الهندي والخليج، وكانت حدودها في الصحراء مبهمة ملتبسة كالأفق، لا تستقرّ على حال كالرمال، فكانت تمتدّ أحيانًا إلى مصر من جهة سيناء وصحراء فاران وتمتد من جهة أخرى إلى دمشق وتدمر وبعلبك عبر قفار بلاد الرافدين.

وأهم مناطق هذا البلد الشاسع الحجاز، وهي منطقة جبلية قاحلة تمتد بموازاة البحر الأحمر وتميل باتجاه اليمن، وكانت مكة والمدينة عاصمتي تلك المنطقة.

ثم اليمن وهو الطرف الجنوبي الأقرب من الهند، وهو سابح في ضفاف المحيط الهندي من جهة وفي البحر الأحمر من الجهة الثانية، وكانت مدينة سبأ، التي وفدت ملكتها بعطورها على سليمان، واحدة من مدنه الهامة. ثم نجد، ويحتل من الجزيرة مركزها، وهو

هضبة عالية تنحدر في رفق، على الجانبين وتشرف على الشام من جهة وعلى البحر من جهة ثانية.

وأما الصحراء في حد ذاتها - آخر الأمر - فبحر آخر مترامي الأطراف من السباسب والرمال تنتثر فيه الواحات، وتحده بلاد فارس من هنا وفلسطين من هناك، لا يمكن ضبط حدودها إلاّ كما تضبط حدود الأمواج، تسير فيها القبائل قُدمًا أو تسير القهقرى، كالسفن على سطح الماء.

(٤)

إن أنساب كل قبيلة أو عشيرة أو بطن أو أسرة من القبائل والعشائر والبطون والأسر التي تؤلف الجنس العربي الكبير، كثيرة كثرتها، عجيبة مذهلة كمخيّلتها، وقد سجّل ذلك شعراء و مؤرخون لا حصر لهم، افتخارًا بتقدم أعراقهم، وأثبتوه في قصائدهم أو في تاريخهم. ويحتوي كل أثر من تلك الآثار والروايات المخصوصة مآثر وقصصًا تعدل، في أهميتها وبساطتها وسذاجتها وبطولتها ما في آثار هوميروس أو ما في التوراة، وهي آثار ترجمها وعلّق عليها ووضح غامضها وأرخها بعلم راسخ يعدله نَفَس شعريّ، عدد كبير من الكتاب المحدثين والمعاصرين وخاصّة منهم السيد سلفاستر دي ساسي، والسيد كوسان دي برسيفال، فمن شاء أن يمتح من تلك المنابع الغامضة التي جعلها صبرهم صافية، فليس دونه ودون ذلك سوى أن يطّلع على ما ألفه هؤلاء المؤلفون الذين يعزّ وجود أمثالهم، وفي تآليفهم من الطلاوة ما يشد القراء شدًا.

(٥)

كان إبراهيم - مهما يكن أصله وفصله، أبا العرب المشترك. وكان بعضهم أبناء هذا الملك، ملك الصحراء، المعترف بهم، من زوجه سارة، وهم العبرانيون، أما بعضهم الآخر، فكانوا ذريته الحبيبة إلى نفسه، ولكنهم كانوا مجحودين، وهم من أمَته هاجر، وهم أبناء إسماعيل، وهم عرب كذلك ولكن القدر أو قل طبعهم، قدر الأجناس البشرية، قسم لهم حظوظًا متباينة، فالتوراة تاريخ العبرانيين، ومنها خرج الإنجيل على يدي عيسى المسيح، أما التاريخ الذي نحن بصدد تأليفه، فهو تاريخ بني إسماعيل.

إن العرب المنحدرين من إسماعيل، هؤلاء الذين نتحدّث عنهم يسمون إبراهيم في كتبهم أباهم، خليل الله، ويقولون إن أباه آزر كان من أكبر أتباع نمرود الذي كان شبيهًا بالإله الأقوى والأضخم في مجموعة الآلهة البابلية. غير أن نمرود، وقد أفزعه خبرُ نبوءةٍ تعلن ميلادَ طفل أسمى من سائر البشر، ومنه هو بالذات، حظر كل علاقة بين الجنسين في مملكته، فولد إبراهيم من انتهاك الحب الزوجي لذلك الحظر، وكتم أبوه وأمه خبر ولادته اجتنابًا لغضب نمرود، وأخفياه - لإطعامه - في كهف خارج المدينة. إن هذه القصّة، وقصصًا أخرى كثيرة من صنفها في كتب المؤرخين العرب، تذكّر بما اتخذه هيرود من احتياط حذر متوقّى في بلاد يهودا، كما تذكّر بقصّة تقتيل الأطفال لتكذيب نبوءاتٍ شاعت حول توقع ظهور المسيح.

وترعرع إبراهيم في كهفه، تغذوه الملائكة، فاشتدّ عوده ونما عقله، وكان أول خروجه من الكهف ليلاً فأوحت إليه سماء بلاد يهودا المفعمة بكائنات مضيئة تسبح في الأثير بوجود الله غير أنه لم يكن عندئذٍ يحسن أن يميّز بين الله وخلائقه، فإذا بنجمة كانت تتلألأ وتشعّ أكثر ممّا تشعّ سائر النجوم قد بهرت عينيه، فقال في نفسه: «هذا ربي» فلم تلبث أن أفلت واختفت في الأفق فقال: «لا، ليست هي ربي الذي سأعبده»، وجرى له مع نجوم أخرى عديدة ما جرى له مع النجم الأول. ثم طلع القمر فصاح: «هذا ربي» فلما غاب، قال: «لا، ليس هذا ربي»، وبزغت الشمس - آخر الأمر - في أبهتها من الشرق في طرف الصحراء، فقال: «هذا هو ربي حقّاً، فهو أكبر حجمًا وأبهر نورًا من كل ما رأيت» غير أن الشمس اتخذت مسارها ونزلت وراء الأفق، وفسحت المجال لليل يعمّ الكون، فإذا بالفتى المرصود لعبادة الله الذي لا تراه العين، الخالد الذي لا يتحول و لا يتبدّل، يقول في أسى: «لا، ليس هذا أيضًا الإله الذي أنشد لأعبده»، فعاد إلى كهفه يبحث عن ربه في أعماق روحه.

(٦)

وأُخرج إبراهيم في آخر المطاف من معزله وقُدّم إلى نمرود على أنه شاب ولد قبل حظر الزواج في بابل بزمن طويل، فجعل يعرّف أهل بابل بالله الذي لا صورة له، ويدعوهم

إلى عبادته روحًا وحقاً، وإلى تقويض الأوثان في المعابد. ولنلاحظ أن هذا الجزء من القصّة هو نفسه الذي كان بذرة تبشير محمد ونبوءته، وقد كان مقصده الأوّل - على قوله هو نفسه - أن يقضي على الوثنية وأن يحيي دين إبراهيم.

(٧)

واقتاد رجال الدين البابليون ذلك الكافر إلى الأوثان، لمعاقبته والملك نمرود ينظر إليه، فقال الملك للنبي الشاب: «من هو إلهك إذن؟» فقال: «رَبِّي الذي يُحيي ويُميت»[١] فقال نمرود: «أنا أُحيي وأميت». وأمر بأن يؤتى - بحضرة إبراهيم - باثنين من المجرمين من سجن بابل، محكوم عليهما بالإعدام، وكانا ينتظران تنفيذ الحكم فيهما، فأمر بقطع رأس أحدهما، وعفا عن الآخر، وظن أنه أفحم محدّثه. ولكن إبراهيم، وجد حرجًا بادئ ذي بدء في إنكار تلك السفسطة وهي تفعل فعلها، ثم تدارك أمره، وأرسل في وجه الملك تحدّيًا في غاية العظمة، مجاله السماء نفسها، وقال: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب»[٢] فكان جواب نمرود جواب المستبدّ الذي لا جواب له، كان جوابه النار، وألقى النبي الشاب في محرقة، ولكن النار كانت بردًا عليه كما جاء في القصّة، فأوغل إبراهيم في صحراء بلاد الرافدين مع أسرته وعبيده وماشيته.

تلك بداية العبرانيين، وهم عرب التوراة وعرب أورشليم، أبناء إسحاق. فلننظر في ما كان أمر عرب الصحراء ومكة، أبناء إسماعيل.

ترك إبراهيم أمَته هاجر وابنه منها، إسماعيل، في المكان الذي ستقام عليه تلك المدينة (مكة)، وكان موضعًا لا سكن فيه و لا عين ماء، إرضاء منه لغيرة زوجه سارة.

وما إن استنفدت هاجر المسكينة ما ترك إبراهيم لها ولابنها من التمر والماء زادًا، حتى أخذتها آلام العطش فجعلت ترود، وقد استبدّ بها اليأس، في شعاب الصفا وأوديته الجافة، تطلب فيها - دون جدوى - بعض الماء أو حتى نزَّ الصخور لتبلل شفتي ولدها، وجعل إسماعيل يبكي من العطش وقد عيل صبره أثناء غياب أمّه، فضرب الرمل بقدمه

---

(١) سورة البقرة. من الآية ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة. من الآية ٢٥٨.

وهو في سَوْرة الغضب، فنبعت عين ماء بارد صافٍ، وهرعت هاجر لسماع صراخ ابنها، فلمحت الماء وخافت أن يتبخّر بفعل الشمس وأن يضيع في الرمل، فعجنت التراب المبلل بيديها وعملت منه حوضًا لتحبسه، فكان ذلك هو هذا الماء العجيب، فيما يروي العرب، الذي ما يزال ينساب إلى اليوم، ماء بئر زمزم بمكة، الشهير الذي يبارك كل من شرب منه.

(٨)

كان رعاة من بعض القبائل الرحّل يرعون إبلهم على سفح جبل عرفات، غير بعيد عن ذلك المكان، فرأوا نسورًا تقع على ذلك الموضع الذي حدثت فيه تلك المعجزة فخمّنوا أن الطيور أحست بنداوة بعض الغدران، فأسرعوا إلى المكان، فوجدوا عين الماء ولقوا الأم الشابة وابنها، فقالوا لهاجر: «من أنت ومن هذا الطفل، ومن أين جاء هذا الماء، فإننا لم نر قط ماءً هنا منذ سنين وسنين ونحن نجوب هذه القفار». فحدثتهم هاجر بأمرها وبهجران زوجها إياها، فرقّوا لحالها، وبدا لهم ذلك الطفل الذي انشقّت له الأرض كالضّرع مخلوقًا قدر له أن يكون مباركًا، فأخبروا قومهم بتلك الآية فقدمت القبيلة وسكنت ذلك الموضع، وترعرع إسماعيل وسط أولئك الناس وتزوج واحدة من بناتهم تدعى عمارة.

وزاره إبراهيم مرّتين، وقد أذنت له سارة في ذلك، غير أنها – وقد ظلت دومًا على غيرتها – اشترطت عليه ألاّ يترجّل عن حصانه وألا ينزل بيت ابن هاجر.

فأما عند زيارة إبراهيم الأولى لمكة، فقد توقف عند باب بيت إسماعيل وناداه باسمه، فجاءته عمارة، زوجة إسماعيل إلى الباب فقال لها دون أن يترجّل: «أين إسماعيل»، فقالت: «ذهب إلى الصيد» فقال: «أليس عندك طعام تقدمينه إليّ، فإني لا أقدر على النزول عن فرسي» فقالت: «ليس عندي شيء، فهذا البلد قفر» فقال إبراهيم: «إذن قولي لزوجك زارنا اليوم رجل غريب، وصفي له ملامح وجهي وقولي له إني أوصيه بإبدال عتبة باب بيته».

وحينما عاد إسماعيل، أبلغته عمارة الرسالة، فطلقها زوجها وقد ساءه أن لم تُقرِ أباه، وتزوج فتاة من قبيلة أخرى تدعى سعيدة. ورجع إبراهيم بعد فترة ليزور ابنه، فإذا

هو غائب عن البيت، فبدت على عتبة الباب امرأة شابة هيفاء رشيقة، لتجيب عن أسئلة الغريب، فقال إبراهيم لكنّتهِ دون أن يعرّفها بنفسه ولا ترجّل عن حصانه: «أعندك طعام تقدّمينه إليّ؟» فقالت على الفور: «نعم!» و دخلت إلى البيت وسرعان ما خرجت وقدمت للمسافر لحم جدي مطبوخًا ولبنًا وتمرًا، فذاق إبراهيم ذلك الطعام ثم باركه وهو يقول: «كثّر الله في هذا البلد هذه الأصناف الثلاثة من الطعام»

وبعد أن أكل الشيخ قالت له سعيدة: «انزل عن فرسك حتى أغسل رأسك ولحيتك !» فقال: «لا أقدر على ذلك فقد قطعت على نفسي عهدًا بأن لا أغادر سرج مطيّتي»، ثم اكتفى بأن وضع إحدى رجليه على حجر كبير كان قرب باب البيت، بينما ظلت رجله الأخرى ممدودة على سرج فرسه، فخفض بذلك رأسه حتى صار في مستوى يدي المرأة، فغسلت ما كان عالقًا بعينيه ولحيته من غبار الطريق، ثم إن الشيخ الجليل قال لها وقد همّ بالانطلاق: «حينما يعود زوجك، صفي له ملامح وجهي، وأبلغيه أن عتبة بيته مشرقةٌ مكينةٌ أيضًا، فليحذر كل الحذر من استبدالها».

وحينما سمع إسماعيل تلك القصة وتلك العبارات، قال لسعيدة: «إنّ الذي رأيتِ اليوم هو والدي، وهو يأمرني بأن أستبقيك زوجةً لي دومًا». فكانت كلّ الذرية التي تكاثر بأجيالها رهط إسماعيل، من سعيدة.

ولما زار إبراهيم ابنه للمرّة الثالثة، بنى معه بمكة معبدًا هو بيت الله الذي يسميه الناس «الكعبة». وهذا المعبد الذي ما يزال إلى اليوم معبد مكة، كان مبنى صغيرًا دون شكل محدّد، لا نوافذ له ولا باب ولا سقف، بُني بقطع من الصخور غير سويّة الزوايا، كان إبراهيم يتولى البناء وكان إسماعيل ينحت الحجر. ونزّلا في جهة من جهات الجدار الحجر الأسود المشهور، فقد جاء به إليهما ملك من السماء تقديسًا لبيت الله، وأسّسا الحج والمناسك والطواف حول هذا المعلم، وهي جميعًا ستجعل من مكة - بعد ذلك - العاصمة الدينية لجزيرة العرب.

ومهما يكن من أمر هذه السنن الميثولوجية، فقد صارت مكة، لأنها تحتوي الكعبة، مقصد كل حاج، ومركز معتقدات كل العرب الذين لم يكونوا يهودًا، ثم استعاض الناس عن دين إبراهيم فعمروا الكعبة بالأوثان، وفشت فيهم وثنية غامضة مختلطة اختلاط أحلام شعب كان كطفل جاهل متعلّق بشهوة المادة، وثبتت تلك الوثنية أمام ضربات الفرس وحكام بلاد ما وراء النهر والفينيقيين واليهود والروم، وتواصل أمرها إلى عصر محمد، منحرفة بأخلاق العرب، مفسدة لعقولهم.

لقد كانت تقاليد العرب في حياتهم، وهي عادات شبه بدوية، كما كانت طبيعة جنسيّتهم التي لم يكن فيها من الروابط الموحدة لهم إلاّ أصلهم وموطنهم ولغتهم وأعرافهم، تجعل أيّ تعديل في معتقداتهم وفي حضارتهم أمرًا يكاد يكون مستحيلاً. فقد كانوا يشبهون رمال صحرائهم، ينزلق من بين اليدين إذا أرادتا الإمساك به.

فلنلق نظرة سريعة على تاريخهم وحضارتهم حتى ندرك جيدًا صعوبات المهمّة التي انتوى نبيّهم تحقيقها.

(٩)

لم يكن العرب يؤلفون البتة شعبًا، بل كانوا مجموعة من القبائل، والعشائر والأسر والأقوام الرحّل يختلف عدد كل منها عن سواه قلّة وكثرة، كان بعضها في الحواضر وكان أغلبها بدوًا رحّلاً دومًا، وكانت قراهم ومدنهم الصغيرة وخيامهم الجمّة العدد وماشيتهم الكثيرة تغطّي ساحل البحر الأحمر، ذلك البحر الذي يمتد من مصر إلى المحيط الهندي، ولسنا نرى جدوى من استعراض أسماء تلك القبائل والجموع المستقلّ بعضها عن بعض. وقد كانت تتحالف حينًا ويعادي بعضها بعضًا حينًا آخر، دون أن تكون ثمة سلطة عليا تفرض عليهم القانون أو السلم أو الأمن، أو تضمن لهم الاستقلال، فذلك مما يثقل على القارئ في هذا المقام، إذ ربما استوجب ذلك كتابة تاريخ كل مجموعة من الخيام التي في الصحراء. غير أن بعض القبائل كانت أعظم شأنًا من بعض، وأكثر عددًا وأوفر حظًّا من الزرع أو المال أو الماشية، وأبعد صيتًا في الحرب، تضمّ إليها من حين لآخر بعض القبائل

التي دونها شأنًا وعددًا ومالاً، أو تحميها أو تهيمن عليها، فكانت تثير فتنًا تضرّ بالجزيرة أيما ضرر. غير أن فترات ذلك التسلط لم تكن دائمة ولا قانونية: ذلك أنها كانت تكتسب في واقعة أو معركة وتُفقد في أخرى. كان دستور جزيرة العرب الحرب الأهلية الدائمة بين كافة أعضاء هذه «الجمهورية الفيدرالية» من القبائل، ولم يكن فيها لا كهنوت ولا حاكم مستبدّ ولا سلطة ملكية أو وطنية، لا ولا أيّ مجلس ثابت مستقل – في قراره – لم يكن فيها شيء من ذلك كله يفرض قوانينه على تلك الفوضى وذلك الاعتباط اللذين كانا يسودان مختلف أعضاء الكنفدرالية، لقد كانت جمهورية دون تمثيل و لا مركز موحّد، كانت جمهورية مكوّنة من عدد كبير من الممالك الصغيرة الوراثية يحكمها شيوخ قبائل كان نسبهم هو سند حكمهم، ولم تكن ثمة دولة، و إنما كانت الأسرة – وقد تكاثرت فصارت قبيلة – هي وحدها ذات الوجود الحق.

ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أن السلطة التي كان يفتقر إليها المركز، سلطة نلقاها متينة التكوين في العادات والتقاليد داخل الأسرة، ولئن كان لشيخ القبيلة سلطان مطلق، فإن ذلك السلطان ـ عند الممارسة الفعلية ـ كان أقرب إلى الرفق والتراضي في تصريف شؤون الأسرة وفي سياسة الأب لأبنائه منه إلى التسلط. فقد كان يجتمع إخوة شيخ القبيلة وأبناؤه وأقرباؤه والشيوخ والعقلاء والأثرياء والمقاتلون المشهود لهم بالبطولات. والشعراء المشهورون بقصائدهم البديعة، في مجلس دائم إما أمام خيمة رئيس القبيلة وإمّا في بيته، فكانوا يتداولون الرأي في الأمور كافة ويقرّرون ما ينبغي القيام به على رؤوس الملأ ولم يكن لهم في ذلك كتاب ولا ميثاق ولا قوانين مدوّنة، غير أن العادات المهيبة والتقاليد المصونة كانت ذات سلطان على النفوس يستمد مناعته وإطلاقه من كونه محفورًا في الذاكرة، يرضاه جميع الناس ويراعون مقتضياته، فكان كل انتهاك لذلك تدنيسًا، وكانت كل قبيلة تتسمّى باسم جدها الأوّل.

(١٠)

كانت ديانتهم متحرّرة من القيد تحرّر سياستهم، فكان بعضهم يعبد الملائكة أو الأرواح السماوية، وكانت في معتقدهم وسائط يتمثلونها نساء، وكانوا يسمونها «بنات

الله»، وكان بعضهم الآخر يعبد القمر والنجوم، وكان هؤلاء يعتقدون أن الإنسان يبدأ بالولادة وينتهي أمره مع آخر نفس في حياته، كما كانوا يعتقدون أن الحياة الإنسانية ليست سوى فترات لا تنتهي من الوجود المتجدّد في عوالم أخرى وفي أشكال أخرى، فإذا مات الواحد منهم ربطوا أفضل نوقه إلى وتد قرب قبره، وتركوها تموت جوعًا على جثّة سيّدها، حتى يجد راحلته التي اعتاد عليها في العالم الذي أخذه إليه الموت، وكانوا يرون أن البوم الذي يحوم في الصحراء حول القبور مرسلاً نعيبه النائح، هو أرواح الموتى الصادية تطلب الماء من الأحياء، وكانوا أيضًا يجسّدون صور آلهتهم بالحجر أو الخشب وكانوا يعبدون تلك الأوثان الخرساء.

وكانت ديانتهم البدائية ممتزجة بخرافات اليهود ومعتقدات الروم والإغريق والفرس، بحسب ما كان للقبائل من صلة وخلطة بهؤلاء أو أولئك ممّن كان حولهم من الأمم، وكانت عادة الختان ـ وقد أخذها العرب عن العبرانيين ـ فاشية في جميع القبائل. وكانت استشارة الآلهة تتم بكتابة كلمة على ثلاثة سهام دون سنان توضع في كيس ثم يسحب أحدها دون تمييز، والكلمة المكتوبة على السهم المسحوب هي قرار القدر في قضية الحال. وكان العرب يمارسون الرّق. وكان بوسع كل منهم أن يتخذ عددًا من الزوجات بقدر ما تسمح له إمكاناته وكان الابن يرث أرامل أبيه كما يتلقى الماشية في تركة الميت، فكان ارتكاب المحارم بين المرأة و ربيبها أمرًا غير محظور في حالات معلومة، وكان لكل ربّ بيت الحق المطلق في التصرّف في أهل بيته وعبيده، يهبهم الحياة أو يحرمهم منها، وكانت لهم عادة وحشية تتيح للأب والأم، إذا كانا في فاقة و إملاق أن يئدا بناتهما عند ولادتهن، اتقاءً للمصير المشؤوم الذي كان المجتمع يخصّ به النساء، أو خشية انتهاك الحرمة أو خشية العار الذي قد تجلبه البنت على سمعة البيت. ولم يكن للعرب من مشغل سوى العناية بالماشية وخوض الحروب.

لقد كانت الحرب فيما بينهم حربًا شخصية، إن صحّ القول: فقد كان العنف يجرّ قتلاً، وكان ينبغي أن يُفتدى القتيل إما بعدد من الإبل يُرضي أهله أو بالثأر له من القاتل،

كان العدل قائمًا على قاعدة الدم بالدم، فكان الثأر لذلك واجبًا مقدّسًا، فإذا سُبيت امرأة أو افتك عبد أو فرس أو سُرق بعير، ولم ترض قبيلة بما عرضته عليها قبيلة أخرى من فدية، نشبت بينهما حروب قد تدوم عشر سنوات أو خمسين سنة.

غير أن هذا التشريع الذي يبدو وحشياً في جوانب كثيرة منه، لم يكن يفتقر مع ذلك، لا إلى الإنسانية و لا إلى الفضيلة و لا إلى الحكمة، بل لا و لا حتى إلى الرقة إذا نظرنا إليه من زوايا أخرى، ذلك أن العرب كان لهم حرص شديد - حدّ الهوس - على الكرم وحسن الضيافة، فقد كان غريمهم الأشد عداوة يجد لدى خصومه ملجأ وأمنًا وحتى حماية بمجرّد أن يتوصل إلى ملامسة حبل خيمتهم أو ذيل ثوب بعض زوجاتهم، لقد كانوا شجعانًا، كرماء، أبطالاً، وكانت كل خصال الفروسية بل وجميع مظاهر المهارة والرقة التي في الفروسية والتي لم تعرفها أروبا إلاّ في عهد قريب، أصيلة في تقاليدهم منذ دهور لا يُذكر أولها. ولما كان للعرب إحساس مرهف بالفصاحة والشعر والموسيقى، فقد كانوا يجلّون من كان منهم موهوبًا في ذلك، كما لو كان من نسل الآلهة، إذ كانوا يعتبرون تلك المواهب مما يخرق مألوف العادة، و رغم أن آدابهم لم تدون في كتاب، فقد كانت محفوظة في ذاكرتهم، وكان للقبائل في ما بينها ما يشبه الألعاب الأولمبية، يتساجل فيها الخطباء والشعراء، كلّ يسعى إلى إثبات تفوّق قبيلته في ذلك، فكانت القصيدة التي تفوز بالسبق بشهادة أكبر عدد من السامعين، تكتب وتعلّق إلى الأبد على أحد جدران الكعبة بمكة، فكان الحجيج الوافدون بأعداد غفيرة كل سنة يعجبون بحسن صياغتها وعبقرية قائلها، فيتناقلون تلك البدائع في عودتهم إلى قبائلهم ويذكرون ما نالت من صيت ذائع ويتحدّثون بصنعة شاعرها في مختلف أرجاء جزيرة العرب. وكانت تلك القصائد المتوّجة المشهود لها لدى القاصي والداني من أفراد الأمة تسمّى المعلّقات، وكانت لها قواعد نظم تطابق عبقرية تلك الأمة من المقاتلين الذين تيّمهم الحب وشغلهم رعي الماشية، وكان يحجر على الشعراء أن يخرقوا تلك القواعد. كان على تلك القصائد أن تبدأ بضرب من البكاء والتفجع الوجداني للتعبير عن ألم محبّ حزين وقد رأى – وهو يعبر الصحراء – أطلال ديار كان قد نعم فيها بالسعادة مع حبيبته، وقد كانت هذه الصورة – في ما يبدو – أشدّ الصور

إشجاء لقلب العربي، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف ناقته أو فرسه وبيان كمال خلقتها، وقد كانت الناقة والفرس صاحبيْ البدوي في ترحاله وفي حربه وسلمه، وينبغي أن تختم القصيدة بوصف رائع لمشهد الطبيعة كما لو كان ذلك زخرفًا في نهاية مأساة. لقد كانت تلك الأمّة التي كانت تحيا دومًا بصحبة الأرض، تريد أن تراها وقد صُوِّرت دومًا وفق ما تمثله المخيّلة، في أبيات شعرائها، إن تاريخ الشعراء، وهم لدى العرب بمثابة الأنبياء، ممتزج دومًا بتاريخ القبيلة وأبطالها، وهؤلاء الأبطال هم الشعراء أنفسهم عادة.

كان امرؤ القيس، وهو واحد من أكثر الشعراء مغامرة، وأشدهم بطولة، وأعظمهم قدرًا، يكاد يلامس في الزمن فترة ميلاد محمد، وليس في آداب اليونان و لا آداب روما ولا الآداب الحديثة ما يفوق في الكمال أبيات هذا البدوي النفور الضّال، المقاتل المحبّ المتغني بما لقي في الحب من فرح وترح، وإليك بعض الأبيات نقتطعها من قصيدته التي كانت معلّقة على بعض جدران معبد مكّة[1]، زمن محمد:

قفا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ ومنزلِ
بسِقْطِ اللِّوى بَينَ الدَّخُولِ فَحوملِ
(...)
وقُوفًا بها صحبي عليَّ مطِيَّهُمْ
يقُولون لا تهلكْ اسىً وتجمَّل
وإنَّ شفائي عَبْرةٌ مُهَراقَةٌ
فهل عندَ رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّل
كدابِكَ من أُمِّ الحوَيرثِ قَبْلها
وجارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بماسَل
(...)
فَفاضتْ دُموعُ العين مني صبابةً
على النَّحر حَتَّى بلَّ دمعيَ مِحْمَلي
(...)

(١) هناك خلاف في مسألة تعليق القصائد الطوال أو المعلقات، بين القدماء والمحدثين. (المراجع).

ويومًا على ظهر الكثيبِ تعذّرتْ

عليَّ وآلتْ حَلْفَةً لم تَحَلّلِ

افاطِمُ مَهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ

وإنْ كنتِ قَد ازمعْتِ صَرْمي فاجْملي

ويرد بعد هذا البيت وَصف محاسن حبيبته، وصفًا ليس يفوقه رونقًا ولا سموّاً ما في نشيد إنشاد النبي سليمان، ثم يصف بعد ذلك شدة ما به من الهيام.

وليلٍ كموجِ البحر أرخى سُدولَهُ

عليَّ بانواع الهُمُوم لِيَبتَلي

فقلتُ لهُ لمّا تمطّى بصُلْبهِ

واردَفَ أعْجازًا وناء بكَلْكَل

الا أيها الليْلُ الطويلُ الا انْجَلي

بصُبْحٍ وما الإصْباحُ منْكَ بامثَل

فيا لكَ من ليْلٍ كانّ نُجومَهُ

بكلّ مُغار الفَتْل شُدَّتْ بيذبُل

(...)

وقد اغْتَدِي والطيرُ في وُكُناتها

بمُنْجَرِدٍ قيْدِ الأوابدِ هيْكلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُدْبِرٍ مُقبلٍ معًا

كجُلمودِ صَخْرٍ حَطّه السَّيْلُ من عَلِ

كُمَيْتٍ يَزلُّ اللِّبْدُ عنْ حالِ مَتْنِه

كما زلّتِ الصَّفْواءُ بالمُتَنزِّلِ

مِسَحٍّ إذا ما السّابحاتُ على الونَى

اثرْنَ الغُبارَ بالكَديد المُركّل

(...)

على الذّبْلِ جيّاشٌ كأنّ اهتزامهُ

إذا جاشَ فيه حَمْيُهُ غلْيُ مِرْجل

(...)

كأنّ دماءَ الهاديات بنحرهِ

عُصارةُ حِنّاءٍ بشَيبٍ مُرَجَّل

(...)

وباتَ عليْهِ سَرجُهُ ولجامُهُ

وباتَ بعَيْني قائمًا غيرَ مُرْسَل

وبعد وصف الفرس، وقد اختصرناه، وهو وصف يذكرنا بفرس أيوب النبي، يذكر الشاعر العربي واحدة من الظواهر الطبيعية التي تتلذذ بها أنفس الرعاة، وهي المطر العاصف في الصحراء.

والقى بصحراء الغبيط بَعاعَهُ

نُزولَ اليماني ذي العِياب المُحَمَّلِ

كأنّ السّباعَ فيه غرقى عَشيَّةً

بأرجائِهِ القُصوى أنابيشُ عُنصَلِ

ذاك شأن أدب تلك الأمّة، إنه أدب يضارع في متانته وفي رونقه أدب اليونان أو روما، غير أنه يفوقه في بساطته وفي طبعه، فهو تمتمة وحشية رشيقة ترسلها بشرية بدائية.

(١١)

كان أولئك الملهمون الذين كانوا رعاة إبل وشعراء وأبطالاً يحيون حيوات فيها من الشعر ما في قصائدهم منه، وسنكتفي بذكر مثال واحد نستكمل به هذا المشهد عن عاداتهم وتقاليدهم وذلك من خلال حياة واحد منهم، هو المرقّش الأكبر الذي مات زمن بداية بعثة محمد.

كان المرقش ابن شيخ قبيلة يدعى عمرًا، وكان يحب واحدة من بني عمومته من القبيلة ذاتها وتدعى أسماء بنت عوف، فخطبها من عمه، فقال له عوف: «ما زلت في أول شبابك، ومازلت خامل الذكر فقيرًا، غير أني أعد بتزويجك ابنتي إذا ذاع صيتك وغدوت ثريًا» فارتحل المرقش يطلب ما يصير به جديرًا بابنة عمه، فطاف بين القبائل، واشتهر بإقدامه وعبقريته، واكتسب مودة بعض ملوك العرب وكان ملكًا قويًا مواليًا للفرس، فحصل وهو في بلاطه على قطعان ماشية وعلى خيامٍ وأقمشة وجواهر حقيقة بأن تهدى لعمّه مهرًا لابنته أسماء.

ولكن حدث أثناء غيابه أن أصابت المجاعة قبيلة عوف فنسي عوف ما وعد به ابن أخيه، فزوّج ابنته لواحد من أثرياء عرب اليمن، وجعل مهرها مائة بعير محمّلة قمحًا وشعيرًا، فأخذ الزوج أسماء إلى نجران، بلده.

وعند عودة المرقش إلى قبيلته أنبأه أهله رحمة به، حتى لا يبرّح به الألم بأن ابنة عمه قد ماتت، فاستبد به الياس حتى المرض، غير أنه اتفق له أن اكتشف خداع عوف، وزواج أسماء ومكان إقامتها، و رغم أنه كان في حال من يحتضر، فقد ارتحل عساه يرى حبيبته، ولكنه كان خائر القوى، لا يمكنه الركوب على صهوة جواده، فسافر ممدّدًا على ظهر الجواد يسنده عبدان، وازدادت حاله سوءًا بالسفر واشتد تعبه وهو غير بعيد عن نجران، واعتقد العبدان، وقد رأياه مغمى عليه، أنه مات، فطرحاه في الظّل في مغارة ببعض الجبال وتركاه هناك، فلقيه، وهو على تلك الحال ولكن بعد أن عاد إليه وعيه، راعٍ كان يحرس ماشية زوج أسماء. فقال له المرقش: «هل يتسنى لك أن تدنو أحيانًا من زوجة سيّدك دون رقيب وهل بمقدورك أن تبلغها رسالة في السر؟ فقال الراعي: «لا، ولكني أرى كل مساء بعض جواريها تأتي لتحلب العنزات التي أرعى وتأخذ لبنها لسيدتها»، فقال المرقش: «إذن فإني أطلب منك أن تسدي لي خدمة تنال عليها أحسن الجزاء، خذ هذا الخاتم واجعله في اللبن الذي تحمله الجارية إلى أسماء».

ولما جاءت الجارية ـ عند المساء ـ بالقدح الذي كانت سيدتها تشرب فيه اللبن، وضع الراعي فيه الخاتم خفية وهو يصبّ اللبن. فأحست أسماء ـ وهي تشرب اللبن ـ برنين الخاتم في الإناء، فأخذته وتأملته على وهج النار فعرفته بعلامات كانت هي قد نقشتها عليه حينما أعطته لابن عمها، فاستوضحت الجارية عن الأمر فإذا هي مدهوشة دهشة سيدتها. فنادت زوجها وقالت له: «أرسل في طلب راعي العنز، واسأله عن مأتى هذا الخاتم».

فقال الراعي لسيّده: «أعطاني هذا الخاتم رجل لقيته في غار جبّان، وقد ناشدني أن أضع الخاتم في اللبن الذي يُقدم لأسماء، ففعلت ما طلب، غير أني لا أعرف اسمه و لا قبيلته، وحينما فارقته في المغارة، كان نفسه الأخير غير بعيد عن شفتيه».

فقال الرجل لزوجته: ولكن، لمن هو هذا الخاتم؟ فقالت أسماء: «هو خاتم المرقش، وإنه في الرمق الأخير، فلنسرع في إغاثته».

فأمر الزوج بأن يعدوا له جواده، وأمر بإسراج جواد آخر لزوجته، عسى أن تردّ للمريض رؤية التي كان يحبها العافية و الحبور. وانطلقا يصحبهما جمع من العبيد يحملون زادًا و محفّة مشدودة إلى جنب بعير، فبلغا المغارة قبل الليل، فأنجدا المرقّش، وكان يحتضر، وحملاه إلى نجران، وعاملاه معاملة الأخ، غير أن رقتهما و رأفتهما به لم تجديا في أن يلتئم بهما الجرح الذي في نفسه ممّا أحدثه عمه بإخلافه وعده وممّا داخلها من خيبة وإحباط عند عودته بعد أن وقع المقدور، ولكنه، على كل حال، تأسّى أعظم التأسّي بالموت في بيت أسماء وبحضرتها.

(١٢)

تلك كانت عادات العرب زمن مجيء محمد، ورغم ما كان لهم من أرض شاسعة فإن عددهم لم يكن كبيرًا فقد كانت الصحراء، وبعد عيون الماء بعضها عن بعض، والصخور والرمال، والحياة الرعوية التي تلتهم الأرض ونمط العيش البدوي الذي لا يخصب شيئًا

حيثما مرّ، وانعدام الفلاحة التي لم يكن العرب يتعاطونها إلا بالقرب من المدن، وكانت قليلة العدد صغيرة الحجم، وتعدد الزوجات الذي ينضب منبع الرجال، والرق الذي يُبيد الأُسَر، والحرب التي تحصد الأجيال، كل ذلك لم يكن ليتيح لتلك القبائل أن تتكاثر كالشعوب الفلاحية المستقرّة المتمدّنة، وقل أن يذكر المؤرخون أن عدد أفراد هذه الأمة التي ستضمّ إلى عقيدتها ثلث الكرة الأرضية، يتجاوز المليونين أو الثلاثة.

كانت المسيحية، وهي تنتشر شيئًا فشيئًا، حتى غدت ديانة الإمبراطورية الرومانية قد بلغت قرنها السادس. وكانت الجزيرة العربية البدوية، كما كانت الجزيرة في جزئها الشامي، تعجّ بالذين يدعون النبوّة، وكان في ذلك ردّ فعل على النبوات العبرانية. وكانت بعض الكهانات والحدوس الغامضة تتحدث إلى القبائل المترحّلة عن «مسيح» ستبدّل ولادته الجزيرة، بل كان هناك نبأ يسري أنه سيولد في قريش، وكان القرشيون سادة مكة وسدنة الكعبة، معبد إبراهيم.

(١٣)

كانت قبيلة قريش حضرية بدويّة في الوقت نفسه، وكانت وفيرة العدد، عزيزة الجانب، تحكم مكّة وبعض الأماكن المجاورة لها، وكان يسوسها، مثل سائر القبائل بوجه عام، ضرب من الأرستقراطية الجمهورية، للوراثة فيها و النسب و الأعراف والثروة ما يمنح السلطة لبعض البيوتات ويوزعها بينها، وكان لتلك الأسَر ذات الشأن في مكة ما يشبه السلطة الدينية العليا، علامةً على سلطانها، وهي السدانة والرفادة والسقاية التي كانت تمارس في فترة الحج إلى الكعبة وإلى بئر زمزم وإلى المواضع المعروفة بقداستها التي يزورها الحجيج. وكان ذلك «الكهنوت» مصدر ثراء لتلك الأسر ولسكان مكة كلهم وعنوان إجلال لهم من لدن سائر القبائل.

كان عبد المطلب، وهو جدّ محمد، يباشر، سنة (٥٠٠) من ميلاد المسيح، أسمى تلك الوظائف، وظيفة توزيع المؤن واستضافة حجيج مكة. ولكنه، على كرم محتده وشجاعته في القتال وثرائه وعزّته، لم يكن ينقص سعادته وتواصل رفعة منزلته في مكة إلاّ أن يكون له

أولاد، وهم دليل مباركة الله للآباء. فنذر أن يذبح بيديه أمام الكعبة، لرب البيت المقدّس كما فعل إبراهيم، واحدًا من أولاده إذا رزق عشرة ذكور يسندون شرفه ومنزلته وتتواصل بهم حقوقه التي ورثها على عين الماء المقدسة في مكة، فولد له بعد هذا النذر اثنا عشر ابنًا وست بنات، فأحس – في ألم – أنه قد آن أوان الإيفاء بالنذر، فجمع أولاده العشرة الكبار وأفضى لهم بالنذر الذي قطعه على نفسه. فقبل الأولاد صابرين ما يريد المعبود وما يختاره أبوهم، غير أن الأب وجد أن اختياره هو نفسه لواحد من أولاده المطيعين ليكون قربانًا، أمر في غاية القسوة. فالتجأ إلى القداح، فأعطاه كل واحد منهم قدحه الذي فيه اسمه، فخرج القدح على عبد الله وكان أحب ولد عبد المطلب إليه، ولكن القرشيين – وكانوا أيضًا يحبون عبد الله حبّاً جمّاً – اعترضوا على ذبحه، فاستشاروا عرّافة، فأشارت باستبدال ذبح عبد الله بتقديم مائة ناقة قربانًا لربّه.

(١٤)

وبعد أن استبدل عبد المطلب دم ابنه بدم مائة من الإبل ينحرها بنفسه أمام معبد مكة، رجع إلى بيته وقد أمسك ابنه عبد الله من يده، وكان عبد الله على غاية من الوسامة، يحبّه أهل مكة أكثر مما كانوا يحبون سائر أبناء قريش، ولما رأى الناس أن عبد الله قد نجا بأعجوبة وعاد إلى أبيه، لم يشكّوا في أنه كان مرصودًا من السماء لأمر جليل مقبل، وشاع خبر أن نبي العرب سيكون من صلبه. وكانت امرأة شابة كريمة الأصل حسناء من بني الحارث، قد فتنها ما كان يشعّ من وجه الشاب من نور يكاد يكون نورًا إلهيّاً، فدنت من عبد الله وكان ممسكًا بيد أبيه، ومالت على أذنه وقالت: «أعطيك من الإبل عدد ما نُحر اليوم عنك، إن أنت قبلت وخطبتني الليلة لأكون لك زوجة» فقد كانت – بذلك – تأمل أن تكون والدة الرجل العظيم الذي كانت جزيرة العرب تنتظر، فقال لها عبد الله: «عليّ الآن أن أتبع والدي».

فأخذ عبد المطلب ابنه رأسًا إلى وهب، وكان واحدًا من الشيوخ الأجلاء بمكة، فخطب منه ابنته آمنة زوجة لعبد الله. فتمّ زواجهما في تلك الليلة استكمالاً لما شهد ذلك اليوم من أيام السعد، من احتفال.

ولما خرج عبد الله – من غد – من بيت وهب، لقي في ساحة المعبد، تلك المرأة التي رغبت أمس في أن تكون له زوجة، ولكنها بدت تنظر إليه دون اكتراث، فدنا منها وقال: «أما زلت ترغبين اليوم في ما كنت تنشدين أمس؟» فقالت القرشية: «لا، لست أريد منك شيئًا، فقد انطفأ النور الذي كان أمس يشعّ من وجهك».

لقد كان محمد في أحشاء آمنة، فانتقل النور من وجه زوجها إلى وجهها هي.

(١٥)

و أرسل عبدَ الله أبوه إلى يثرب بعد شهرين من زفافه وهي مدينة بعيدة، في (ميرة تمر)، فمات في تلك الرحلة وعمره خمسة وعشرون عامًا، ودفن في أرض بني النجار، تحت نخيل بعض أخواله[1] .

كانت أرملته آمنة تحمل محمّدًا، فرأت في المنام نهرًا من النور يخرج منها وينتشر مثل الفجر على وجه الأرض، و وضعته في اليوم الأول من سبتمبر/ أيلول سنة (٥٧٠) من ميلاد المسيح. وكانت عادة الحضر من العرب الأغنياء ما هي عليه اليوم أيضًا: كانوا ينشئون أولادهم في الأسر البدوية التي تعيش تحت الخيام. وكان الهدف من تلك التربية مزدوجًا: أوّلاً كان الطفل يكتسب من تلك الحياة البدوية الرعوية جسمًا أسلم وسلوكًا أصلب مما لو بقي بالحواضر، وثانيًا: كانت المحبة التي تنشأ بين الطفل والأسرة البدوية التي يرضع فيها ويبدأ حياته بين أفرادها، تمنح عائلته القوية التي ينتسب إليها ولاية لا تنفصم عراها على الأسرة البدوية التي شهدت نموّه.

وأولم عبد المطلب غداة ولادة حفيده وليمة نحر لها كثيرًا من الإبل، ودعا إليها جلّ سكان مكة، وسأل المدعوون عبد المطلب في آخر الوليمة «ما سيكون اسم الولد الذي دعوتنا إلى وليمته» فقال الجد: «محمد». فاندهش الضيوف لأن ذلك الاسم لم يكن رائجًا في مكة. فقال الشيخ: «لقد سميته كذلك لأني أرجو أن يكون هذا الصبي الذي ولد ليتواصل به نسلي محمّدًا من الله في السماء، ومن البشر على الأرض».

---

(١) يذكر الطبري أن أم عبد المطلب بن هاشم كانت من بني النجار، انظر: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص، ٢٤٦ (ط. القاهرة- دار المعارف. ١٩٦٩).

(١٦)

كانت المرضعات من البدويات يأتين – عادة – فيتنازعن المواليد في بيوت الأسر الثرية العزيزة، ولكنهن لم يأتين إلى بيت آمنة، لأنها كانت أرملة، ولأن الأرامل كن عادة فقيرات، فلم يكن بوسعهن مجازاة المرضعات بالسخاء الذي يجازيهن به آباء الأطفال، غير أن حليمة، و هي من أولئك النساء البدويات المرضعات، حين لم تجد رضيعًا آخر في مكة، رجعت آخر النهار إلى بيت آمنة، وأخذت الطفل. ولاحظ العرب في بساطتهم أنه – منذ أن أدخل ذلك الصبي إلى بيت حليمة، دخل معه اليسر والرفاه والخصب، فكانت المرضعة تأبى إرجاعه إلى أمه خوف أن تفقد بذلك ما أصاب بيتها من البركة. وبعد فطامه بسنوات قليلة ظهرت عليه علامات الحماس الفكري الذي سيطبع الطفل لاحقًا، لتؤكد ذلك الفأل العائلي المرتبط بمهده، والمعتقد الذي سيرتبط على نحو غاية في الإشراق بلحده، كان ابن المرضعة يرعى الماشية يومًا مع أخيه من الرضاعة على مسافة من البيت، و إذا به يعدو باكيًا إلى أمه، فقالت حليمة: «ما الأمر؟» فقال الطفل: «إن أخي القرشي ممدّد على الأرض ولا يقوى على النهوض، وقد رأى رجلين يلبسان الأبيض، طرحاه أرضًا وشقا صدره»، فهرعت حليمة وزوجها إلى الموضع الذي ظل به محمد، فوجداه قد نهض ولكنه كان شاحبًا مرتجفًا، فأخبرهما بأن ملكين قد أضجعاه، وأخذا قلبه من صدره وغسلاه من كل أدران الأرض. لقد كان ذلك الاغتسال الجسدي، وهو رمز طهارة الروح، والذي سيجعل منه النبي في ما بعد جزءًا من فروض العبادة، قد كان – على الأرجح – ذكرى من تلك الرؤيا الأولى التي انتابت الطفل. غير أن المرضعة رأت ذلك نذيرًا ببعض الوسواس المرضي لدى الطفل وخافت أن يموت في بيتها فيضيع ما بذلته من العناية به، فأرجعته فورًا إلى أمه، فقالت آمنة للمرضعة وقد أفضت إليها بما كان يهجس في نفسها « أتخشين أن يتملكه الشيطان؟ اطمئني، فليس للشيطان عليه سلطان، وسيكون لهذا الطفل شأن عظيم» فظل محمد بمكة ست سنين. وماتت أمه آمنة في نفس الموضع الذي مات فيه أبوه، وهي في طريقها إلى يثرب لزيارة أهلها، و لم تخلّف لليتيم من إرث إلا عشرين ناقةً وخادمًا عجوزًا

تدعى أم أيمن. فكانت عنايتها به بديلاً من عناية أمه آمنة، وقد ظلّ محمد – حتى بعد أن حاز ما حاز من العظمة – يشعر نحوها شعور الابن نحو أمه. فكفله جده عبد المطلب وكان حينئذٍ ما يزال على قيد الحياة. وكان من عادة هذا الشيخ، كسائر عرب مكة الأشراف أن يقضي جزءًا من اليوم جالسًا على بساط في ظل جدران الكعبة، وكان أحفاده الذين جاوزوه على كبر يلعبون حوله مع ابن آمنة. وكان الطفل يحظى بمنزلة خاصة عند جده، فكان دومًا في المكان الأقرب من الشيخ على البساط، فإذا ما أبدى بعض القوم دهشة من ذلك، وهمّ، احترامًا للشيخ، بإبعاد الولد، قال عبد المطلب: «دعه وشأنه، فإن ابني هذا سيكون له شأن عظيم».

(١٧)

مات عبد المطلب وسنّه ثمانون عامًا، وكان محمد عندئذٍ ابن تسع، فكفل أبو طالب – وهو ابن عبد المطلب – محمّدًا، وربّاه كأنه ابنه، وقد ورث أبو طالب عن أبيه جزءًا من المهام التي كان يضطلع بها أبوه في مكة، وجزءًا من سلطته أيضًا، وكان أبو طالب رجلاً ثابت القلب راجح العقل، فكان يتصدّر مجلس القوم في ناديهم، وكان يتعهد أمواله بالتجارة في مدن الشام. فإذا بالرحلات التي كان يقوم بها من حين لآخر، هو بنفسه على رأس قوافله المحمّلة بمنتوجات الهند وجزيرة العرب يشتري بها أسلحة وأقمشة من الغرب، تغدو المناسبة الأولى التي ستبدو فيها بوادر بعثة ابن أخيه الدينية: كان أبو طالب يهمّ يومًا بالارتحال إلى دمشق وحلب مصحوبًا بجمع غفير من خدمه وعدد كبير من إبله، فارتمى محمد باكيًا عند قدمي عمه يتوسل إليه بأن يصطحبه، ولم يكن عمر محمد عندئذ إلا ثلاث عشرة سنة، غير أنه كان يفوق أترابه قوة بنية ورجاحة عقل، فنزل أبو طالب عند رغبة الفتى لما في رجائه من رقة ولما كان يكن له من عطف وشفقة. وقطع الركب المفازة بسلام واجتاز حدود بلاد ما بين النهرين. وحطّت الرحال يومًا قرب دير نصراني كان على رأسه راهب عربي كان قد اعتنق عقيدة المسيح، يدعوه العرب بحيرى، ويدعوه النصارى جرجس، وكانت بلاد الشام حينئذٍ معمورة بالأديرة، وكانت تلك الأديرة كالواحات وسط صحراء الوثنية، وكالقلاع وسط البرابرة المتوحشين.

(١٨)

كان جرجس يشاهد من أعلى صومعته مخيّم القافلة في الوادي تحت جدران الدير، فلاحظ غلامًا جميل الطلعة جالسًا على الأرض كانت سحائب خفيفة تبدو كأنها تظله من لفح الشمس كما لو كانت شمسيّات. فأرسل الراهب إلى القافلة يعلمها بأنه يستضيف علية القوم فيها، وكان مدفوعًا إلى ذلك إما بفعل الانجذاب الطبيعي لتلك الطفولة الغضة وإما بالرغبة في الحديث عن الأهل والوطن مع أهل القافلة. فرقي القوم إلى الدير ولكنهم لم يجرؤوا على اصطحاب محمد، لحداثة سنه. وحينما جلسوا إلى الطعام، فطن جرجس لغياب الغلام، فطلب منهم أن يأتوا به، ولما اعتذر أبو طالب بصغر سنه، قال بعض مرافقيه وقد نهض ليأتي باليتيم: «إن حفيد عبد المطلب لجدير مهما يكن سنه بأن ينال نصيبًا ممّا شرّفتنا به»، فاستقبله الراهب ببشاشة ولطف، ولم تكن العقيدة النصرانية قد محت بعد من قلبه تمامًا سذاجة بني جنسه، ولمح جرجس علامة تحت رقبة محمد، بين كتفيه، وهي علامة كان العرب يرون فيها أمارة على عظمة الشأن والمصير، وتوجه إليه بأسئلة كثيرة ودهش لما في أجوبة الفتى من صحة وقوة إقناع.

وتوقفت القافلة طويلاً تحت أسوار ذلك الدير المضياف، والأرجح أن الراهب قد اغتنم تلك الأحاديث مع ذلك الفتى المنحدر من سلالة كريمة ليزرع في فكره الغض الخصب بذور عقيدة أوغل في الفكر والروح من العقائد البدائية التي كانت شائعة في مكة وأطهر منها، وترك أمر إنضاجها للزمن يفعل فعله ولذكاء الفتى المبكر وفطنته، وحينما استأنف أبو طالب رحلته قال له جرجس في لهجة فيها عطف الأبوة وحدس النبوّة: «اذهب، وارجع بابن أخيك بعد سفرك إلى بلده، وارعه كل الرعاية، واحفظه خاصة من اليهود، فلو اكتشفوا فيه ما اكتشفت من العلامات، لم يترددوا في التآمر على حياته، واعلم فقط أن لابن أخيك شأنًا عظيمًا في مستقبل الأيام»

(١٩)

ووقر في نفس أبي طالب من ذلك الحديث مع الراهب إجلالٌ خفيٌ لابن أخيه. فعاد به إلى مكة، فكان الفتى يجلب إعجاب بني قومه به لنضج عقله المبكّر، وأمانته وتعففه في

حياته، كما كان يجلب الإعجاب بحسن طلعته وبشر محيّاه. كان يحب الاستماع إلى أحاديث الشيوخ وعقلاء القوم، وكان يجتنب طيش شباب قريش وفحشهم وسكرهم، وكان يتأمل وحيدًا على التلال أو في الأودية الصخرية قرب مكة، تلك الأفكار التي لا تنثال على المرء إلا في حال الوحدة، والتي تجعل الإنسان يجد مرارة في ما يجده الناس حلوًا، وربما كانت تلك الأفكار التي كانت تجول بخاطر ابن أخي أبي طالب دون أن يفضي بها لأحد، أفكارًا ترمي جميعها إلى إصلاح دين أبناء بلده وتشذيبه مما كان فيه من فظاظة ووثنية.

(٢٠)

نظر يومًا أربعة من كبار عقلاء مكة، وهم ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل بازدراء إلى بني قومهم وهم يحيون عيد بعض الأوثان، فانزووا عنهم قليلاً وقالوا في ما بينهم: «إن القرشيين ليتبعون سبيل الضلال، وقد ابتعدوا عن دين إبراهيم الحنيف، فما هذا الذي يدعونه إلهًا، فيقدمون له القرابين ويحفّون به ويطوفون حوله تعظيمًا؟ فما هو إلا حجر جامد أطرش أبكم لا يجديهم نفعًا ولاضرًا، فليس هذا كله سوى كذب وضلال، فلنطلب دين إبراهيم الحنيف، أبينا، ولنترك إن لزم الأمر بلدنا ولنطف في البلاد حتى ندرك طلْبتنا!»

وكان ورقة ـ وقد تقدمت به السن حينئذٍ ـ يعتبر نبراس مكة. وكان كاهن القرشيين وأعلم العرب بالكتب و أوسعهم اطلاعًا عليها، وكان قد اتصل باليهود وقرأ كتبهم واقتبس عنهم فكرة المسيح مُظهر الحق، الموكول إليه إحياء فكر الإنسان، وكان ورقة يعرف كذلك الإنجيل وكان يتحدث عن النصرانية بإجلال، وقد مات بعد ذلك مسيحيًا.

أما عثمان، وكان ابن عم ورقة، فكان من حلقة فلاسفته، وكان يجد نفسه ميّالاً إلى إله الفكر والحق الذي دعا إليه المسيح غير بعيد عن جزيرة العرب، وقد ذهب إلى بيزنطة يستخبر في ذلك ويتعلم، ثم تعمّد هناك.

وأما عبيد الله، فكانت تساوره تلك الشكوك نفسها، وهي صورة احتضار الديانات التي تموت في أنفسنا، فظل متأرجحًا زمنًا طويلاً وهي تتناوشه، فاعتنق أيامًا ما دعا إليه محمد ثم أنكر ذلك و وهب نفسه آخر الأمر للمسيحية.

وأما زيد، فقد كان أشد شوقًا للحق من رفاقه الثلاثة، فنقض في موقف مشهود كل عهد مع دين بلده، وشتم بشجاعة فائقة آلهة القرشيين، وأراد أن يضرب في الأرض لزيارة بلاد غير بلاده واستخبار الحكماء، غير أن أسرته أكرهته على البقاء بمكة، تحرسه زوجته صفية، فكان يجأر لما أصابه من قسر. وكان الناس يسمعونه أحيانًا وقد استند بظهره إلى جدار الكعبة، يخاطب في مرارة الإله الذي لم يدركه بعد والذي كان يهز وعيه وضميره: «إلهي، لو كنت أعلم بأي طريقة يمكنني أن أعبدك وأخدمك، لأطعت إرادتك، ولكني لست أدري !..». ثم كان يسجد ووجهه في الأرض فكان يبلل موضع سجوده بدمعه، وكان يجهر بوحدة الخالق فسجنه أهله في خيمة على هضبة قفر قرب مكة، فأفلت و فرّ نحو الفرات وأدرك الشام، ولقي الراهب الذي كان قد تنبأ لمحمد، فقصد مكة حتى يعتنق دعوته، ولكنه هلك في الطريق إليها، وقد قتله بعض العرب الوثنيين.

(٢١)

يبدو أن محمّدًا لم يرع في ذلك الوقت روحه بأقل عناية مما رعى فكره وذكاءه. فقد عُرف عنه بهاؤه وتواضعه وتعفّفه عن المتع التي كان ينشدها شباب قريش، ومواظبته على الصلاة بالمعبد، وتوقيره للشيوخ وحرصه على جمع ما يردّدون من حِكم، ومحبّته لأبي طالب الذي كفله مثل ابنه، واحترامه لأبناء عمه، وكان ضيفًا عليهم دون أن يُبديَ أنه عديلهم، وميله إلى العزلة، وساعات شروده وحلمه وكانت كالسحب تغشي سموّ فكره وإشراقه، واقتصاده في الحديث فلا يتكلم إلا حين يُسأل، ولكنّ كلامه كان ينبع من الروح.

(٢٢)

كانت خديجة بنت خويلد أرملة، وكان والدها خويلد سيّد بيت من أشرف بيوتات قريش، وقد ورثت عن أبيها وعن زوجها الأول ثروة طائلة، كانت هي تستأجر الرجال للمتاجرة في أموالها كما كانا يفعلان، وذلك بالتجارة في الشام، فكانت قوافلها تجتاز الصحراء إليه، وكانت تبحث عن وكيل حازم أمين تسلم إليه إدارة أعمالها وقيادة قوافلها. وكانت تحبّ أن تستوثق من حزمه بما تجعل له من الربح، وكانت تسمع الناس في كل مكان يمتدحون ابن أخي أبي طالب، فعرضت عليه أن تعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره من التجار.

ربما خامر خديجة، منذئذٍ، أملٌ مبهم في أن تكون لها بذلك الشاب، ابن آمنة، يومًا، صلات أمتن من صلة التجارة، لشرف نسبه، وشبابه وحسن طلعته وكرم أخلاقه، وكانت هي أيضًا على خلق، كما كانت على جمال ورواء شباب، فكان ذلك كله يتيح لها أن تفكر في الزواج منه بعد أن تزداد معرفة بطبعه وسلوكه.

(٢٣)

ومهما كان من أمر، فقد قبل محمّد ممتنًا ما عرضت عليه خديجة، فجعلته خديجة - بادئ ذي بدء - مع واحد من غلمانها ممّن حنكتهم السنون وعركتهم التجارب، يدعى (ميسرة) يوجّه خطاه ويشير عليه، فانطلقا معًا، وقادا القافلة في سلام وغنم، إلى دمشق وحلب وأنطاكية وبيت المقدس وتدمر وبعلبك، وفي كل مدن الشام الثرية، سواء تلك التي في قسم الشام العربي أو تلك التي في قسمه الرومي، فباعا فيها بأثمان غالية ما كان معهما من أقمشة الهند وجواهرها التي حمّلت بها خديجة إبلها. ثم حمّلا القافلة، عند العودة، ببضائع نادرة من أفضل ما كان العرب ينشدون عند مقدمهم إلى مكة في فترة الحج، وقد أثمرت تلك التجارة ربحًا وافرًا لخديجة، وحدثها (ميسرة)، خادمها المؤتمن حينما استخبرته عن سيرة محمّد، عن رفيقه الشاب حديثه عن إنسان مبارك، كانت الملائكة تظلله بأجنحتها من لفح الشمس أثناء الطريق، وأخبر سيدته بأن محمّدًا توقف عند دير نصراني شاهد رئيسه - وكان صديقًا للشاب - ذلك الفيء الإلهي الذي كان يظل محمّدًا على ما يهوى، وقال لها أيضًا إن ذلك الراهب تكهّن للشاب بمصير عظيم، وبأنه - على حد قوله - سيكون نبيّ جزيرة العرب.

أما محمد فإنه كان أشد انشغالاً بالحقائق الدينية التي استخلصها من رحلاته منه بنصيبه من الأموال التي جاء بها إلى مخدومته، غير أن خديجة لم تعد تجد نصيبه وافيًا بما له عليها من الفضل، فقد تبدّل ما كان له عندها من التقدير إعجابًا وميلاً خفيًا، وذلك لما رأته فيه من الخصال وحسن القيام على المال ومن الفضائل التي ضمت عليها جوانحه وهو ما يزال غضّ الشباب، وأضافت تنبؤات الراهب النصراني إلى حبها تلك الهيبة التي هي استشعار المجد، كانت أمنيتها في أن تصبح زوجة ذاك الذي بدت عليه من السماء

علامات ربّانية، تبعث في الأرملة الشابة إحساسًا بأنها تشارك ذلك الكائن الذي يفوق المخلوقات، بعض ما فيه من زرع الألوهية، فقد كان الحب عون المعجزة، وكانت المعجزة عون الحب.

(٢٤)

ولم تجرؤ أن تتحدث إليه هي بنفسها بما كان يخامرها من شعور، سالكة في ذلك مسلك تقاليد العرب، فبعثت إليه بعض الشيوخ من قرابتها، وإليك ما أبلغته: «يا ابن العم، إن ما بيننا من قرابة، وما حزت من تقدير على شباب، وما بدا منك من حكمة ووفاء في تصريف تجارتي، إن ذلك كله يرغّبني فيك زوجًا»

غير أن محمّدًا - وقد اغتبط لما ناله من نعمة - لم يجرؤ على أن يجيبها بشيء دون موافقة عمه أبي طالب وأبناء عمّه. فرأى أبو طالب في هذه الزيجة زيادة مجد لبيته وحسن طالع لابن أخيه، فذهب إلى أبي خديجة يخطب ابنته منه، وتعهّد بأن يدفع هو نفسه صداق الأرملة. وأعد وليمة دعا إليها رؤساء أربعين بيتًا من بيوتات قريش التي كانت الأعزّ جانبًا في مكة، وأعلن فيهم أن تلك الوليمة كانت بمناسبة زفاف ولده بالتبني، محمد، من بنت ابن عمه الثرية، وقال لهم وقد وقف من مجلسه: «إن محمدًا، ابن أخي، لم يرزق من المال والثروة إلا قليلا، ولم ينل حظًا من متاع الدنيا الذي هو زائل زوال الظل، والذي هو وديعة لا بد من إرجاعها إلى التراب عاجلاً أو آجلاً، غير أنكم تعلمون ما له من خصال وتعلمون كرم أصله ونسبه، وتعلمون أيضًا أنه لا يعدله رجل في حكمته وحصافة رأيه»

هل كان هذا الشاب الذي كان الحديث يدور حوله في مجلس القوم فلا يثير اعتراضًا ابن جمّال خامل الذكر كما دأب بعض الكتاب على تصويره، عن جهل؟ إن العرب جميعًا، إذا نظرنا إليهم من هذه الزاوية، من أقلهم شأنًا إلى أعظمهم قدرًا، كانوا أصحاب إبل، إذ كانوا جميعًا يعدون الإبل علامة ثراء وجاه نسبي، إن قولنا ذاك شبيه بقولنا عن ابن أسرة من شرفاء مقاطعة نورماندي أو بريطانيا بأنه ابن مالك بقر، إذ إن ثروة أجداده تتمثل في قطعان البقر وفي المراعي.

(٢٥)

عاش محمد وخديجة في هناء ووفاء مثالي، وقد جمع الحبّ بين قلبيهما، ولكن مع استقلال كل منهما بماله، حسب العرف المعمول به عند الزواج الثاني في الصحراء، وواصل محمد معاملة زوجته، وكانت أسنّ منه، باحترام الابن وتبجيله، و رفق الزوج وحنانه. ولنا في ما كتب المؤرخ أبو الفدا شاهد مؤثر - ولا يخلو من سذاجة - يتعلق بمراعاة الزوج سلطة زوجته: حينما سمعت مرضعته حليمة بخبر زواجه وبما أصاب من مال، قدمت إليه ووصفت له ما كانت تعاني من شظف العيش، وطلبت منه أن يساعد تلك التي منحته ثديها، فرقّ لحالها، ولكنه لم يجرؤ على أن يغيث مرضعته من مال زوجته. فطلب هو بنفسه، من خديجة، في تواضع، مساعدة حليمة في ما طلبت، ولم يعط المسكينة أربعين شاة إلا بعد أن أذنت له زوجته في ذلك. ولم تلبث خديجة أن أنجبت ابنها البكر وسمته القاسم، ثم أنجبت ولدين آخرين سمّي الأول الطيب والثاني الطاهر، ثم أنجبت أربع بنات وهنّ: رقيّة وزينب وأم كلثوم وفاطمة. أما الأولاد فماتوا وهم في المهد، وأما البنات فقد عشن حتى صار نبيّاً، وتربين في الإيمان بما كان يؤمن، وقد تزوج عثمان اثنتين منهن تباعًا، و زُوِّجت الثالثة – زينب – لأبي العاص، أما فاطمة، وكانت الصغرى، فقد تزوجت عليّاً، وكان هو أيضًا أصغر أبناء أبي طالب وأبناء عمّ محمّد، ومن فاطمة ينحدر اليوم جميع المسلمين الذين يعتمّون بعمامة خضراء، ويسمّون أنفسهم أشرافًا، ويزعمون أن دم نبيّ المؤمنين يجري في عروقهم[1].

(٢٦)

لم تبدُ على محمّد طيلة السنوات العشر التي أعقبت زواجه من خديجة، بارقة باهرة تلفت إليه الأنظار فلم يزدد صيته ذيوعًا، وعاش في تأمّل وفي تفكّر وصمت، وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين حين نوى أهل مكة أن يعيدوا بناء الكعبة وقد تداعت بتقادم الزمن واشتكى الحجيج مما أصابه من بلى، فكان الورع يدفع بأهل مكة لتجديد بنائه، وكان الإجلال يمنعهم من ذلك. وصادف عندئذٍ أن تحطمت سفينة رومية على صخور ساحل البحر الأحمر، غير بعيد عن مكة، فألقت إلى الشاطئ خشبًا وحديدًا، ونجارًا نجا من الغرق. فرأى الناس في الخشب والنجار فألاً وعلامة على رضى ربهم بإسعافهم بالعامل

(١) هكذا في الأصل والمعروف ان من ينتسب إلى هذا البيت الطاهر في بلدان المشرق الإسلامي يعرفون بالسادة ويرتدون العمة السوداء، ويطلق عليهم في بلدان المغرب الإسلامي والحجاز بشكل خاص اسم «الأشراف». والمعروف تاريخياً ان اللون الأخضر هو شعار العلويين واللون الأسود شعار العباسيين (المراجع).

والخشب. ولكن لما اقتضى الأمر هدم الجدران الهرمة لترميمها، لم يجرؤ أحد على أن يُعمل المعول وفي آخر الأمر أخذ (الوليد بن المغيرة)، وكان أتقى من سائر بني قومه أو أشجع منهم، معولاً وصاح قائلاً وهو يرفعه ليهوي به على جانب من الجدار: «اللهمّ لم تُرَعْ[1] - اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين...» فانهدم الجدار ولم تصب المنية الوليد. ولكن القرشيين ارادوا التريث إلى غد قبل مواصلة ما بدأوا، حتى يكونوا على يقين من أنه لن يحيق بالوليد ليلتئذٍ غضب إلهي بسبب ما أقدم عليه من انتهاك حرمة الكعبة، فخرج في صباح اليوم التالي من بيته سليمًا معافى. فاطمأن القرشيون عند مرآه وأتموا الهدم. ولكن حينما تعلق الأمر بإعادة وضع الحجر الأسود، حجر إبراهيم، في جانب من أحد الجدران التي أعيد بناؤها، اختصمت أهم الأسر في مكة وتنافست في شرف من يرفع الحجر إلى موضعه، وحملوا أسلحتهم لفصل النزاع بالقتال، وحينما هموا بذلك، اعترض عليهم بعض الحكماء، وتم اختيار محمد، وكانوا يرونه أعدلهم وأعظمهم إنصافًا، فحكّموه في الأمر، فبسط على الأرض ثوبه، وطلب أن يوضع الحجر المقدّس عليه، ووضع أركان الثوب الأربعة في أيدي سادة الفرقاء الأربعة، الذين كاد تحازبهم يسيل الدماء في الكعبة، وأمرهم بأن يرفعوا الحجر معًا، فكان أن تقاسموا بذلك حمله إلى الموضع الذي خصص له من الجدار، وقد أعجب العرب بتلك السياسة، وبذلك الإنصاف وبتلك الحكمة في ما وجد من حلّ. فزادت شهرة محمد بذلك ذيوعًا، ولما أخبر كسرى الفرس بما لأهل مكة من فطنة قال: «ما طعام هؤلاء القوم؟» فقيل له: «خبز البُرّ» فقال: «ذاك ما أعتقد، لأن اللبن والتمر لا ينتج عنهما مثل هذا الفكر».

(٢٧)

وفي هذه الفترة، عمد محمّد إلى تخفيف العبء عن عمه أبي طالب، عبء عائلة وفيرة العدد ينوء بحملها ماله، اعترافًا منه بفضل عمه، وقد كان له من هذا الأمر فيما بعد، أول أتباعه وأعزهم عنده. فقد جمع محمد آل أبي طالب وقال لهم: «إن عمنا قد أملق بعد غنى، فليأخذ كل منا واحدًا من أبنائه». وأخذ إلى بيته أصغر الأبناء، وكان يدعى عليّاً فضمّه إليه وكفله كابنه، تعويضًا لأولاده الثلاثة الذين خطفهم منه الموت. واستوهب خديجة في نفس الوقت غلامًا كان أُهدي إليها صغير السن يدعى (زيد بن حارثة)، كانت تبدو عليه أمارات الشجاعة والفطنة فوهبته له.

---

(١) لم ترع: لم تفزع. والضمير فيها يعود على الكعبة، السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص ٢٣٢ - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان. (المراجع).

فتبنى محمد زيدًا بعد أن أذنت له خديجة في ذلك، وتعلّق الطفل بمحمد، في رقة وحنان، وجاء أبوه، وكان قد أخذ منه ابنه في الشام، إلى مكة ليفتديه فلم يمانع محمد من ردّه إليه، ودعا بزيد وقال له: «اذهب مع من شئت من أبويك» ففضل زيد أباه الذي تبناه على أبيه الحقيقي، وتبع محمدًا، واختار أبوة الإحسان على أبوّة الطبيعة.

(٢٨)

وكان محمد – عندئذٍ – قد ناهز الحادية والأربعين، ولم يكن فيه – إلى ذلك الحين – ما يشير إلى بني قومه أنه الرجل المكلف برسالة، غير أنهم كانوا يلاحظون في سيرته ما كان العبرانيون قد رأوا في سلوك نبيّهم موسى، حواره الصامت مع فكره وروحه في الوحدة، كان يبدو معرضًا عن مجتمع الناس والضجيج لينصت إنصاتًا أفضل لأصوات قلبه، وكان يأوي – إذا اشتد حرّ الصيف – إلى كهف برود في جبل حراء قرب مكة، وكان كثيرًا ما يغادره ليلاً، ويضرب تائهًا بين التلال و الأودية القريبة من الغار ليتأمل، ويصلّي ويمشي على هدي خواطر وأفكار كانت تقود خطاه اتفاقًا.

(٢٩)

رجع محمد [إلى بيته] – آخر الأمر – عند الفجر، فاستخبرته خديجة عن غيابه، وهي تبكي، فقال: « كنت غارقًا في النوم، إذ رأيت ملكًا قدم إليّ و معه قطعة من الحرير عليها كتابة، فقال لي: «اقرأ»، فقلت وأنا لا أعلم ما يريد «وماذا أقرأ؟» فغتّني الملك في غضب بذلك النمط المكتوب حتى كاد يقطع نَفَسي، ثم أعاد عليّ قوله في لهجة أشدّ: اقرأ، فقلت: وماذا أقرأ، فقال الملك: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(١)، فردّدت تلك الألفاظ بعده، فابتعد عني، فخرجت وجعلت أمشي طويلاً لأهدئ من روعي، فذهبت بعيدًا في الجبل. فسمعت هناك فوق رأسي صوتًا يقول: «يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل» فرفعت رأسي، فرأيت الملك، ومكثت فترة طويلة مضطربًا في الموضع الذي رأيته يختفي فيه»

(١) سورة العلق، الآيات ١ - ٥.

من المستحيل الاّ نرى في تلك الرؤيا وفي ما تبعها من رؤى إلحاح فكرة رسخت في ذهنه ولم تفارقه وهو الذي مازال عندئذٍ لا يعرف القراءة والكتابة، فكرة بعثت فيه اليقين بما انضمت عليه جوانحه من عبقرية، بأن كتابًا منزّلا كان أداة ضرورية لتحويل بني قومه الوثنيين عن دينهم.

وقالت له زوجه وقد تأسّت بحديثه: « اثبت وأبشر، فو الذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة».

(٣٠)

ولكن خديجة ما إن طلع النهار حتى ذهبت إلى مكة وحدها، وقصدت ورقة، وقد مرّ ذكره في حديثنا، وكان أكبر حكماء الأمة سنًا وأشهرهم صيتًا، تستطلع رأيه في الأمر فحدثته بكل ما اعتقد محمد أنه رأى وسمع. فقال الشيخ، وكان قد انفصل - كما رأينا - عن المعتقدات الوثنية الشائعة، وكان يقرأ الإنجيل والتوراة وتتراءى له الديانة المسيحية عند أفق الجزيرة العربية: «لئن كان هذا حقًا يا خديجةُ، إن محمدًا لنبيُّ هذه الأمة، وقد عرفتُ أنه كائنٌ لهذه الأمّة نبيّ يُنتظر، هذا زمانه».

(٣١)

كان إيمان خديجة الشفاف التام بنبوّة زوجها يثبّت إيمانه ويجلو عنه الريبة، ويخفف عنه ما يلقى من أذى، ويقوّي عزمه. فكانت لمحمد- خلافًا لعظماء الرجال - حلقة المؤمنين به في بيته. فالإسلام قد بدأ - أول أمره - بمثابة الأسرة، وظلّت شعائره وطقوسه - طويلاً - تقام في منزل محمد، قبل أن ينتشر وتقام فرائضه في أي مجمع آخر من مجامع قريش، وكان أول اتباع هذا الدين محمدًا نفسه، وزوجه، وابن عمه (عليًا) وبناته وخدمه. وكان يبدو - لفترة غير قصيرة - أنه كان قانعًا بأن اتبع هو وذووه في ضرب من الحميمية والسر دين إبراهيم الحنيف، آملاً في أن يكون الله راضيًا عنه بتلك العبادة في ذلك العدد المحدود، وفي الاّ يكلّفه بمؤونة نشر كلمته وحقّه بين الناس.

(٣٢)

كان علي ابن عمّه، وقد سهر محمد على تربيته كأنه ابنه، أول المؤمنين به بعد خديجة وأثبتهم، ولم يكن سنّه عندئذٍ إلاّ اثني عشر عامًا، ولم يتردد الفتى - وقد اعتاد أن يصدّق محمدًا في كل ما يقول - أن يرى في أبيه الثاني صوت فكره الخفيّ، كما كان صوت قلبه، واعتقد - بشجاعة تفوق سنيّ عمره - أنه كان يمشي في طريق الله هو نفسه باتباعه خطى ابن عمه. وحينما كان محمد يذهب للصلاة على التلال المجاورة لمكة، كان علي يتبعه من بعيد في خشوع، لا يأبه بسخرية أترابه، ولا بتعريض ذويه الأقربين، حتى أبيه، أبي طالب ولا بتشكيكهم فقد كان يُرى - على ما يُروى - راكعًا أو ممدّدًا ووجهه إلى الأرض وراء محمد، مقلّدًا كل حركاته متخذًا ما يتخذ من الهيئات كلها، خاشعًا خشوعه مردّدًا كل ما كان يقول، وتبعهما أبوه، أبو طالب يومًا، فرأى ما كانا فيه من الصلاة، فقطع عليهما ذلك وقال: ماذا تفعلان، وما هذا الدين الجديد الذي تدينان به؟» فقال محمد: «هو دين الله الحق، الله الأحد، دين أبينا إبراهيم، وقد بعثني الله به لأنشره بين الناس وأدعوهم لاعتناقه، يا عمّ، ليس في الناس من هو أحق منك بتلبية هذا النداء، وباعتناق الدين الحق وبمساعدتي على نشره».

فقال أبو طالب: «يا ابن أخي، لا أستطيع أن أفارق دين آبائي. ولكن إذا آذاك الناس في دينك، دفعت عنك الأذى» ثم التفت إلى ابنه عليّ، وكان قد عهد به إلى محمد ليرعى تربيته بدل أهل بيته، وقال: «إن ابن عمك محمدًا لم يدعُك إلاّ إلى خير، فكن طوع ما يوحى إليه».

كان ثالثَ المؤمنين الذين اعتنقوا دين الإسلام بعد خديجة وعلي (زيدٌ) غلام خديجة الذي أعتقه محمد وتبنّاه. وكان الرابع واحدًا من العرب شريف النسب ذا حسب شهير في القبائل كان يُسمى لوسامته تلك: العتيق، فبدّل اسمه إذ ترك آلهته وتَسمّى أبا بكر، وكان أبا عائشة، وهي فتاة فائقة الحسن، وغدت - منذ ذلك الوقت - زوجة النبيّ المفضّلة.

(٣٣)

حمت مجاهرة أبي بكر بإيمانه بعقيدة محمد الدين الإسلامي الناشئ من صبغة الجنون والهزء، وهي أول تجلّ للسخرية يرسله عامة الناس دون تمحيص إزاء كل ما

يصدم تقاليدهم، إذ كان أبو بكر من أولئك الذين يجلب اعتناقهم رأيًا احترام الكثرة من الناس إن لم يكن اقتناعهم بسداد ما يرى، وحينما أعلن أن محمدًا هو وليّه، وقاه من الاحتقار، ولم يلبث أن جرّ معه أهم القرشيين من بين الفتية الأبطال في مكة: عثمان، وهو من بني أمية المشهورين، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير، ابن أخي خديجة، وطلحة بن عبيدالله.

وأقرّ هؤلاء الأتباع وشهدوا بجسارة بوحدانية الله، وحرية الإنسان في أفعاله، وقيمة الفضيلة ومزيتها، ومعاقبة الرذيلة، وواجب أن يرضى الإنسان - في ما يريد - بما تقرره الإرادة الإلهية العليا ذات الكمال، وبخلود الروح، وبالثواب والعقاب بعد الموت بحسب ما قدم الإنسان في الحياة، والصدقة، والصلاة الواجبة، والتضحية بالجسد والروح في سبيل الله، والطقوس التي سنها محمد لإظهار تلك العقيدة وتعزيزها، وكانت تلك الطقوس عبادة يتعرّف بها المؤمنون الحقيقيون بعضهم إلى بعض بالتزامها، كما أقروا وشهروا أيضًا ما يميّز هذا الفيلسوف الجديد من سمات تفوق السمات البشرية الطبيعية، وتجعل كلامه وكتابته وأعماله أمورًا تقتضي الطاعة، إذ إنهم كانوا يعتقدون أنها متأتية من صلات خفية بين فكره ومن كان مؤتمنًا على الأسرار الإلهية. تلك هي الديانة الإسلامية كلها عند العرب وقتئذٍ.

(٣٤)

لم تشب الرؤى التي كانت تتوارد على محمد، صفاء رؤيته السياسية، وقد كان حاذقًا في عدم استباق الأحداث، فمكث ثلاث سنوات أخرى لتزداد نظريته اختمارًا في ما يشبه السرّ يَلفّ حلقة أتباعه الأُوَلُ، أو الغبش يثير الفضول دون أن يفضح الأمر فضْحًا، كان ينتظر أن يكون لملّته من القوة ما يتيح لها التصدّي للرأي العام والاضطهاد الذي سينجرّ عنها حينما تكون في مواجهة الديانة الوثنية وأنصار العقائد البالية بما يجنون منها من فائدة، كانت مهاجمة أوثان الكعبة تعني مهاجمة مكة، مركز الحجّ عند عرب الجزيرة جميعًا، ومهاجمة القرشيين، بني قومه، خير القبائل، لحوزتهم الكعبة المعبد المشترك يفتحونه ويغلقونه، كما تعني مهاجمة التجارة وامتيازاتها، ومهاجمة الثروة العامة التي لم تكن تغتذي إلا بذلك الموسم السنوي الذي كانت تساهم فيه كامل الجزيرة العربية عند زيارة الكعبة، كما كانت تعني على وجه الخصوص مهاجمة بيوتات مكة في ما كان لها من فضل، إذ كانت تتقاسم السدانة والسقاية والرفادة.

لقد كان له من المهارة السياسية ما به صرف نظر القوم وبيوتات قريش عمّا كان لهم من الامتيازات والمنافع والمنزلة الرفيعة المتصلة جميعها بامتلاكهم الكعبة وبتوافد الحجيج عليها، ولم يكن يضير مسألة وحدانية الله أن تراعى في العقيدة الجديدة الرواية التي تعزو بناء الكعبة إلى إبراهيم، وأن يتواصل إجلال ذكرى تأسيسها، وأن يُحتفظ في جزيرة العرب بعادات الحج، إذ المهمّ هو استبعاد الأوثان منها، ولذلك فقد أبقى محمد على إجلال الكعبة وعلى الحجّ وعلى المناسك وعلى تنافس قوافل مكة أثناء الشهر الحرام، إذ كان هو نفسه راسخ الاعتقاد في ما يُؤثَر عن إبراهيم وفي صفاء حنفيّته. فكان يكفيه أن تستبدل الأوثان بالله، وكان يعلم، كما يعلم المصلحون جميعًا، أنه ينبغي أن لا يُجتث أمر دون طائل، وإنما ينبغي أن تطعّم الشجرة الهرمة، قدر المستطاع، بالنسغ الجديد. فجذور الباطل تحمل بذلك ثمار الحق، في وقت أسرع وبطريقة أضمن[1].

وإثر هذه الاحتياطات التي كانت الحكمة البشرية تقتضيها من جميع الثورات سواء كانت عقدية أو اجتماعية أو سياسية، أحسّ محمد – في نهاية المطاف – مدفوعًا بأصوات باطنية حميمة – بأنه ينبغي له أن يجهر بدعوته على رؤوس الملأ[2]، ولم تعد وقتئذٍ سرًا، وإنما كانت كالمسارّة التي تكاد تكون عامّة شائعة في مكة، وكان حماس أتباعه يجعل منها شائعة تسري خفيًا ولكنها في تزايد، حتى ضاقت عن الأسرار والألغاز. فجمع محمد ذويه، وكانوا أربعين نفرًا، في وليمة في صحن داره، على ما كانت تجري به العادة بين العرب في عقد المجالس الكبيرة التي تسبق اتخاذ القرارات الكبرى، وكانوا جميعًا من ذريّة عمّه وأبيه الذي كفله، أبي طالب، وكان الطعام بسيطًا بساطة حياة الصحراء، فلم يكن

١- لم يكن هذا هو نهج الرسول (ﷺ) وكل ما يرد في هذه الأقوال مما يخالف العقيدة والدين الإسلامي إنما يعبر عن رأي المؤلف بمفرده، ولامارتين كما هو معروف لم يكن رجل دين أو لاهوتياً، وإنما كان شاعراً رومانسياً خيالياً، ويحمد له أقوال كثيرة في مدح الإسلام ونبيه، ولكن لا يجب علينا أن نتوخى الكمال من رجل أوربي عاش في خضم أفكار القرن التاسع عشر (المراجع).

٢ - الجهر بالدعوة كان أمراً إلهياً (وأنذر عشيرتك الأقربين)، سورة الشعراء، آية ٢١٤.

يتكون إلاّ من ربع خروف و أرز، وعوّض محمد عن بساطة الطعام بغذاء الروح: فقد تحدّث إلى ضيوفه حديثًا فيه من الإلهام ومن الإقناع ما جعلهم يحسّون بالشبع من كلامه. فغادروا بيته قلقين يسأل بعضهم بعضًا عن جلية الأمر، و يَعِدُ بعضهم بعضًا بألاّ يعودوا وألاّ يتعرضوا بعدها إلى مثل هذا الافتتان المشبوه.

(٣٦)

غير أنّ محمّدًا دعاهم من غد وبعدد أكبر، فعادوا رغم نفورهم، وقد اجتهد محمد في أن يجلب إليه ذلك العدد الوفير من ذويه الذين لم يعتنقوا بعد عقيدته.

وقال لهم، في نهاية المأدبة: «فيم خشيتكم؟ ما من شاب من العرب جاء قومه بما يعدل ما جئتكم به من الفضل، فإني أهب لكم سعادة هذه الحياة الزائلة والبهجة الخالدة في الآخرة، وقد أمرني الله أن أدعو الناس إلى سبيله، فمن منكم يريد أن يؤازرني في هذا؟ من منكم يريد أن يكون مساعدي وأخي وخليفتي على الأرض؟»

فأمسكتهم الدهشة والرهبة، والحياء البشري، والشك والريبة، فلم يقم أحد من المجلس، وظلوا صامتين في حيرة، فكان محمد على وشك أن يجد نفسه وحيدًا، غير أن عليًا – أصغر المدعوين سنًا بل كان وقتئذٍ غلامًا يافعًا– قام منجدًا أباه الثاني، بما في سنه من كرم طبع ساذج، وقال: «أنا، يا نبي الله، سأكون أنا، إن لم يشأ أحد منهم»

فتأثر محمد لذلك حتى ترقرقت دمعة في عينه، وضمّ الغلام إلى صدره، وقد رأى في ما ابتدر إليه، وكان أصغر الضيوف، إشارة من الله ترشد إلى حيث لا ينظر الناس، وقال: «هذا علي، ابني وأخي، ومساعدي، وهو مني، فأطيعوه !» ولم يتردد محمّد في قول ذلك أكثر ممّا تردد علي في ما بادر إليه، غير أن اختيار النبي الملهم ذلك الغلام أثار في الحاضرين سخطًا واستنكارًا بلغ الهزء، وبدا لهم أنه مما ينافي أبسط درجات الفطنة والذكاء ألاّ يجد امرؤ أحدًا يعترف به ويقرّ بفضله سوى أصغر القوم سنًا، وأشدهم حياءً، فقالوا وهم يسخرون ممّا شهدوا، وقالوا لأبي طالب، والد عليّ المسكين، وهم ينصرفون:

«إن عليك، منذ الآن، أن تخضع لحكمة أصغر أبنائك، ولإرادته!» ولم يكن أبو طالب نفسه، على حبه لمحمّد، وردّه الإهانة عنه، ليمنع نفسه من الإشفاق عليه، فقد كان يراه مفعمًا فضيلة وعبقرية غير أنّ عبقريته وفضله كانا يأخذانه بعيدًا عن الحدود البشرية المتعارف عليها.

(٣٧)

رأى أهل مكة في نبوءات محمد الأولى رؤى رجل خيّر كانت روحه التي أثارها التأمل تتقسمها حكمة عظيمة وبعض الغرابة، وما دام مكتفيًا بالدعوة في الساحات العامة وفي المجالس وفي الكعبة، إلى العقيدة الجليلة، عقيدة وحدانية الله وكماله، وإلى الصلاة، وهي المغزى الأسمى من عبادة المخلوق للخالق، كان الناس يستمعون إليه دون تعصب لما كان يقول ولكن دون نفور من ذلك أيضًا، فقد كانت تلك الأفكار أفكارًا تلقى قبولاً بين الناس، وكانت من الرفعة بحيث لا تخطر ببال كثير من الناس، ولا تقضي على ما كان لأوثانهم من منزلة لديهم، ولكن ما إن جعل يستخلص العبر الدينيّة من تلك العقيدة الروحية ويحرّم عبادة الأوثان التي كانت تدنس الكعبة وتغتصب ما لله الواحد من المنزلة والعقيدة والإجلال، حتى أثار بين الناس صيحة استنكار وقد سخطوا على الكفر بآلهتهم، وانقلب ورع عبدة الأوثان غضبًا عليه وشتمًا، وطلب الناس من عقلاء قريش وكبارهم أن يحموا آلهتهم وأن يثأروا لها.

فاجتمع أكابر القوم، ولكنهم لم يجرؤوا على أذى محمد، إذ كانت قرابته من أبي طالب تمنعهم من ذلك وتحميه، فأرسلوا جماعة عديدة منهم، اختاروهم من بين أعقلهم وأميلهم إلى التسامح، يسألون أبا طالب نفسه، إما أن يردع جرأة ابن أخيه في التجديف على آلهتهم وإما أن يمكّنهم من أن يردعوه بأنفسهم ويظل هو على حياد فيه خيرهم جميعًا.

وقالوا له حرفيًا: «إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن

عليه من خِلافه، فنكفيكه»[1]، غير أن أبا طالب لم يجب كبار القوم من قريش إلى ما طلبوا، ولعلّ ذلك كان منه عن ازدراء للديانة التي كانت شائعة بين عامة الناس وقتئذٍ، أو لعله كان عن ميل خفي إلى الدين الذي كان محمد يدعو إليه، أو لعله كان عن خشية أن تخدش كرامة الأسرة، أو لعله - آخر الأمر - كان عن رقة مفعمة بالعرفان كانت تعتمل دومًا في أعماق قلبه تجاه ابن أخيه الذي كان ابنه بالكفالة ثم تبنى هو بدوره، عليّاً، فرفض أبوطالب أن يعد القوم بالحياد، إذ إن وعدهم به كان يُحمل - لدى العرب - على أنه تخلّ جبان عمّا تفرضه القرابة الدموية من واجب. فواصل محمد دعوته في الأماكن العامّة - وقد تعزز جانبه بمناصرة عمه له -.

(٣٨)

وتعاظم السخط، واجتمع أكابر القوم ثانية في دار الندوة وأنذروا أبا طالب إنذارًا ما زال فيه توقير ولكنه في لهجة أشد، طالبين منه أن يكفّ عن حماية ابن أخيه، وقالوا له: «إنا نجلّ فيك سنك وشرفك ومنزلتك، ولكنّ لإجلالنا حدودًا، فقد رجونا منك أن تُسكت ابن أخيك ولم تفعل، ولا يمكننا أن نحتمل ما أظهر من شتم آلهتنا دون اقتصاص ممّن يفعل ذلك، فأَرغمْه على أن يكفّ عن ذلك، وإلاّ تهيأنا لحربه وحربك أنت أيضًا، وسيكون بيننا قتال إلى أن يفنى أحد الحزبين» فرجا أبو طالب من الجماعة أن يمهلوه بعض الوقت وأرسل يدعو إليه محمدًا، وقد خشي ما قد ينجرّ من الويل على بني قومه، بسبب حرب دينية كان إصرار ابن أخيه يكاد يثيرها، وخاطبه أمامهم قائلاً في لهجة تنمّ عن عتاب وعن ألم أبٍ أُكْرِه على أن يؤنّب ابنه: «اجتنب أن تجرّ عليك وعلى ذويك المصائب التي تتهددنا !» فقال محمد في إصرار يخالطه الأسى: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركتُه» وبكى - وهو يقول ذلك - وقد تملكه الأسف لأنه لا يقدر على الاستجابة لطلب عمه و لأنه اعتقد أن عمّه سيستبعده لا محالة، وخطا خطوات ليخرج من دار الندوة ولكن أبا طالب قال له، وقد رقّ لمظهره وأدرك ما في نفسه من ثبات: «أقبل يا ابن أخي» فاقترب منه محمّد، فقال له عمه: «اذهب يابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أَسْلمك لشيء أبدًا»[2].

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ، ص ٣٠٢، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان . (المراجع).

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٣.

وخامر أكابر القوم من قريش الأمل في أن يصرفوا الشيخ أبا طالب عن محمد وذلك بأن يعرضوا عليه فتى آخر يكون ولده ويتبناه بدلاً عنه، فأتوه بأجمل فتيان مكة وأكملهم خلقة عمارة بن الوليد، وقالوا له: «هذا عُمارة، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عَقْله ونَصْرُه، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعةَ قومك، وسَفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل»، فرفض أبوطالب قائلاً: «أتُعطونني أبنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا»[1].

ثم اجتمع أقارب أبي طالب وذووه ومواليه، وقد دعاهم هو إلى ذلك، ورغم أن أغلبهم لم يكن على الدين الجديد، فقد رأوا أن أصرة الدم تربطهم به، وأنهم لن يتيحوا للحزب المسيطر أن يؤذي محمدًا، إذ هو من ذويهم وفي حماهم طبعًا. فآل أمر هذا الرفض الذي أبداه أبو طالب والإعلان عن أن آل بيته يحمون ابن أخيه، إلى أن يركن أعداء محمّد لبعض الوقت إلى التربّص والكيد.

(٣٩)

كان ذلك زمنَ الحج، وكان الموسم يجتذب إلى مكة العرب من جميع أجزاء الصحراء. فاتفقت قريش على أن يترصّدوا الحجيج في الطريق ليحذروهم من بدع ذاك الذي يزعم أنه نبيّ، وهو ابن أخي أبي طالب، بدع كانت بذور انشقاق يزرعها في الكعبة، وتداولوا الرأي قبل أن يخرجوا من مكة وقال بعضهم لبعض: «لنجمع كلمتنا على ما يقول كل منا للحجيج حتى يكون كلامنا الذي نتفق عليه منسجمًا لا ينقض بعضه بعضًا، أنقول لهم إنه كاهن؟ لا، إذ ليس له ما للكاهن من تشنج في الكلام وعدم انسجام، ولا له سجع الكهّان المصطنع.

أنقول لهم مجنون[2]؟ ولكن كل ما فيه ينضح عزة نفس وعمق تفكير.

أنقول لهم إنه شاعر[3]؟ ولكن كلامه ليس بشعر.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص ٣٠٤، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان. (المراجع).

(٢) «ويقولون إنه لمجنون» سورة القلم. من الآية (٥١).

(٣) «بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر..» سورة الأنبياء. من الآية (٥).

أنقول لهم - آخر الأمر - إنه ساحر[1]؟ ولكنه لا يأتي عملاً معجزًا، ولا يتعاطى أعاجيب السحر وألغازه، وسحره الوحيد في مهارة ما تلفظ شفتاه وفي قدرتهما على الإقناع فلنقل إذن إنه ساحر، يزرع بمكره الشقاق في الأُسر، ويسممّ القلوب، ويفرّق بين الأخ وأخيه، والابن وأبيه، والزوجة وزوجها».

(٤٠)

وفعلوا ما قالوا، غير أن ما اتخذوا من جبلة ليصرفوا الناس عن محمد وما جاء به انقلب انتصارًا له وظفرًا، كما يحدث ذلك دومًا للنظريات الجديدة إذا كان فيها من الحقائق ما جُعل ليتفتح في الفكر البشري، فالصيحة عليها لإرباكها وإفحامها تغدو وسيلة لنشرها بين الناس، والتشهير بها يكسبها إشعاعًا وصيتًا لولاهما لاختنق صوتها في الأرواح. وذاك ما حدث لمحمّد، فقد رغب جميع الحجيج الذين أعلمهم أهل قريش بمحمّد وبسبّه آلهتهم، في أن يروا وأن يسمعوا هذا الذي كان يثير تلك الضجة العظيمة في مكة. وحملوا اسمه جميعًا، ليزرعوه في طريقهم، في نواح من الجزيرة العربية ما كان ليبلغها قطّ لولا ما اتخذ أعداؤه من حيطة لا جدوى منها، بل إن عددًا من الحجيج قد حمل أيضا مبادئ محمد وأفكاره.

(٤١)

أما أبو طالب ورهطه، وقد أسخطهم ما كان أعداء محمد يشيعون عنه وعن أسرته من مثالب، فكان غيظهم يتزايد - لأسباب بشرية محض - من سائر بيوتات مكة، وقالوا شعرًا يتحدّون به الذين كانوا يعرّضون بهم إذ يشتمون محمدًا، ويقسمون أنهم لن يدعوا أحدًا يؤذي شعرة منه، وأنهم يهلكون دونه، وبلغ خبر هذه الخلافات المنذرة بإراقة الدماء، أهلَ يثرب، وكانت مدينة تنافس مكة، فقام شاعر كبير منها، هو (أبو قيس بن الأسلت) ينهى قريشًا عن الحرب في قصيدة أرسلها إليهم، منها:

فإيّاكُمُ والحربَ لا تَعْلِقَنْكمْ
وحوضًا وخِيمَ الماءِ مُرُّ المشارِبِ

(١) «وقال الكافرون هذا ساحرٌ كذاب». سورة (ص). من الآية (٤).

(...)

فبيعوا الحِرابَ مِلْمُحارب واذكروا
حسابكمُ والله خيرُ محاسب
وليّ امرئٍ فاختار دينا، فلا يكن
عليكمْ رقيبًا غيرُ ربِّ الثّواقب
أقيموا لنا دينًا حنيفًا فأنتمُ
لنا غايةٌ، قد يُهتدى بالذوائب

(...)

لقد علمَ الأقوامُ أنّ سَراتكمْ
على كل حالٍ خيرُ أهل الجباجب[1]

وخبا أوار الرغبة في حرب محمد في نفوس القرشيين لما سمعوا من جواب أبي طالب ولما بلغهم من مناشدة شاعر يثرب لهم بترك الحرب.

(٤٢)

فصبّ أهل قريش نقمتهم على أتباعه ممّن لم يكن ذا صيت وعزّ، ليشفوا غيظًا لم يكونوا يجرؤون على أن يشتفوا منه بإيذاء النبي. غير أن الهزء والازدراء والسخرية كانت تنهال عليه دون أن يقتص لنفسه، كلما خرج للصلاة، بل وحتى في بيته، وكان جيرانه المطلّون من أسطح بيوتهم على صحن داره يلقون بالأقذار على رأسه إذا استغرق في الوضوء أو في الصلاة، وكانت النساء وهنّ دومًا أشد إمعانًا في الكراهية و أميل إلى التلويح والتعريض، يبالغن في ذلك إذ كنّ أيضًا في منجى من العقاب والاقتصاص، حتى اشتهرت بعضهن بأعمال خسيسة كانت تضطهد بها ذاك الذي عاب آلهة قريش. وكانت إحداهن، وهي أمّ جميل زوجة أبي لهب، أقرب جيران محمد، وقد حفظ التاريخ اسمها وكانت امرأة شرسة حقًا في مكة. كانت تذهب كل يوم فتأتي بشوك يدمي فم البعير، فتطرحه كل ليلة على عتبة باب بيت خديجة حتى تمزّق الأرض قدمي محمد الحافيتين، عند خروجه من بيته. وكانت مجموعات من النساء والأطفال ترصده وتتداول في ذلك ويلاحقونه بالشتائم والسخرية منه في أزقة مكة وحتى في الكعبة. أما الرجال، وكانوا أقدر على

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة القاهرة. مطبعة حجازي، ١٩٣٧، الجزء الأول.

إخفاء كراهيتهم، فكانوا يكتفون بتجنبه كما لو كان أبرصَ، إذا ما اجتاز ساحة الكعبة، وكان ذلك المكان ملتقاهم ومجتمعهم عادة.

وبينما كان ذات يوم يطوف بالكعبة سبع مرّات، حسب الطقوس التي كانت جارية، سمع همهمتهم وقد علت على غير ما اعتادوا، فصلّى ثم أقبل عليهم ومدّ إليهم رأسه في تواضع وقال في ضرب من الصبر والتسليم: «قد جئتكم بالذّبح»[1] فتأثر بعضهم لذلك، وقد زال حقدهم، فقال له أحدهم بمروءة وكرم: «اذهب يا أبا القاسم، فإننا نجلّك ونحترمك».

غير أن بعضهم الآخر، وكانوا دون الأولين سماحة، انقضوا عليه من غد عند خروجه من الكعبة وقد اكفهرّت وجوههم ورفعوا عليه أيديهم، وقالوا: «أ أنت إذن، أيها الشقي، من يرمي آباءنا بالضلال وآلهتنا بالعجز؟» فقال محمد في بسالة وتصميم: «نعم، انا الذي أقول ذلك».

فأخذوه من عنقه، كأنهم يخنقون بذلك السبة في حلق من لفظها، فكاد يهلك من شدة قبضتهم، وإذا بأبي بكر، وكان من اتباعه، يعترض بشجاعة بينه وبين من كانوا ينوون قتله، وينتزعه من أيديهم وقد تمزق ثوبه ودمي عنقه حتى شارف الموت.

(٤٣)

غير أن العرب كانوا يعرفون كم رجلاً يقتل برجل. إنّ هذا القانون، قانون الدم بالدم هو الذي كان – في ما يبدو – أصل نجاة محمّد لزمن طويل من موت كان يطوف دومًا فوق رأسه، غير أن ذلك القانون لم يكن ليحميه من ضروب سوء المعاملة التي كانت تسلّط عليه، وقد جعلت تلك الاساءة إليه من حياته في موطنه محنة طويلة لم يكن يلطّف من حدّتها ما كان يلقى من بني قومه من مواساة.

لقد روى هو نفسه أن قلبه كاد يهن بين ضلوعه تحت وطأة ما كان يلقى من أذى من الناس، وأنه عاد إلى بيته ذات مساء بعد أن قضى يومه كاملاً في مكة يدعو إلى سبيله صمّاً عمّا كان يفعم جوانحه من إيمان كان يعتقد أن واجبه يفرض عليه نشره مهما كلّفه ذلك، ولو على صخرة، رجع إلى بيته دون أن يلقى – على حد قوله – واحدًا من الناس،

(١) سيرة ابن هشام ٣٢/١.

امرأة أو رجلاً، حرّاً أو عبدًا، لم ينعته بالكذب والادعاء، أو يلقى من يقبل أن يستمع إلى كلامه ودعوته.

وكاد يفضي به ذلك الإنكار الذي كان يعمّ الناس لمذهبه وعقيدته إلى الشك في أمره[1]، ويبدو أنه قد أحسّ يومئذٍ تلك الحشرجة الباطنية المنبعثة من الأفكار التي تكون فينا على شفًا، إذا لم تلق لدى غيرنا من الناس صدًى، ولو وحيدًا، يؤكد هويتها كما يؤكد الرنين في فراغ الزنزانة للسجين وقع خطواته.

عاد إلى بيته في صمت وأسًى، وقد ثبطت همّته، فلف رأسه في ثوبه واضطجع على حصيره ونام، فجاءه الإلهام أثناء نومه، والإلهام أشد إصرارًا من صمم الناس، فسمع صوتًا يصيح بقلبه: «يا أيها المدّثر، قم فأنذر»[2] فنهض مع طلوع النهار وخرج يدعو الناس وينذرهم وكأنه قد غنم أمس عددًا وفيرًا من الأرواح اتبعت سبيله.

(٤٤)

وأفضت كثرة الشتائم التي انقضت عليه من كل جانب إلى تناقص مؤقت لما كان له بين الناس من هيبة واحترام، وآذاه بعض الناس يومًا، وهو عند «الصفا» يصلّي، فرأت امرأةٌ المشهدَ وكانت على كثب منه، فأخبرت أحد أعمامه، وهو حمزة، باسم الفاعل، وكان حمزة عائدًا من الصيد وقوسه في يده، فذهب بسلاحه إلى نادٍ كان يجتمع به كبار أعداء ابن أخيه، فلقي هناك الرجل الذي رمى محمّدًا بحجر أثناء عبادته، فلامه على جبنه ثم ضربه ضربة خفيفة بعود قوسه على رأسه.

كان السخط قد أثار نفس حمزة، فجعله يدعو، تحدّيًا، إلى مذهب صار عنده فجأة جديرًا بذلك، لما كان يلقى من اضطهاد مقيت، لقد آمن بالعقيدة الجديدة إيمان الكرام، آمن بها لا لأنها كانت تمثل الحقّ، بل لأنها كانت مستضعفة، وقال حمزة لذلك الذي آذى محمدًا: «أيها الجبان، أتجرؤ على رجم محمد، لأنه يبشر بدين قد آمنت به أنا، فقم إليّ، إن

---

(١) لم تصل الحال بالرسول (ﷺ) إلى الشك في أمره، بل بقي قوي الإيمان برسالته راسخ الاعتقاد بها، برغم كل الصعاب. (المراجع).

(٢) سورة المدثر. الآية ١ - ٢.

كنت تجرؤ على ذلك !»[1]. فندم المذنب على ما أتى واعترف بخطئه، وهمّ أصحابه أن يناصروه على حمزة وأن يمنعوه منه، فقال: «لا، دعوه و لا تؤذوه، فإني قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحًا »[2] فكان إسلام حمزة عزاءً لمحمّد ومنعة.

وأقبل شيوخ قريش، وقد لانوا بعض اللين، يفاوضون محمّدًا في رفق عساهم يبطلون أثر دعوته في شبابهم. فدعوه إلى ناديهم بفناء الكعبة، وقال له أحدهم، باسم الجماعة كلها: «يا ابن عبدالله، كان أبوك صديقي، وإنك رجل رفيع المنزلة بنسبك، وبما وهب لك الله، ورغم أنك عكّرت صفو موطنك وبعثت الشقاق في الأسر، وكفرت بآلهتنا، وخطّأت اباءنا وحكماءنا، فإننا نريد أن نعاملك بما يكافئ سمعتك وفضائلك من الاحترام والتقدير، فاسمع ما نعرض عليك من أمور وانظر رأيك فلعلك واجد فيها ما تقبل» فقال محمد بعد أن أصْغى إلى كلامه: «قل، فإني أستمع إليك». فقال محاوره: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت من دعوتك مالاً، جمعنا لك من مالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تروم سيادة، جعلناك سيدنا، وشرفناك علينا ولن نتخذ قرارًا في شيء دون رضاك، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه فيملك عليك نفسك ويسترقّك ولا تستطيع ردًا لأثره في نفسك، دعونا إلى مكة أمهر أطباء الشام، وأغدقنا عليهم المال دون حساب، حتى يبرئوك منه» فقال محمد: «أفرغت من حديثك؟» فقال الشيخ: «نعم».

فقال محمّد في نبرة إلهام كاشف للغيب: «استمع أنت إليّ الآن: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ • وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ • قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ • الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ.﴾[3]

---

(١) (اتشتمه وأنا على دينه اقول ما يقول؟ فردّ ذلك عليّ إن استطعت) السيرة، ج ١، ص ٢٢٧.

(٢) قال ابوجهل (دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحًا) السيرة ج١ ص ٢٢٧، ٢٢٩. (المراجع).

(٣) سورة فصلت، الآيات ٢ - ٧.

وبعد أن جهر محمد أمامهم بعقيدة وحدة الله وبالجزاء في الحياة الأخرى حسب ما يأتيه كل بشر من عمل، سجد للكلمات الإلهية التي وضعها الروح على شفتيه ثم قال للشيخ الذي ندب لمفاوضته: «قد سمعت ما سمعت، فانظر أنت بنفسك ما ترى»

فالتفت الشيخ، وكان يدعى – عتبة بن ربيعة – ، إلى أصحابه بوجه قد فتن عجبًا وإعجابًا، فقالوا له: «ما وراءك؟» فقال: «وحق آلهتنا، لقد جهر بكلام ما سمعت مثله قط، وليس هو بالشعر ولا بالسحر وإنما هو ممّا ينزل على الروح ويحرّك القلب وهو يدخله، صدقوني، وخلّوه يدعو العرب ويقنعهم برسالته، فربما خلصكم منه بعض العرب من قبيل غير قبيلنا، إن كان مقدرًا عليه أن يهلك، ولكن إذا نجح في ما جاء يبشر به، فإن عزته ستكون عزتكم، وسيؤسس مجد قبيلتنا إلى أبد الدهر». فقالوا له وقد ارتابوا في أمره: «لقد بهرك أنت أيضًا». فقال عتبة: « إني ذكرت لكم رأيي صريحًا»[1].

(٤٥)

واستؤنفت المفاوضة – وقد انقطعت يومها – من غد[2] بين محمد وساسة قريش أنفسهم، وزادوا على ما عرضوا عليه ابتغاء أن يكف عن دعوته، فقال لهم محمد: «لست من تظنون، فلست متلهفًا على متاع الدنيا، ولا بي ظمأ إلى ملك، ولا أنا مريض تملّكه جن متشنج، وإنما بعثني الله إليكم (وكانت لفظة الله عندئذٍ في الجزيرة العربية تعني الله الأزلي الأبدي، الله الذي لا صورة له ولا هيئة) وأوحى إليّ بكتاب هو القرآن، وأمرني بأن أرشدكم إلى ثوابه أو عقابه على ما يأتي الناس من خير أو شر، وإني أبلغكم الكلام الذي أسمعه من الله، وإني أحذركم وأنذركم، فإن تقبلوا ما جئتكم به، كانت سعادتكم في هذه الدنيا وفي الآخرة، وان تردّوا ما أدعو إليه، صبرت وانتظرت حتى يحكم الله بيني وبينكم» فتأثروا لكلامه وزعزعتهم ثقته بنفسه، فقالوا له عن غير اقتناع كلي بما كانوا يقولون: «هات لنا، إن كنت صادقًا، دلائل على رسالتك: فان الوادي الذي فيه مكة ضيق قاحل، فوسعه علينا بالمباعدة بين هذه الجبال التي تضيّقه، وأجرِ فيه نهرًا شبيهًا بما في العراق أو الشام، أو على الأقل ابعث من هذه الأجداث بعض أبائنا الراقدين تحت التراب،ابعث لنا مثلاً جدنا قصي بن كلاب ذلك الذي كان كلامه شرعًا وسنّة، فلينهض وليكلمنا وليقل لنا إنه يقرّ بأنك نبيّنا، وسنصدّق بك إن قال ذلك».

(١) قول عتبة ليس في هذا المجلس. انظر: السيرة، ج ١، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) الحديث في نفس المجلس السابق ولم يؤجل إلى الغد. السيرة، ج ١، ص ٢٣٠.

فقال محمد: «ما بعثني الله لمثل هذا، وإنما أوحى إليّ بأن أبشركم بسبيل الحق والنجاة»

فقالوا: «سل ربك أن يأتينا بملاك من ملائكته يأمرنا بتصديقك، أو يعفيك من أن تذهب، مثل ما يذهب كل واحد منا، إلى السوق تبتاع الأرز والتمر اللازمين لمعاشك كل يوم، حتى تقتات كما نقتات».

فقال محمد: «لا، ما أنا بالذي يسأل ربّه هذا، فرسالتي الوحيدة هي دعوتكم إلى الإيمان به» فقالوا: «إذن، فليُسقط ربك السماء على رؤوسنا، وقد زعمت أنه قادر على ذلك، إذ إننا لا نؤمن بك، وكل ما تبشر به ليس منك، بل هي أشياء حفظتها من شخص يدعى الرحمن، وهو من اليمامة. فاعلم أننا نذود عن ديننا إلى أن نموت، و لا بد من السلاح في الحسم بيننا وبينك».

هذا الرحمن الذي يعزو إليه العرب عقيدة محمّد ومذهبه هو اسم من اسماء الله في القرآن. وكان أهل قريش يفترضون أيضًا أن محمّدًا كان يتلقى دروسًا لدى ذلك الصائغ النصراني في مكة، الذي يعتبر الملهم الخفيّ لديانة شبيهة بالمسيحية، كانت تأمر بإجلال المسيح وتعظيمه باعتباره أقرب الذين أوحي إليهم من الله وباعتباره نبيّ الأنبياء، وكلمة الله.

(٤٦)

كان، في بداية بعثة محمد، من التماثل بين عقيدة القرآن والعقيدة المسيحية ما حدا بأهل الحبشة – وكانوا ممن قد اعتنق النصرانية – أن يستقبلوا أتباع محمد الأوائل الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الاضطهاد، كأنهم نصف مسيحيين.

قال ملك الحبشة للمهاجرين القرشيين، بحضرة أساقفته: «ما هذا الدين الجديد الذي هاجرتم به من موطنكم؟» فقالوا: «كنا قوما غارقين في الظلمات، فجاءنا رجل منا شريف فاضل، وعلّمنا وحدة الله وازدراء الأوثان، ونبذ أباطيل معتقدات آبائنا، وأمرنا بترك الرذائل، وبالصدق في الكلام والوفاء بالوعد وحسن الجوار، وحرّم علينا انتهاك الحرمات، وأكل مال اليتامى والأرامل، وأمرنا بالصلاة، والتعفف والصوم والزكاة»[1].

---

(١) السيرة، ج ١، ص ٢٦٤.

فقال الملك: «إنّ ما تقولون لشبيه بما نحن عليه، هل يمكنكم أن تذكروا لنا ممّا حفظتم بعض أقوال هذا النبي الذي علمكم دينه؟» فقال القرشي: «نعم» وقرأ عليه سورة من القرآن ذكرت فيها معجزة مولد يحيى، ابن زكرياء بأسلوب الإنجيل نفسه.

فبكى الملك وأساقفته تأثرًا بما سمعوا حتى اخضلت لحاهم، وقد أخذتهم الدهشة وبهرتهم العبرة، وقالوا: «هذا كلام يبدو نابعًا من نفس المصدر الذي نبع منه كلام الإنجيل»[1]، ثم سألوا المهاجرين القرشيين: «ما تقولون في عيسى؟» فقال جعفر بن عبد المطلب، وهو ابن عم محمد: «هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول». فصاح الملك وأساقفته: «سبحان الله ! ليس بين ما قلت عن المسيح وما نقول عنه في ديننا من الفرق ما يعدو هذا العود، اذهبوا وعيشوا في أمان»[2]

(٤٧)

وسعى أعداؤه إلى أن ينتزعوا الناس من سحر بيانه، فأتوه بمنافس كان يجمع حوله السامعين المفتونين ببلاغته وفصاحته، وكان كثير الترحال، شاعرًا، فيلسوفًا وخطيبًا شهيرًا في جزيرة العرب، وكان يدعى (النضر بن الحارث)، وحينما أنهى محمّد حديثه في فناء الكعبة يومًا، ابتسم النضر في سخرية وخاطب حلقة الناس وقد كادت تنفضّ، قائلاً: «اسمعوا الآن حديثًا أحسن من الحديث الذي أرهقنا به محمد» فكان يروي لهم ويفتنهم بقصص عجيبة أو بطولية عن آلهة أسلافهم وعن أبطالهم، وكان يزيّن الأباطيل القديمة التي كانت حبيبة إلى مخيّلة العوام الساذجة، بما وسعه من هيبة الأعراف وقداستها، ثم يقول لهم وقد بعث فيهم كلامه نشوة الإعجاب والبرّ بما كان آباؤهم يعبدون: «فهل قصص محمد أحسن من قصصي؟ إنه يعيد على مسامعكم قصصًا قديمة متجددة من كتاب حكماء أعلم منه، اجتهد في اكتتابها كما أفعل أنا نفسي بما أغتني به في أسفاري وبما أتعلم من الأمم وبما كتبت لأقصّه عليكم».

وكان النضر يغلبه لدى عامة السامعين بما يحيي فيهم من ذكريات غابرة عن أمتهم. أما المجددون فكانوا يفضلون محمّدًا. وأراد أهل قريش أن يمتحنوه بأقوال الكهنة

(١) السيرة، ج ١، ص ٢٦٤.

(٢) حدث هذا في الغد. السيرة، ج ١، ٢٦٥.

والأحبار، فذهب وفد من مكة إلى يثرب، وكانت مدينة غير بعيدة، ذات قداسة، يسكنها أحبار من اليهود ذوو صيت في علوم السحر والتنجيم لا يخطئون.

وأخبر الوافدون الأحبار بما نشأ في قومهم من خلاف نتيجة ما جاء به داعية مجدد يسمّى محمدًا، وقالوا لهم: «إنكم أنتم الذين تقرأون الكتب التي فيها العلم كله، فما قولكم في هذا الرجل؟» فقال الأحبار: «سلوه عن ثلاث، ومن بينها ما هو الروح؟».

وحينما سئل محمد استمهلهم ثلاثة أيام ليستغرق في التأمل، ثم أجابهم بعد ذلك كما كان الأحبار يرغبون، أما تعريف الروح وهو تعريف لا يقع تحت طائلة الحس، ولا يمكن تحديده بألفاظ مأخوذة كلها من المادة فقال فيه: «قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا»[1]

(٤٨)

أسبغت تلك الأجوبة، بما فيها من حكمة ومن مطابقة لما قاله الأحبار سرّاً للوافدين عليهم، على علم النبي مصداقية. فرأى رؤوس قريش عندئذٍ أنه لم يبق لهم من طريقة يتوسلون بها إلى كبت صوته إلاّ أن يدعوه يتلاشى في الفراغ. فانفضوا عنه وأمروا قومهم بأن يبتعدوا عنه إذا فاتحهم بالحديث، فجعل ذلك محمدًا في عزلة وهو في موطنه، ولم يبق له من وسيلة يواصل بها دعوته إلاّ الهمس الذي لا يمكن مباغتته على شفتيه، فكان إذا ذهب إلى الصلاة صلى بصوت خفيض حتى يسمعه الفتيان الذين كانوا قريبًا منه في فناء الكعبة وحتى يحفظوا عنه صلواته.

فكان بذلك يعلّمهم كيف ينبغي أن يعبد الله الأحد ويطاع، وقد أضاف ذلك الطقس الديني نكهة السرّ المختلس إلى عقيدته. فلم يقدر مضطهدوه أنفسهم دومًا على مقاومة إغراء الفضول.

فالتقى ثلاثة من ألد أعدائه ليلة، دون أن يتشاوروا في ذلك أو يتفقوا، في سطح بيت قريب من بيت محمد، كان يُسمع منه محمد يصلي في صحن داره. فعرف بعضهم بعضًا

---

(١) سورة الإسراء، من الآية (٨٥).

فتلاوموا على تركهم ما قرّروا من اعتزال النبيّ وازدرائه، وافترقوا وقد تعاهدوا أن لا يعودوا إلى تلك النزوة أبدًا.

ولكن عادوا في الليلة التالية وقد اعتقد كل واحد من الثلاثة أنه خادع صاحبيه، فرجع خفية، فانحى كل منهم باللائمة على نفسه لحنثه في القسم. وكان الأمر ثالث ليلة مثلما كان في الليْلتين السابقتين، فقال اثنان منهما للثالث وكان أعقلهم: «ماذا وجدت في نفسك وأنت تسترق السمع إلى صلاته ودعائه؟»

فقال عدو النبي: «لقد فهمت بعض كلامه وفتنت به، وغاب عني بعضه فلم أفقه كنهه» فذهبوا وهم يقولون: «عار علينا أن نسمح بأن يخرج من بيت أبي طالب نبيّ يرفع مجدهم ويُعلي منزلتهم علينا».

وأقسم أحد أتباع محمد، وقد جاشت فيه حميّة الشهادة، على أن يخرق بمفرده حظر نشر دعوة الإسلام في مكة جهرًا، فتقدّم في شجاعة إلى ساحة الكعبة وتلا الآيات الأولى من سورة الرحمن فقطع عليه أهل قريش تلاوته بصياحهم في وجهه وصراخهم، وانقضوا عليه ومزقوا ثوبه ولطموا فمه، فعاد إلى فريق المؤمنين ممزق الثوب دامي الوجه وقال لهم: «لقد ضربوني، ولكنني أرغمتهم على سماع بعض الأحرف من الوحي».

وتبع الاضطهادُ ذلك الإقدام من صاحب محمد، فكان أهل قريش يمدّدون أتباع النبي الجدد على ظهورهم، ووجوههم إلى شمس الصحراء اللافحة، ويضعون على صدر كل منهم حجرًا لتضييق النفس عليه، ويقولون لهم: «ستمكثون كذلك إلى أن تنكروا الدعي الذي أوهمكم بإله غير آلهة آبائنا» فكان ضحايا الاضطهاد يقولون: «لا إله إلاّ الله» ومات منهم كثير من ذلك التعذيب بالأبطح في رمضاء مكة.

وكان محمد وقد منعه نسبه وخوف عداوة آله من ذلك التعذيب يمرّ بالمضطهدين المعذبين فيقويهم ويواسيهم قائلاً: «تجلدوا، موعدكم الجنة»[1].

---

(١) كان (ﷺ) يقول عندما رأى المشركين يعذبون عمار بن ياسر «صبرًا آل ياسر موعدكم الجنة». السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص ٣٥٧، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان . (المراجع).

(٤٩)

غير أن ما كان يرى من البلاء والتعذيب اللذين كانا بسبب دعوته ينصبّان على أتباعه الذين لم يكن نسبهم يجنبهم ذلك ولا قوة أسرهم، يسوءه ويبعث في نفسه بعض الوجوم، فدعاهم ـ هو نفسه ـ إلى تجنب عنف أهل مكة وإلى طلب أرض يتسنى لهم فيها أن يعبدوا رب ابراهيم دون أن يعذبوا فخرجت جماعة أولى من مكة مهاجرة، فقصد بعضهم يثرب، وهي مدينة كان اليهود من بين سكانها، وقصد بعضهم الآخر الحبشة، وكان أهلها من النصارى. أما محمد فقد ظل في مكة يرعى الأرواح وقد نضجت للإيمان بحرارة دعوته.

كانت تلك الفترة فترة إيمان عمر، وهو الذي سيصبح في ما بعد خليفة يسود الشام ومصر، وكان لعمر وهو ابن واحد من أعز بيوتات مكة، أختٌ زُوجت لزيد[1]، وهو من أتباع محمد، كتم إيمانه، وقام عمر يومًا، وكان متحمسًا مندفعًا، من مجلسه في ساحة الكعبة قائلاً إنه لا بد من استئصال رجل أفسد العقول والقلوب، وإنه ذاهب ليقتل محمدًا، فاعترضه بعض أقاربه، وكان به هو نفسه ميل في السر إلى العقيدة الجديدة، وكان يريد الإبقاء على حياة النبي، فقال له: «ما أنت فاعل؟ إذا كنت تريد معاقبة من كفروا بآلهتك، فابدأ بذوي قرابتك، أما علمت أن صهرك زيدًا وأختك فاطمة قد اعتنقا في كنف بيتهما العقيدة الجديدة»؟

(٥٠)

أسرع عمر إلى بيت زيد وفاطمة، مستعجلاً أن يتأكد من تركهما آلهة قريش. فباغتهما بصحبة مؤمن حديث الإيمان كان يقرأ لهما آيات من القرآن ويفسرها، وحين سُمع وقع خطواته، توارى الرجل كأنه أتى جرمًا، وأخفت فاطمة تحت البساط ورقات الكتاب، أما عمر، وكان قد سمع عند دخوله همهمة قراءة، فقال: «ماذا كنتم تقرأون؟» فقالت فاطمة: «لا شيء». فقال عمر: «تكذبون، لقد كنتم تقرأون الكتاب المحظور» وانقض على زيد وطرحه عند قدمي فاطمة، فصاحت وقد أنكرت فعل أخيها وألقت بنفسها معترضة بين زوجها وأخيها: «أجل، وإننا نعبد الله الواحد، وإننا نؤمن بالله وبنبيّه، فاقتلنا

(١) هو في سيرة ابن هشام (ج١، ص ص ٣٦٥ - ٣٦٦) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.

إن شئت» وسقت فاطمة الجريئة يدي أخيها بدمها، وقد شجها دون قصد أثناء الشجار، فاضطرب عمر ورقّ واعتذر قائلاً لها: «أريني فقط الكتاب الذي كنتم تقرأون» فقالت: «أخاف أن تمزقه». فأقسم لها عمر على ألا يمسّه بسوء، فدفعت إليه الصحيفة وفيها ذكر وحدة الله وعظمته وقداسته ورحمته، فلما قرأ عمر الآيات قال: «ما أحسن هذا الكلام وما أروعه». أما ذلك الرجل الحديث العهد بالايمان، فخرج من الغرفة المجاورة وقد عرف من كلام عمر أن الله قد فتح قلبه للإيمان، وقال له: «سمعت أمس النبي يدعو الله قائلاً: اللهم أعزّ الإسلام بعمر، فهو وحده يساوي جيشًا في نصرتك، وقد استجاب الله لدعائه، والارجح أنك ستكون واحدًا من أبطال هذا الدين، فاتبع ما في نفسك من إعجاب به واعتنق الحق مثلما اعتنقنا» فقال عمر: «نعم، أفعل، فدلوني على المنزل الذي فيه النبي، وإني لمسرع إليه أعترف بخطئي وأسلم نفسي إلى الذي جئت أقارعه».

وكان محمد وقتئذٍ يشرح دينه لأتباعه، وكان مع أربعين منهم في منزل بعيد في الصفا، وكان أحدهم يراقب المسالك حتى ينذر القوم من قدوم الكفار عليهم، فنظر من خلل الباب وقال: «هذا عمر متوشحًا سيفه يطرق الباب» فقال محمد: «افتحوا له» ففزع أتباعه، ومشى محمد نحو عمر وأدخله وسط الحلقة وقد أمسك بثوبه، وقال له معاتبًا: «ما جئت تفعل؟ أتحب أن تظل على كفرك حتى ينفجر عليك غضب الله؟» فقال عمر الشرس في لين وتواضع: «جئت أخبرك بأني آمنت بالله وبنبيّه» فانقلب هلع المؤمنين فرحًا وحمدًا لله.

ثم خرج عمر من الدار وهو حريص على أن ينتشر خبر إسلامه بين أهل قريش، فقصد رجلاً من قريش معروفًا بحرصه على أن يكون أوّل من يفشي خبرًا ومعروفًا أيضًا بخفة لسانه وبعجزه عن أن يحفظ سرّاً، وقال له: «اسمع ما أقول لك، ولكن احفظ سري ولا تذع أمري، لقد أسلمت في الخفاء» فلم يلبث ناثر الأخبار أن أسرع إلى فناء الكعبة، وكانت ملتقى المتبطلين من مكة، وصرخ بأعلى صوته قائلاً إن عمر قد كفر بالأوثان وأنه قد صبأ مثلما فعل آخرون» فقال عمر وقد جاء على أثره: «كذبت، فأنا ما صبأت ولكني أسلمت، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»

فانقض القرشيون على عمر لتركه دين آبائهم ليقاتلوه وقد هالهم ذلك، فاستل سيفه ليدفعهم عنه، فاعترض الشيوخ بينهم وبينه، ورجع الأمن والسلام إلى ذلك الموضع. وكان محمد، إلى ذلك اليوم، هو وحده الذي يجرؤ على أن يصلي في الكعبة أمام المشركين.

وكان من عادته أن يتخذ مكانه للصلاة بين ركن الكعبة والحجر الأسود الذي يرصّع الجدار، فجاء عمر من غد وأقدم على الصلاة معه، فكانت رهبة سيفه ترعب الوثنيين، ولم يلبث أن جاء المؤمنون إلى الكعبة يصلون وراءه، فكانت بذلك ديانتان تتنافسان على الحرم نفسه، وكانت عقيدة الله الواحد تواجه الأوثان صراحة.

(٥١)

ولم يمض على ذلك زمن حتى أمضى المتمسكون بالمعتقدات الوثنية القديمة، وقد اغتاظوا بما كانوا يرون، معاهدة هجومية ودفاعية ضد الأسر التي أفسدتها العقيدة الجديدة، وخاصة أسرة أبي طالب، وهي أسرة النبي، وهي معاهدة شبيهة في تسميتها وفي روحها بمعاهدة (قيز Guise) في فرنسا، ضد الهراطقة والتي أفضت إلى سفك الدماء في سان برطيليمي (١٥٧٢).

لما كانت السنة السابعة من ظهور دعوة محمد في الجزيرة العربية، لجأت الأسر التي كان يتهددها الخطر بسبب إيمانها والأسر المنبوذة لذلك، إلى شِعْبٍ غير بعيد عن مكة، فمكثوا به ثلاث سنين تحت الخيام مع مواشيهم. وكان أبو طالب، عم محمد الجليل القدر، على رأس الجماعة رغم أنه لم يكن مسلمًا، فكان الإحساس بالانتماء إلى الأسرة يحل محلّ الإحساس بالانتماء الديني، وانقلب الخلاف الذي كان دينيّاً أول أمره خلافًا اجتماعيّاً، فكانت بعض قبائل العرب الرحل وبعض مواليهم غير المعلنين في مكة يأتونهم بالقوت.

وكان حماس أتباع محمّد يجدد من حين لآخر الخصومات في الكعبة، فقد كان (عثمان بن مظعون) يومًا يستمع - وهو في الكعبة - إلى (لبيد بن ربيعة) ينشد شعرًا يقدس فيه ذكر آلهة العرب بالجزيرة، فقال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فقاطعه

عثمان، وقال بصوت عالٍ: «صدقت»، فتابع لبيد إنشاده وقال: «وكل نعيم لا محالة زائل» فقاطعه عثمان مرة أخرى وقال: «كذبت، إن نعيم الجنة لايزول»

فاضطرب الشاعر لذلك، فقال له بعض من كان في المجلس: «لا تلتفت إليه، فهو أحمق، وقد ترك دين آبائه كما تركه غيره من الحمقى» فاغتاظ عثمان من الذي شتمه، واندلعت معركة في الكعبة، وتلقى عثمان لطمة على عينه فعورت، فعرض عليه بعض القرشيين، وكان أرحم من غيره، أن يأخذه في جواره ليأمن أذى المعتدين عليه، فقال عثمان: «شكرًا لك، ولكنني لا أرضى بجوار غير جوار الله، وأرجو أن تصيب عيني الصحيحة لكمة مماثلة، في سبيل الله الواحد».

(٥٢)

غير أن تلك الخلافات أضعفت القرشيين أمام سائر القبائل، فكانت مفاوضات بين القرشيين وأتباع محمد حتى يعود المبعدون إلى مكة. وحدث حادث اتفاقا وصدفة فيسّر المفاوضة. كانت الصحيفة التي كتب عليها المتعاهدون عهدهم معلقة منذ ثلاثة أعوام على بعض جدران الكعبة. فقرضت الأرضة نص العهد والتوقيعات ولم تبق منها إلا ذكر اسم الله وكان في أعلى الصحيفة. فبدت هذه المعجزة كأنها تجعل الذين كتبوها في حلّ من عهدهم. وجاء أبو طالب، وقد تقدمت به السن، وكان القوم جميعا يجلّونه، يفاوض أهل قريش بنفسه شروط رجوعه وأهله إلى مكة. ورجع محمد وذووه أيضًا. غير أن أبا طالب عمه ومجيره توفي بعد فترة وقد طعن في السن، دون أن يعتنق دين ابن أخيه ولا يُدينه. فبكاه محمد بكاء ابن لأبيه.

إلاّ أنه لم تمض مدة أخرى حتى كانت وفاة رفيقته في الإيمان وفي السعادة وفي المحن، فبكاها بدموع حرّى. توفيت خديجة زوجه الوحيدة الحبيبة إلى قلبه على إيمانها وحبها للنبي. فتملك الحزن محمّدًا مرة ثانية، وفقد سنده المادي في أبي طالب وسنده المعنوي في خديجة في الآن نفسه. فخرج وحيدًا من بيته وذهب إلى الطائف، وهي مدينة غير بعيدة عن مكة كان يأمل أن يجد فيها قلوبًا منفتحة لعقيدته. فاجتمع أكابر المدينة

ليسمعوا كلامه. ولكن ما إن فتح فمه بالكلام شارحًا دينه، حتى انفجروا ضاحكين هازئين من هذا الذي تلقى الوحي بمكة، وقالوا له في ازدراء: «أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟».

ولم يجرؤ على الدخول إلى مكة أيضًا، حتى يستجير ببعض أعيانها، ليُبقي على حياته. فمكث ينتظر بحراء طويلاً دون أن يُجاب إلى جوار أحد منهم. إن في ذلك ما يجعلنا نقدّر وطأة الألم الذي ينوء به - رغمًا عنه - كل من جاء بفكرة حقّ عليه أن يبلغها إلى الناس، وإن قطرات العرق وقطرات الدموع وقطرات الدم لترسم آثار المبشر بوحدة الله، على ذلك الرمل، رمل جزيرة العرب وعلى الأرض بأكملها. وما من شك في أن الله لا يحب أن تكون حقيقته هبة بلا ثمن، إنه يحب أن تكون أيضًا جهادًا وفتحًا، وفي ذلك مجد الحقيقة وفضل الإنسان.

(٥٣)

وضعف محمد مرة ثالثة[1]، وأغراه أن يُرجع إلى الله ما كان يعتقد أنه أوكل إليه من مهمّة وأن يقول له بأن يتولى هو نفسه ذلك الأمر، إذ هو أعسر من أن يضطلع به مجرد فانٍ من البشر. فانزوى في بيته، وكف عن سب آلهة قريش، وكأنه بذلك يقطع على نفسه عهدًا من الصمت بين الباطل والحق. وبدا أنه تخلى عن الرغبة في إقناع بني قومه، غير أنه ظل مثابرًا على هداية البدو الذين كانوا يضربون خيامهم على التلال خارج مكة والحجيج الذين يأتون من أقاصي الجزيرة إلى مكة بمناسبة الحج، وكان حريصًا في ذلك على ألاّ يلفت النظر إليه، فالريح التي تأخذ البذرة أحيانًا من الأرض التي زرعت فيها، تأخذها من يد الفلاح لتضعها وتنبتها في مكان أبعد. ولكن البدو والحجيج كان يحذرهم من دعوته بعض أقاربه الذين مازالوا عندئذٍ على دين قريش.

---

(١) عندما تعرض الرسول ﷺ للأذى والضرب في «الطائف» قال: «اللهم إليك اشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا ارحم الراحمين، انت رب المستضعفين، وانت ربي، إلى من تكلُني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ ام إلى عدوّ ملّكْتَه امري؟، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا ابالي، ولكن عافيتك هي اوسع لي، اعوذ بنور وجهك الذي اشرقتْ له الظلّمات، وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من ان تُنزِل بي غضبك، او يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك». «السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، ج٢، ص ص ٣٣، ٣٤ (المراجع).

وكان أحد أعمامه، وهو أبو لهب، شديد الحماسة لعبادة الأوثان، وكان يسير على إثره لا يبرحه إذا خرج من مكة، كما يتبع الحارس خطى مجنون، وكان يقول للغرباء الذين يكلمهم محمد: «لا تسمعوه وانفضوا عنه، فهو كاذب يريد منكم أن تكفروا بآلهة العرب لأحلام وأوهام يعدكم بها».

(٥٤)

فكان الوافدون – وقد حذّرهم تكذيب القرشيين محمدًا – لا ينصتون إليه إلا قليلاً. وكانوا يفحمونه بما يتبادر – طبعًا – إلى العقول النزقة من كلام العامة: «إن عشيرتك الأقربين وقومك أفضل منا في الحكم عليك، فإن شئت أن تقنعنا بدعوتك، فابدأ بهم».

وكان أهل يثرب – وهي مدينة تنافس مكة – هم وحدهم الذين ينصتون إليه ببعض انتباه. كان جل من يسكن تلك المدينة وقتئذٍ من اليهود اللاجئين إليها، وكانوا مشربين بالمعتقد القديم في مجيء مسيح يحرّر جنسهم، وكانت تلك الفكرة نفسها تحرّك عرب يثرب أيضًا، فقالوا في ما بينهم: «لعله أن يكون هو، فليقدم إلينا وليصدع بأمره وليحررنا من ربقة أعداء يهوه».

فجاءته الوفود من يثرب، يهودًا أو عربًا، وعرضوا عليه أن يهاجر إلى مدينتهم وأن يبث فيها دعوته بحرية، ولكنه، رغم ذهاب دعوته سدى وجهده أدراج الرياح منذ عشر سنين وهو يدعو إلى مذهبه في بني قومه، ورغم أنه دخل في السنة الخمسين من عمره، كان يكره أن يغادر مكة لأنها كانت البلد الذي يختلف إليه الناس أكثر من سواه والأبعد صيتًا في جزيرة العرب.

(٥٥)

لا بد من القول إن المشرّع الديني في جزيرة العرب قد فرض على رغبات بني قومه الحسيّة أقسى مظهري حرمان حسي يمكن فرضهما على البشر اتقاء الاغراء في أنفسهم واتقاء أن تتوفر فرص الجرائم وارتكاب الرذائل، وهما حجز النساء عن مجتمع الرجال والامساك عن شرب الخمر وكل شراب مختمر، فإن أحد هذين الأمرين القرآنيين يحفظ العفة بحجب الحس عن العينين، ويحفظ ثانيهما العقل بمنع الشفتين من السكر، والسكر هذيان الروح.

غير أنه ينبغي أن نذكر أيضًا أنه أمرهم بصلوات يثابرون عليها، ويكرّرونها كلّما خطت الشمس خطوات في السماء، وأمرهم بفترات صوم أهمها صوم شهر رمضان، وحرّم عليهم أنواعًا من اللحم، وأمرهم بالوضوء أو التيمم دون انقطاع، وبالصمت وبالخشوع، وبنكران الذات ونزواتها نكرانًا فيه تزهد استقاه من المعابد الهندية[1] أو من الأديرة المسيحية، كما ينبغي أن نذكر - آخر الأمر - أنه بدأ - في شجاعة - في تحرير المرأة وفي إكسابها كرامتها من خلال إقراره تساويها بالرجل في الروح وفي خلود المصير، وذلك حينما قبل أن تكون من أتباعه، ومن خلال تحريم وأدها عند الولادة، حسب ما كانت عليه عادة العرب، ومن خلال إرشاد أتباعه إلى وجوب أن يكرموا فيها الأم والبنت والزوجة، وأحسن ما خلق الله وأقدسه.

(٥٦)

ينبغي لنا أن نقرّ بأن زواج الرجل بعدة نساء من قبائل عربية عديدة كان أبعد دلالة من كونه شهوة حسية جارفة، إذ كان يعني إقامة علاقة عائلية، وكان عربون تحالف سياسي بين العائلات الكبرى من نفس المدينة أو من نفس القبيلة يضمن، بقرابة الدم، صداقة البيوت أو الأسر التي تتم مصاهرتها، وأخوّتها ونصرتها. فقد كانت الزوجات رهائن تقدمها العائلات بعضها لبعض، فكنّ بذلك يُؤمنّ السلم، ويُعزّزن قوة البيوت التي يدخلنها.

إننا بإزاء بلد لم تكن فيه أي سلطة مركزية عليا لإقامة نفوذ ثابت، فقد كان النفوذ ينتقل دومًا من أسرة إلى أخرى ولم يكن له من سند سوى الملكية، فلم يكن من الممكن تأسيسه والحفاظ عليه إلاّ بأن ينضم إلى المجالس أوفر عدد ممكن من الشيوخ ذوي النفوذ في المدينة أو في القبيلة. فكانت تلك الزيجات التي لا يحدّها عدد وسائل لاكتساب انضمام الشيوخ إلى المجالس وإقامة الأحلاف معهم، فكان يمكن بذلك توسيع نفوذ أسرة مسيطرة أو التخلّص من نفوذ أسرة يراد التخلص منه بالإكثار من مصاهرة الأسر المنافسة لها. فقد كانت المرأة معاهدة.

ويبدو أن هذا هو ما دفع محمدًا، إلى جانب ما في نفسه من عاطفة، سواء بسواء على ما نقدّر، إلى اختيار من اختار من الزوجات بعد أن فقد خديجة[2]. فقد كانت فترة

(١) لم يزر النبي (ﷺ) الهند ليستقي شيئاً من معابدها. (المراجع).

(٢) لم تكن زيجاته عليه الصلاة والسلام بهدف شهوة حسية، وإنما كانت لحكمة ولأسباب سامية عديدة بقصد خدمة الدعوة والعقيدة الجديدة. (المراجع).

موتها هي الفترة التي كان فيها بحاجة إلى أن يعزز موقفه في مكة، تعزيزًا لعقيدته المحظورة فيها، وذلك باقامة أحلاف مع أسر أعدائه المترددين أو أسر أتباعه الخلّص. وما يؤكد ما ذهبنا إليه من تخمين سنّ المرأتين اللتين تزوجهما في نهاية السنة الأولى من ترمّله: أما الأولى، سودة بنت زمعة، وكانت من بني قيس بن عبد شمس، وهم بيت عزّ وشعر، فكانت تكاد لا تناهز سن المراهقة وأما الثانية، عائشة بنت أبي بكر وهو من صحابته، وكانت ذات حسن نَفُور وأناقة جَموح فلم تكن حينئذٍ قد جاوزت سن الطفولة.

لم تكن إلا في الثامنة من عمرها، وصارت في ما بعد زوجة النبي المفضلة، وقد ظل، رغم تقدمه في السن، يحب تلك التي تربت على يديه. فقد كانت عائشة في أول أمرها أقرب إلى فتاة تبناها منها إلى زوجة، ولم تدخل قلبه باعتبارها زوجة إلاّ بعد سنوات عديدة. ويبدو أن محمدًا أحبها حبًا يزيد على حبه لسائر نسائه جميعًا وكان ذلك لسموّ فكرها وإخلاصها بقدر ما كان لحسنها الذي كانت تسير به الركبان في جزيرة العرب.

(٥٧)

يبدو أن حسن الحظ قد شاء أن يعوّض محمّدًا عن انفضاض بعض أتباعه عنه، فقد جاءه إلى مكة اثنا عشر شيخًا كانوا شيوخ عرب يثرب، أوفدهم قومهم إليه، فجاؤوا متعللين بالحج، وطلبوا من النبي أن يجتمعوا به ليلاً في شعب من شعاب العقبة، وانتهى اللقاء بتحالف ضمني وبيمين أقسمها المندوبون الاثنا عشر أمام محمد باسم قبائلهم، فأرسل معهم واحدًا من دعاته، وهو (مصعب بن عمير) ليعلّمهم أركان عقيدته وأحكامها وطقوسها. كان مصعب يعلّم دين محمد للأطفال في بستان نخيل مسوّر خارج المدينة، فسمع (سعد بن معاذ) – وكان سيّد قومه بالمدينة – خبر رجل غريب يعلّم الناس دينًا يدحض آلهة آبائهم، فأسرع وقد شهر رمحه ليطرد الدخيل من البستان، فطلب منه مصعب أن يسمع ما كان يقول. فقبل ذلك، وغرس رمحه في الرمل وجلس يستمع إلى حديثه، فقلب الإيمان فؤاده بين جوانحه وقد انبهر بالحقائق التي كانت تتدفق من فم مصعب.

فرجع إلى المدينة، وجمع بني قومه وقال لهم: «ما أنا بينكم؟» فقالوا له: «أنت قائدنا وشيخ مجالسنا، وما تأمرنا به نفعله». فقال لهم: «أقسم بالله أني لن أكلّم أحدا منكم، رجلاً أوامرأة، حتى تعتنقوا هذا الدين الجليل، دين محمّد، وتؤمنوا معه بالله الواحد».

فذهب نصف سكان يثرب يستمعون إلى وعظ مبعوث محمد وإرشاده، فانتشرت عقيدته في وحدة الله انتشار نور النهار في ظلمة الليل، فلما كانت نهاية تلك السنة، وهي السنة الثانية عشرة للبعثة، عاد مصعب إلى مكة بخمسة وسبعين مؤمنًا جديدًا من يثرب كانوا من علية القوم، ليبايعوا محمّدًا.

ضرب أولئك الخمسة والسبعون مؤمنًا خيامهم مع قافلة الحجيج عند أبواب مكة. وكانوا يتسللون ليلاً من المخيّم دون أن يوقظوا بني قومهم، ويذهبون للتحادث مع محمد في معزل، فأبرموا معه عهدًا أقسموا على تنفيذه، ويقضي بأن يستقبل أكابر يثرب محمدًا وأتباعه في مدينتهم، وبأن يطيعوه باعتباره رسول الله على الأرض وبأن يموتوا دونه – إن لزم الأمر – فقالوا له: «وما جزاؤنا على ذلك؟».

فقال النبي: «الجنة».

فقالوا: «ولكن إذا نصرناك وأظهرنا دينك، ألا تتركنا يومًا لتعود إلى مكة، بلدك؟».

فقال محمد: «أبدًا، وأقسم بالله أن أعيش وأموت بينكم».

واختار محمد من بينهم اثني عشر رجلاً أرسلهم لنشر مذهبه بين القبائل في أقاصي الجزيرة العربية.

(٥٨)

غير أن سرّ تلك المعاهدة الليلية التي كانت بين شيوخ يثرب ومحمد ذاع بعد الحج في مكة، فأرغم أتباع النبي، وقد اتهموا بخيانة بلدهم وبني قومهم، على أن يهاجروا خفية، واحدًا واحدًا، من مكة وأن يلوذوا بيثرب، ورفض محمد أن يتبعهم، رغم أنه كان كل يوم

عرضة للاغتيال، ما لم يتلق وحيًا من الله بساعة هجرته. فبقي معه أبوبكر، والد عائشة، وعليّ، وكان يشارف العشرين من عمره، ليدفعا عنه الغوائل.

أما أهل قريش، فعهدوا إلى بعض القتلة بأن يهجموا على بيت محمد ويقتلوه في الليلة الموالية، وذلك بعد أن تدارسوا ما ينبغي لهم فعله ليتخلصوا من خطر النبي أو ليمنعوا عودته عليهم في جيش يهزمهم.

وتنبّه النبي إلى مقصدهم إثر لغطة سرت أو إثر استشعار انتابه، فكلف عليّاً، وكان صاحبه المفضل، بأن يعيد في المساء كل ودائع القرشيين، وحتى الكافرين منهم، التي كانت في بيته إليهم، لما كان في نفسه من حب تأديه الأمانة، ففعل عليّ ما أمره به والده بالتبني، ثم إن محمدًا قال له: «التفّ الآن بردائي، واضطجع على حصيري، ولا تخش شيئا، فلن يمسّك أذى» فأخذ علي دون تردد رداء النبي ومكانه، ولو كلفه الأمر أن يموت من أجله، وتسلل محمد، في العتمة وقد أوهم الكفار بأنه نائم، فدخل على أبي بكر وقال له: «إن الله يأمرني بأن أهاجر». فقال أبو بكر: «وهل يتيح لي أن أرافقك؟» فقال محمد: «نعم»، فبكى أبو بكر حمدًا لله وعرفانًا على ما حباه به.

وكانت ناقتان أعدتا مسبقًا مع دليل خارج مكة في انتظار الساعة التي يقرر فيها محمد الرحيل، غير أن المعلم وتلميذه خرجا تحت جناح الليل، فبلغا مغارة في جبل ثور، على مسير ثلاث ساعات من مكة، في الجهة المقابلة لطريق يثرب، كانا يقدّران أن يكونا فيها بمنجى.

(٥٩)

وكان القتلة، أثناء ذلك، يرقبون خروج محمد ليقتلوه عند مبارحته بيته صباحًا، وكانوا يتحادثون عند عتبة البيت بصوت خفيض، فكان بعضهم يزعم أنه خدعهم وأنه لم يعد في البيت، بينما كان بعضهم الآخر، وقد نظر من فرجة في الباب فرأى رجلاً ملتفّاً ببرد محمد الأخضر، نائمًا على حصيره، لا يشك في أنهم ممسكون بالضحية عند يقظتها.

لاح الفجر وهم على ذلك، فنهض علي ونفض ثوبه وفتح الباب، فاعتقد القتلة، وقد أسقط في يدهم، أن ذلك الإبدال فعل إلهي، وذاع خبر هجرة محمد في مكة. فانتشر أعداؤه في جميع الطرق في طلبه، وصعد بعض مضطهديه حتى مغارة ثور، ولكنهم حين رأوا عش حمامة معلَّقًا بمدخل المغارة وبيت عنكبوت غير منقوص معلقًا على بابها، أيقنوا أن لا أحد دخل المغارة منذ زمن بعيد، فولّوا عن المكان، أما محمد وأبو بكر فقد اتخذا ما يلزم من الحيطة، فلم يمسّا العش واكتفيا برفع جانب بيت العنكبوت عوض تمزيقه عند التجائهما إلى المغارة. ومكثا في ذلك المعزل ثلاثة أيام وثلاث ليال ينتظران الدليل والناقتين. وكانت أسماء بنت أبي بكر وأخت عائشة، ترسل، ليلاً، لبنًا وتمرًا، وكان محمد قد أبقى في بيته عائشة وضرّتها الأسن منها، إذ كانت عتبة البيت عند العرب محرّمة على النساء.

فلما كانت الليلة الثالثة، جاءت أسماء نفسها بالدليل والناقتين إلى المغارة. فركب محمد إحداهما، وركب أبو بكر الأخرى بعد أن ضمّ ابنته وقبّلها، وأردف (عامرًا بن فهيْرة)، وهو عبده الذي أعتقه. واتخذ المهاجران وجهة البحر، بدل أن يقطعا البرزخ عبر الجبال، تضليلاً لملاحقيهما، وتابعا المسير على الساحل المحيط بيثرب عن بعد، فتبعهما فارس قرشي يدعى (سراقة بن مالك بن جُعْشُم) وهما يجتازان ببعض القبائل التي تنزل قرب ساحل البحر، فحثا مسير ناقتيهما، فركب سراقة فرسه ولاحقهما ورمحه في يده يرجو أن يفوز بما رُصِد من مكافأةٍ لمن يأتي برأسيهما، فاضطرب أبو بكر وأراد أن ينزل أرضًا لمقاتلته راجلاً، فقال صاحبه: «لا تحزن إنّ الله معنا»[1].

فلما أوشك سراقة أن يدركهما، كبت فرسه وتدحرجت بفارسها في الرمل. فنهض سراقة وركب الفرس ثانية واستأنف ملاحقته لهما، فكبت الفرس ثانية فعاد فامتطاها مرة أخرى، وركض وراء المبعدَيْن وصاح قائلا لهما: «توقفا، أقسم أني لا أريد بكما سوءًا» فقال أبو بكر: «فماذا تريد منا إذن؟» فقال المقاتل: «لا أطلب إلاّ أن يسلمني محمد شهادة من يده فيها إقرار بأني من أتباعه» ولكن لم يكن بحوزة أبي بكر، وقتئذٍ، ورقة لكتابة تلك الشهادة عن اعتناق سراقة الدين الجديد، فالتقط من الرمل عظمًا مصقولاً ابيضّ

(١) سورة التوبة. من الآية (٤٠).

بالشمس، فكتب عليه محمد شهادة بإيمان القرشي، فوضع سراقة العظم في كنانته ورجع إلى قبيلته دون أن يخبرهم بشيء عن ملاحقته محمدًا ولا عن سقوطه عن فرسه ولا عن إسلامه، فكان العظم الذي كتب عليه محمد ما كتب، ثم قُدّم له حين دخل مكة ظافرًا، سبب نجاة ذلك المسلم الحديث العهد بالإسلام.

(٦٠)

كان سكان قُباء، وهي قرية قرب يثرب، ينتظرون النبيّ. فجلس تحت نخلة عند مدخل القرية لينفض عنه غبار الطريق، فظل الناس، في توقيرهم الوافديْن، على مسافة منهما، يتساءلون أيّ الرجلين محمد، ولم يجرؤ أحد منهم على أن يدنو منهما دون معرفة ذلك، خوف الخطأ والإساءة إلى النبي بحمل أحد أتباعه على أنه هو، ولكن حينما طلعت الشمس في السماء وحولت ظل النخلة فتركت رأس محمد تحت أشعتها، نهض أبو بكر، ونشر رداءه على فروعها، فأنشأ بذلك فيئًا عريضًا يظلل جبهة محمد، فميز الناس، بما فعله أبو بكر احترامًا للنبي، التابع من المتبوع، ودنوا واستضافوا محمدًا.

ومن ذلك اليوم، يوم دخول النبي إلى يثرب، وهو يوم ١٥ أو ١٦ يونيو/حزيران من سنة ٦٢٢ من ميلاد عيسى، يبدأ تاريخ الهجرة، وهو التاريخ المعتمد لدى العرب والمسلمين.

(٦١)

والتحق علي بالنبي في قُباء بعد أن انفلت من مكة وأنقذ حياة معلّمه. ودخل محمد في اليوم التالي إلى يثرب دخول الظافرين، ولما كان جميع سكان المدينة يتنافسون على شرف استضافته، فقد أوكل الأمر إلى غريزة ناقته، وقد أضفى عليها قدرة من الكشف تتيح لها اختيار البيت الذي سينزل فيه[1]. غير أن الناقة كانت معتادة على أن تأتي لحمل التمر من سوق يثرب فاخترقت المدينة كلها، ولم تبرك لإنزال سيدها إلا في أرض غير مسكونة خارج سور المدينة حيث اعتاد السكان أن ينشروا التمر لتجفيفه، فكان أقرب بيت إلى ذلك الموضع بيت أبي أيوب (خالد بن زيد)، وهو واحد من أهم شيوخ القبائل في المدينة، فسارع أبو أيوب بإنزال حمل الناقة ثم أخذ إلى بيته رحل محمد وحصيره.

---

(١) «.. قال ﷺ خلّوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلّوا سبيلها، فانطلقت حتى بركت على مرْبد لغلامين يتيمين من بني النجار..»

انظر السيرة النبوية - دار إحياء التراث العربي، ج٢ - ص ص ١٠٨، ١٠٩.

وأمر محمد أن يبنى مسجد في الموضع الذي وطئ فيه هو الأرض، وأن يبنى أيضًا له ولأسرته بيت هناك، وعمل هو في ذلك بيديه، وساعده أهل يثرب، وكان يقول لهم: «من عمل في إقامة هذا البناء، بنى للحياة الباقية».

وأبدلت يثرب، بعد دخول محمد، اسمها تشريفًا لضيفها، فصارت تُسمى «مدينة النبي»، وتم الاعتراف بمحمد قائدًا روحيًا وسيدًا من جانب أهم قبائل المدينة، فعقد حلفا مع القبائل الأخرى، وضمن لهم الحرية التامّة في دينهم، وقد كان بعضهم نصارى وبعضهم الآخر يهودًا وكان أغلبهم من عبدة الأوثان: فغدوا جميعًا رعيته أو متحالفين معه.

كانت قوانين الأمن والعدل والمساواة والسلم التي سنّها إثر إقامته بالمدينة شرعة نزيهة بقدر ما كانت شرعة سياسية للتسامح والإنصاف، فذاك الذي طرد من بيته ما زال يذكر، حينئذٍ، ما لقي من اضطهاد وعَنَت في سبيل عقيدته، فكان يراعي ذلك التسامح - بإنصافٍ وكياسة - في الآخرين، وكان يسلك سلوك العادل ليكون قويّاً.

ولم تلبث زوجتاه، سودة وعائشة، وكان القرشيون يكنون لهما الاحترام لكونهما امرأتين في تلك السنّ، أن التحقتا به في المدينة. فأسكنهما في جناحين منفصلين من بيته المحاذي للمسجد. وكان، كلّما تزوج امرأة أخرى بعد ذلك، بنى لها جناحًا منفصلاً. وكانت جدران ذلك القصر من الآجر المجفف في الشمس، وكانت جذوع النخل بمثابة أقواس تشد أطراف السقف الناتئة، وكانت به ثلاثة أبواب تفضي إلى الصحن والحديقة. وكان في المسجد حجر ضخم في الجهة التي إليها مكة وبيت المقدس، يبيّن للمؤمنين بمعبدي إبراهيم القديمين القبلة التي يتوجهون إليها عند صلاتهم إرضاء لله الواحد.

(٦٢)

ما إن ضمن محمد حماه وملجأه والمؤمنين به والمتحالفين معه، حتى بدا أن روح الدعوة فيه تبدلت إلى روح الفتح، فجنّد بضع مئات من الرجال الباسلين وسار معهم إلى مكة.

كان مائة رجل في تلك الفيافي يكوّنون وقتئذٍ جيشًا، وكان أي لقاء يسمّى معركة. أبرم محمد، أثناء رحلاته المسلحة في الصحراء، معاهدات مع القبائل الظاعنة، وجنّد منها أشجع مقاتليها وألحقهم بجيشه، وقد كانت انتصاراته في السنة الأولى، لا تتعدى مفاجأة بعض قوافل مكة وأخذ أحمالها من الزبيب والجلود. وحينما حمل بعض قواده وانتصر أثناء الأيام المقدسة، أنبه لسفك الدم في الأشهر الحرم، غير أنه قال له ملاطفًا إياه وموزعًا الغنيمة على المؤمنين: «لكن الشرك شر من القتل» وأقرّ في تلك المناسبة، السنّة المعمول بها إلى الآن وهي دعوة المؤمنين إلى الصلاة بعلامة تجتمع بها أماني المؤمنين عند ساعات محدّدة في سياق إلهام واحد، فعرض عليه بعض المؤمنين أن تكون تلك العلامة النفير الذي يدعو اليهود إلى بيعتهم، ثم اقترح عليه بعضهم الآخر أن تكون ناقوس الخشب الذي كان يدعو النصارى قبل اختراع ناقوس النحاس، غير أنه فضّل، بعد طول تردد، الصوت البشري، تلك العلامة الحية، نداء الروح للروح الذي يضفي على الصوت نبرة الادراك والتقوى، فأقرّ المؤذنين، خَدَمة المسجد، يُختارون لمدى أصواتهم وجهوريّتها، ويصعدون إلى أعلى المآذن يرسلون الأذان على المدينة أو على الريف عند ساعة الصلاة.

وأوكل هذه المهمة، أول مرة، إلى عبد أبي بكر الذي أعتقه، ورافقه في هجرته، وذلك لحسن صوته، وهو الأذان الذي ما فتئت آلاف الحناجر تردده على جميع مآذن إفريقيا وأوروبا وآسيا، وهو:

«الله أكبر .. الله أكبر، الله أكبر .. الله أكبر • أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن لا إله إلا الله • أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله • حيّ على الصلاة.. حيّ على الصلاة • حيّ على الفلاح... حيّ على الفلاح • الله أكبر... الله أكبر • لا إله إلا الله».

وضبط في الوقت نفسه، الحدّ الأدنى من الزكاة التي على كل مسلم أن يؤديها، أمام الله، للفقراء، كأنه يشتري منهم بذلك ما حباه الله به من رزق وسعة عيش وقد حدد المشرّع هذه الضريبة السماوية بعُشُر الممتلكات، فعدّل بذلك، من خلال الأمر بالزكاة، الحرص على جمع المال والجشع فيه، وكانا رذيلة أنانية في العرب، وقصد الحدّ من

التفاوت في الثروة بشكل دائم من خلال التدفق المستمر للصدقات، وقد كان ذلك مماثلاً لاسقاط الديْن الذي عند اليهود والذي يبرئ من الديْن كل سبع سنوات، ولكنه مطبق بشكل آخر على المسلمين.

إن هذا القانون المعمول به دينيًا في جميع أقطار الإسلام، يكبت في تلك البلاد خيلاء الثراء الفاحش كما يكبت صراخ الفقر المدقع وهو قانون يشيع في المجتمعات الإسلامية روح الانتماء إلى أسرة واحدة ويشيع واجب الأخوّة بين المسلمين جميعًا.

(٦٣)

ولم يكتف محمد بما حاز من نصر على أعدائه القرشيين بالسلاح في المعارك الأولى، فسعى إلى النيل منهم أيضًا بالتعريض بسمعتهم. فكلف أشهر شعراء المدينة بأن يذيعوا في الجزيرة أشعارًا فيها هجاء لأهل قريش وتعريض بهم، وفيها تمجيد للدين الجديد. فقبل (حسان بن ثابت)، وهو واحد من الشعراء الذين أسلموا، الاضطلاع بتلك المهمة، وقال لمحمد، وقد أخرج لسانه: «والذي بعثك بالحقّ لأفرينهم بلساني فَرْيَ الأديم».

فابتسم محمد وقال: «ولكن كيف ستفعل لهجو قومي دون أن ينالني من ذلك شيء؟»

فقال حسان: سأسلُك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين».

فقال له النبي: «اذهب إلى أبي بكر، فإنه أعلم بأنساب قريش، فاضرب بلسانك أعداء الله، ولتلهمْك الملائكة»

(٦٤)

ثم إن محمدًا خرج آخر الأمر من المدينة، وقد استحيا من بقائه سنتين دون أن يحرك ساكناً، حين سرى خبر قافلة من مكة تتجه إلى الشام، يحرسها جيش من قريش. ولم يكن جيشه يعدّ إلا ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلاً يركبون أربعة وسبعين بعيرًا، وكانت تتقدم الجيش رايتان، إحداهما سوداء والثانية بيضاء، يحملهما عليّ وواحد من أهل المدينة.

ذاك هو الجيش الذي سيبدّل وجه العالم بأعمق مما بدلته الجيوش التي تعدّ مليون رجل كجيش (خشايرشا ابن داريوس)، ملك الفرس أو نابليون، فليس بعدد المقاتلين تقاس الأحداث، وإنما تقاس بما وراء الأحداث من أسباب. فإذا كان مليون جندي يقاتلون إرضاء لطموح غازٍ أو تعظيمًا لمجده، هلكوا دون أن يخلفوا أثرًا سوى عظامهم على الأرض، أما إذا كان ثلاثمائة وأربعة عشر يقاتلون في سبيل نصرة فكرة لا يبتغون منها نفعًا عاجلاً، هي فكرة وحدة الله، وإظهارها على أهل الشرك، فإنهم يفتحون ثلث العالم ليثبتوا فيه - على مدى الزمن - العقيدة التي كانت تدفعهم. فالنصر، مهما كان قول بعض الملوك الماديين في عصرنا هذا ليس للجيوش الجرّارة، النصر لله ولمن يقاتل في سبيل الله ضدّ روح الفساد في البشر. كان يقود قافلة مكة وجيشها مقاتل شهير، عدو محمد، يدعى أبا سفيان، وحينما أعلمه عيونه باقتراب محمد، أوفد رسولاً إلى مكة يطلب المدد. فتوقف رسوله، وهو على بعيره، في شعب قريب من جدران الكعبة، وقص أذني دابته علامة على الهلع الشديد، فكان دم البعير يسيل على رأسه، وجعل السرج باتجاه الكفل ومزق ثيابه، وصاح سبعًا: «يا أهل قريش، إلى القافلة، إلى القافلة! فقد طوقها محمد، وسيهلك كل ما فيها، رجالاً وبضائع، فالنجدة، فالنجدة، أنجدوا إخوتكم !» فهب أهل قريش يحملون سلاحهم لما سمعوا ولما رأوا من علامات اليأس، وحينما رفض أحدهم الخروج معهم، لسمنته، وكان متقدمًا في السن، قالوا له: «عليك بالطيب، فما أنت إلاّ امرأة» فاحمرّ وجهه خجلاً وخرج معهم.

كان جيشهم يعد مائة فرس وألف مقاتل. وعلم محمد، وكان قد عسكر في بدر، على مسير أربعة أيام من المدينة، بذلك المدد الهائل الذي ينتظره أبو سفيان، فلم يذهله ذلك العدد ولا حيّره، ولكن كان يمكن أن يحيّر جنوده ويذهلهم، فجمعهم، فقال أبو بكر: «أيها النبي، اذهب بنا حيث أمرك الله بأن تذهب بنا، فإننا لن نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فاذهب أنت وربك، فقاتلا، إنّا ها هنا قاعدون﴾[1] ولكننا نقول لك: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» أما أوّل أتباعه من المدينة، (سعد بن معاذ)، فقال له: «لو خُضْتَ بنا هذا البحر، لَخُضناهُ معك، ما تخلّف منّا رجل واحد» فعزّز حماسهم حماسه.

(١) سورة المائدة ، من الآية (٢٤).

وكان عيونه قد انتشروا يتسقطون أخبار العدو ومدى اقترابه من جيشهم، فنزلوا قرب بئر كانت تحيط به جماعة من النسوة يستقين، فسمعوا إحداهن تقول لأخرى: «سأدفع ما عليّ لك إذا بعت مما عندي للقافلة، فإنها تمرّ غدًا من هنا»

وبعد فترة جاء أبو سفيان قائد القرشيين إلى البئر نفسه، باحثًا هو أيضًا عن بعض ما يدله على موضع جيش محمد، فقال لأولئك النسوة: «أرأيتن غريبًا جاء إلى هذا الموضع؟» فقلن له: «نعم، لقد رأينا مسافريْن على بعيرين جاءا فشربا من هذا النبع ثم ذهبا» فدفع أبو سفيان فرسه على أثر جاسوسي محمد، وحينما رأى نوى التمر في بعر جمليهما قال: «وحق الكعبة، إنهما من إبل يثرب» ورجع إلى جيشه ليقوده على أثرهما.

(٦٥)

التقى الجيشان، من غدٍ، أحدهما في مواجهة الآخر. أما محمد، فقد رتب جيشه ترتيب قائد ألهمته طبيعة الموضع ذلك، وكان تحمّس جنوده يعوّض نقصهم العددي، وبينما كان محمد ينظم مقاتليه للمعركة، ويسوّي صفوفهم باستخدام قِدح، وهو سهم دون سنان، حتى لا يتجاوز صدر صدرًا، ضرب فخذ (سوّاد بن غزيّة)، وكان من خيرة مقاتليه، ضربة خفيفة بذلك القدح، لأنه لم يكن مصطفاً كما ينبغي، فقال له: «قد أوجعتني، وإن ما أتيتنا به من أحكام، باسم الله، يجيز لي أن أقتصّ منك وأضربك» فقال محمد: «أجل، فاقتص لنفسك»، وفتح ثوبه وقدّم صدره عاريًا للجندي ليقتضي منه بحسب تعاليمه. غير أن سوّادًا، بدل أن يضربه، أحاط بذراعيه المفتوحتين جسم النبي، وقبّل صدره العاري وقال: «نحن في ساعة عظيمة والموت أمامنا، وربما كانت ساعة منيّتي، فقد أردت قبل مفارقتك إلى الأبد أن يمس جلدي جلدك»

كان جيش قريش ينحدر من التلال، فاتخذ محمد مكانًا على بعض مسافة من الجيش، على كثيب في عريش من القصب أقامه له جنوده، وأحاطت بهما خيول سريعة للكرّ أو الفرّ، وكان حوض ماء يفصل الجيشين.

وبدأت المعركة بين بعض الفرسان من الجانبين كانوا يركضون ليتنازعوا ماء الحوض، ثم كثرت المبارزات وعمّ القتال وشملت المعركة الجيشين كلهما، وكان محمد، من أعلى الكثيب، يراقب كل حركة، فبعث إلى جنوده يأمرهم بالثبات في المواضع التي حددها لهم، وبأن يرموا بنبالهم خيول القرشيين، وبألاّ يهجموا عليهم إلاّ بعد أن ينهكوا غلواءهم الأولى، ثم رفع يديه نحو السماء وقد رأى ضيق المدى الذي يحتله مقاتلوه قياسًا إلى عدد أعدائه وقد اسودت جوانب التلال لكثرتهم، وقال: «يا رب السماء، اذكر وعدك لعبدك، لئن تركت هذه القلة من المؤمنين يهلكون، فلن يكون على الأرض من يعبدك» وانزلق رداؤه من على كتفيه لحرارة دعائه، فأرجعه أبو بكر على جسمه وقال: «يا نبيّ الله إن الله لا يخلف وعده».

وغشيت محمدًا فجأة خفقة أفقدته القدرة على استخدام حواسه، فانتظر من كان حوله أن يفيق من تلك الحال، وإذا به عاد إليه وعيه ولاح على سيمائه نور يشع أملاً، قال: «رأيت روح الله، وفرسه وراءه، يستعد للقتال معنا، فمن صابر اليوم وقاتل ببسالة ومات من جراح أثخنته مقبلاً غير مدبر، وُهب الجنة».

وكان أحد حراسه جالسًا قربه في ظل العريش يأكل تمرًا، فسمع تلك الكلمات فصاح قائلاً: «ماذا أسمع؟ أيكفي لحيازة الجنة، أن يقتلني هؤلاء؟» وسلّ سيفه وقد ألقى بعيدًا عنه ما كان يأكل من تمر، واندفع إلى المعركة فقتل خمسةً من أهل قريش ثم قُتل راضيًا عن نفسه، وقد صدّق كلام محمد تصديقًا، واقترب آخر من النبي وسأله عن أفضل عمل يسرّ الله، فقال: «هو أن يسرع المقاتل وسط الأعداء ولا سلاح له إلاّ إيمانه» فألقى الرجل ترسه ونزع لأمته واندفع إلى المعركة فصُرع.

وأخذ محمد، آخر الأمر، حفنة من الرمل، وكان يترصد اللحظة التي يهدا فيها هياج فرسان قريش على جنوده وقد ظلوا ساكنين، وأذراها كأنه يلقي لعنة على القرشيين، وصاح: «احملوا عليهم، أيها المسلمون».

وما إن سمع المسلمون ذلك، وقد كبحوا أنفسهم طويلاً، حتى انقضوا كالإعصار على صفوف الكفار وقد تفرّقت، فكانوا وهم حفنة من الرجال قد شد بعضهم إلى بعض ما كان في نفوسهم من حماس وانضباط، شديدي الوطأة يحدثون ثلمة في صفوف الأعداء حيثما حملوا حتى تشتّتت واضطرب نظامها، فكان كل من اعترض سبيلهم يلوذ بالفرار أو يخرّ تحت ضرباتهم، فغطى السهل قتلاهم أو فرسانهم وقد سقطوا عن خيولهم، وكنت ترى الظافرين هنا وهناك يقودون المهزومين - وقد نزعوا عنهم سلاحهم - إلى سفح الكثيب الذي كان فيه النبي، فأنكر بعض قوادة رحمته وشفقته وتركه الكفار أحياء، فأنّبه محمد وأمر بالإبقاء على حياتهم.

وكان أتباعه يأتونه في كل حين بقرشيين معروفين باضطهادهم إياه، فكان يعفو عنهم، غير أنه كان يلحّ في معرفة مصير ألد أعدائه:أبي جهل، فقال لمن كانوا حوله يحرسونه: «ابحثوا عنه في ساحة المعركة، ستتعرّفونه بأثر جرح في ركبته حدث له في شبابه حينما كان ينازعني صدر مجلس في وليمة، فصرعته فسقط تحتي، ومازال يحمل أثر سقطته تلك».

فانطلق (عبدالله بن مسعود)، وجال بساح القتال، فتعرف أبا جهل بأثر جرحه، وكان يلفظ أنفاسه على الرمل لما أثخن به من جراح، فوضع عبد الله رجله على عنقه ليجهز عليه، فاكتفى المحتضر بأن سأله: «لمن النصر؟» فأجابه وهو يجز رأسه بضربة من سيفه: «لله ولنبيّه».

ولم يفقد محمد إلاّ أربعة عشر رجلاً من مقاتليه. أما أهل قريش، فقد خلفوا في ساحة المعركة خمسًا وسبعين جثة. فأمر محمد بأن يُدفنوا في الحوض الذي تم حفره بين الجيشين، فردمته أجسامهم.

وتعرّف أحد المؤمنين الشبان، ممّن هاجر مع النبي من مكة، جثة أبيه (عتبة) بين الموتى، فارتعدت فرائصه لهول ذلك المشهد، مشهد الحروب الدينية، ولحظ محمد ارتعاده،

فقال أتأثرت لما نال أباك من مصير؟ أ ترى إيمانك تزعزع لذلك، فقال الشاب: «لا، إني أعلم أنّ أبي قد لقي مصير الكفار، ولكنه كان عاقلاً، حكيمًا، تقيّاً، رحيمًا وكنت آمل دومًا أن تجتذبه خصاله إلى عقيدتنا، إني أبكيه إذ رأيته هكذا يموت في الشرك الذي ولد فيه».

فقال النبيّ: «حسن منك هذا البر بأبيك، إن الله يحبه منك، وإنه لشرف لك أمام الناس !».

(٦٧)

وحينما انتهى الدفن، اقترب محمد من الحوض وقد غطي بالرمل وجعل يخاطب أعداءه الموتى بأسمائهم ويقول: «أنت، وأنت، وأنت» ويسميهم جميعًا، «إنكم غير أهل لتكونوا من قوم النبي ! لقد رميتموني بالكذب، وصدّق آخرون بعثتي، طردتموني من بلدي، فأجارني غيركم ! حملتم السلاح لمحاربتي، وحمل غيركم السلاح للدفاع عن عقيدتي ! فهل كذب الله حين وضع على فمي وعيده الذي أبلغتكم عنه؟ وهل أخلف الله وعده الذي وعدني؟ قولوا !».

فأخذت جنوده الدهشة، ونظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «ما هذا أيها النبي، أتخاطب أمواتًا؟» فقال: «اعلموا أنهم يسمعون ما أقول كما تسمعون !» وكان من بين أسرى محمد، عمه العباس بن عبد المطلب.

ولم يغمض جفن لمحمد في الليلة التي تلت ذلك النصر، فقال له بعض من معه: «ما يمنعك من النوم؟» فقال: «إني أسمع عمّي يشكو قيده» فأسرع الرجل ففك قيد العبّاس فنام النبي.

وكانت عودته إلى المدينة عودة المنتصر المظفّر، وأيّد النصر في نفسه موهبة الإلهام. أما أهل المدينة فكان نصرهم نصرين. ولكن ألم الوالد عكّر نصر المقاتل وأفسده، ذلك أنه علم، وهو يدخل المدينة، بنعي ابنته رقيّة، وكانت زوجة عثمان. فبكاها بكاء أب لا بكاء نبيّ.

واختص، بعد الحملات العسكرية، بالغنائم يأخذ منها ما يشاء ويوزع منها ما يشاء، ليجازي مقاتليه، وكانوا ذوي منزلة ومحاربين في الآن نفسه، وكانت قراراته تقبل دون أن يعترض عليها أحد من أتباعه. فقد اجتمعت على رأسه، إكليلاً، ثلاث سلط مطلقة مكّنته من أن يكون في الوقت ذاته ضمير المسلمين وقانونهم وسيادتهم.

وأغنى افتداء قريش أسراهم خزينته بما دفعوا ثمنًا لهم، فوهب ذلك المال بسخاء إلى بعض مقاتليه.

وكانت ابنته زينب، وهي التي كانت له من خديجة، زوجته الأولى، متزوجة في مكة من مقاتل قرشي، ظل وثنياً، ويدعى أبا العاص، وكان أسيرًا بالمدينة. فأرسلت زينب لافتداء زوجها عقدًا ثمينًا. فبكى محمد وهو يرى العقد الذي نزعته ابنته من عنقها، فقال (لأبي العاص): «خذ، إليك هذا العقد، وأنت حرّ، ولكن شرط أن تَرُدَّ إليَّ ابنتي، فلا يليق بمسلمة مثلها أن تكون زوجة كافر !»

فلما رجع أبو العاص إلى مكة، أرسل زينب إلى النبيّ.

غير أنه، بعد فترة، وقد هاجه الشوق لرؤية زوجته التي سُلبت منه، دخل المدينة خفية مجازفًا بحياته إن اكتُشف أمره، فالتقى بزينب سرّاً، أثناء الليل، ودبّر معها حيلة فيها جرأة، تنجيه من الموت، وهي أن يختلط، مثلها، بالناس الذين يأتون للصلاة بالمسجد، وأن يرفع صوته فجأة مستجيرًا بامرأة، فتنهض زينب، عند سماع صوته، وتصيح من مكانها بين النسوة في مقصورتهن، قائلة إنها تأخذ ذلك الغريب في جوارها، فيغدو أبو العاص، وقد صار في جوار بنت النبي، مصونًا لا يُقدر عليه، فظل بذلك في المدينة لا يناله أذى، ولم يلبث حبه لزينب أن جعله يعتنق عقيدة تلك التي كان يدين لها بحياته.

وبعد بضعة أيام، زوّج محمد تابعه الحبيب إلى نفسه، عليّاً، وكان في العشرين من عمره، من ابنته الرابعة، فاطمة، وكان عمرها إذ ذاك خمسة عشر عامًا. وكان علي فقيرًا بقدر ما كان محبّاً، فدُفع لذلك، إلى أن يبيع درعه ليشتري الحلي والأقمشة والعطور، وهي هدايا الزفاف التي كان العرب يدفعونها مهرًا لخطيباتهم.

(٦٩)

كان شعراء الجزيرة العربية وأهل الأدب فيها آخر من يتخلى عن الحكايات والخرافات التقليدية التي كانوا يغذون بها مخيلة الناس، فظلوا معترضين اعتراضًا شديدًا على النبي. فحزنوا حزنًا شديدًا لهزيمة قريش ببدر ولانتصار محمد على آلهتهم وبلغت الجرأة بأحدهم، عند عودته من الشام، إلى أن يذهب إلى مكان المعركة فيرثي الموتى ويمجّدهم، فصعد ببعيره على الحوض المردوم الذي كانت فيه جثث المهزومين، وقطع أذني دابته علامة على حزنه وأنشد من ذلك الموضع مرثية بليغة في هزيمة الآلهة. فحنق محمد لما فعل، وأمر بملاحقته، فظل تائهًا من ملاذ إلى آخر حتى لفظ أنفاسه بؤسًا في الصحراء.

وكان شاعر آخر مشهور يدعى (كعب بن مالك) يملأ المدينة بأهاجٍ كانت تروج بين الناس، وكان ينظمها في النبي وأتباعه، وكانت أبياته، بما فيها من الكفر والفجور تلهم الرجال الكفرَ والنساءَ الفحشَ، فصاح محمد ذات يوم، وقد ساءه ما في ذلك الشعر من فسق وإفساد وأحنقه: «أما من رجل يخلّصني منه؟» فحمل خمسة من حرسه تلك الأمنية محمل الأمر، فتربصوا به في بعض أزقة المدينة وقتلوه لسخط النبيّ، ففرض الهلعُ الصمتَ على الناس، إذ كان دم أعدائه يسيل عند أدنى إشارة منه.

وجلبت حملاته المتتالية، وكان يقودها عليّ حينًا، وعثمان حينًا آخر، وأبو بكر حينًا ثالثًا، إلى المدينة غنائم ثمينة ممّا كانت تحمل القوافل، وفرضت الطاعة على عرب الصحراء وإن كانت منازلهم بعيدة.

ولم يلبث محمد، وقد ظل دومًا ظمئًا إلى الحبّ، أن جاوز عدد الزوجات الذي أمر به للمسلمين، فقد كان يشذ في كل شيء إذا لم يجعل نفسه مثالاً يحتذى، كانت زيجاته العديدة أيضًا معاهدات تحالف بينه وبين القبائل التي شدها إلى شرعته، وفقدت حفصة بنت عمر، تلك السنة، زوجها خنيس، فعرض عمر الأرملة على عثمان بن عفان لتكون زوجته الثانية، فتردد عثمان في قبول ذلك بسبب ما يعرف من أنفتها وعزة نفسها، فاشتكاه عمر إلى محمد، فقال له: «أتزوّجها أنا، أما عثمان فيتزوج امرأة خيرًا من حفصة، وأما حفصة فتتزوّج رجلاً خيرًا من عثمان»

وتزوّج أيضًا امرأة أخرى تدعى زينب، وقد تميّزت بإحسانها وصدقها، فلقّبت لذلك بأم المساكين.

(٧٠)

واستعادت قريش، بعد سنتين من الراحة والقرار، ما استُنزف من دمها في هزيمة بدر. فأعدت جيشًا بثلاثة آلاف مقاتل، انضم إليه مدد كثير بفضل أحلاف عقدتها مع بعض القبائل الرحّل المعادية لمحمد، بل وحتى النساء من مكة انضممن إلى الجيش ليثأرن لآبائهن وأزواجهن وإخوتهن الذين ماتوا في الحملة الأولى، وكانت أولئك النسوة تتقدمهن امرأة من قريش حسناء باسلة، تدعى (هند بنت عتبة)، يحملن في أيديهن دفوفًا أحطنها بجلاجل، وكن يهززنها وينشدن لتحميس المحاربين أراجيز حماسية ومراثي وأهازيج فرح وانتصار، وكانت هند بنت عتبة، تقسم بأن تثأر لأبيها عتبة من قاتله، حمزة عمّ النبيّ، وبأن تقتله به. وكان في العبيد عبد حبشيّ، واسمه (وحشي)، يتبع الجيش، وكان قد أقسم لهند أن حربته ستشرب من دم حمزة. فكانت هند، كلما لقيت العبد الأسود، ذكّرته بيمينه ووعدته بحسن الجزاء. وكان في الجيش أيضًا (أبو عامر) (عبد عمرو بن صيفي)، الذي كان يعرف بالراهب وكان أبيض اللحية، ترك أول الأمر دين الأوثان، ثم ارتد عن الإسلام، إذ لم يكن قوي الإيمان، فاتبع آلهة آبائه، فكان يحرّض المقاتلين من قريش على محمد ودينه. وبلغت هند، في أيام قليلة، الواحة التي قرب المدينة، وكانت واحة نخيل، فخربتها

وما بجوارها من البساتين. وكان محمد يريد انتظار جيش قريش وراء أسوار المدينة، غير أن حماسة أتباعه المسلمين حملته على إعادة النظر في قراره، فقبل أن يخرج لهم للقاء جيش قريش، ورفض نجدة يهود المدينة، وكانوا ساخطين سخط المؤمنين على الذين انتهكوا أراضيهم.

(٧١)

والتقى الجمعان غير بعيد عن المدينة. وكان جيش القرشيين أربعة أضعاف جيش المسلمين. وكانت هند ومن معها تحمّس المقاتلين من قريش على نقر الدفوف وإنشاد أبيات من الشعر، وقد حفظ لنا التاريخ ما كنّ ينشدْن في الحرب:

نحن بناتُ طارق	**نمشي على النمارقْ**
الدرّ في المخانق	**والطيب في المناطق**
إن تقبلوا نعانق	**ونفرش النمارق**
أو تدبروا نفارق	**فراق غير وامق**

أما الراهب، فإنه بعد أن خطب في جنود محمد ليستميلهم، دون طائل، ولم يلقَ منهم إلاّ الشتيمة جوابًا، طلب من مقاتليه أن يكرّوا أوّلاً، ودامت المعركة، رغم عدم تكافؤ الجيشين عددًا، واحتدّت فيها المنازعة، واخترق فرسان قريش مرات عديدة صفوف جيش المدينة لاختطاف محمد، بينما وصل أحد فرسان المدينة، وسيفه مسلول إلى حيث كانت نساء مكة، وحوّم بسيفه، وهو يقطر دمًا، فوق رأس هند وأنف أن يضربها به لأنها امرأة.

وعاد شابان أخوان من قريش، وقد طعنهما في الآن نفسه علي وحمزة، فوضعا رأسيهما ليلفظا أنفاسهما على ركبتي أمهما، وهي من جماعة هند، فسألتهما: «ولديّ، من طعنكما؟» فقالا: «حمزة وعليّ»، فقالت: «واللات، لن أشرب خمرًا إلا في قحفيهما».

وكان حمزة يواصل القتال ببسالة فيثخن في أعدائه، وإذا بذلك العبد الأسود الذي كان يترصده على مسافة منه لينجز ما وعد به هندًا، يرميه بحربته فيصيب منه مقتلاً ويرديه في الرغام، فتعرّف حمزة - وهو يحتضر - العبدَ الأسودَ الذي ثأر لهند، غير أنه

فارق الحياة دون أن يقدر على أن يثأر لنفسه. أما الراية التي كانت بيد حمزة، فقد التقطتها بطلة مسلمة تدعى (أم عمارة)، وجمعت حولها أشجع مقاتلي محمد. ولكن صاح صائح: «ألا إن محمدًا قتل» فزرع الإحباط في الصفوف. وكان محمد، بالفعل، محاطًا بجمع كثيف من فرسان قريش، يقاتل وهو على فرسه قتال الأبطال، وإذا بخندق غطاه أعداؤه بالرمل خدعة، يبتلعه فجأة هو وفرسه، فأخرجه أصحابه من الحفيرة وحموه بسيوفهم، ولكن أصابه سهم في وجهه، وشقت أحجار كانت تتهاطل عليه من أعلى الربوة، مغفره، واخترقت حربة يد أبي عبيدة إذ مدّها ليمنع الضربة عن محمد، وصاح النبي وهو يهوي ثانية تحت وطأة مجموعة من الأعداء غشيته: «من يشتري لنا نفسه؟» فأجابه ثمانية من أتباعه أو عشرة : «ها أنذا! ها أنذا!» وماتوا عند قدميه، وكان آخرهم، وهو (أبو دجانة)، يغطي بجسمه محمدًا وهو ممدد على الأرض، فيتلقى عنه في الكتفين النبال والرماح، وكان زرد المغفر قد جرح رأس النبي وانغرز في لحمه، فسلّه أبو عبيدة بأسنانه، فتكسرت ثنيتان من ثناياه دون أن يندّ عنه صراخ الم، وكان مقاتل آخر يمتصّ الدم من الجرح ليمنع السم من الاختلاط بالدم، فقال له النبي، وقد حافظ على كامل فطنته وسرعة بديهته وهو بإزاء الموت: «من خلط دمه بدمي، لن تمسسه نار جهنم».

وكانت إحدى نساء المدينة قد تبعت المسلمين لتقدم لهم الماء أثناء المعركة، فالتقطت سيفًا وجعلت تقاتل قتال الأبطال لتحمي نبيّها. فأصابها سيف قرشية فشج كتفها، وقد جرح أحد أتباع محمد الشبان واسمه (زياد بن السّكن) على الرمل، وقد أصيب بمقتل وهو ينافح عنه، فمد النبي رجله نحوه ليضع عليها رأسه وهو في سكرة الموت. فلفظ زياد أنفاسه ورأسه على رجل النبي الذي وهبه حياته دفاعًا عنه.

(٧٢)

جمّعت شواهد التضحية وأمارات التفاني والإخلاص حول القائد من المسلمين ما كان كفيلاً بحفظه من السقوط بأيدي أعدائه وبدفع القرشيين عنه، غير أن خبر سقوطه عن فرسه وموته تفشى بين من بقي من مقاتليه فروّعهم وأرهقهم.

كان أبو بكر وعلي وعمر وعثمان - وقد انفصلوا عن النبي بسبب المعمعة واجتمعوا على ربوة - يتحدثون في الأمر وقد ترقرق الدمع في أعينهم لفقد سيدهم. فبصر بهم شاب من المدينة، هو (أنس بن النَّضِر)، فصاح بهم: «ما بكم هناك ساكنون؟»، فقالوا: «قتل محمد، فلمن نقاتل؟» فقال ابن النضر: «إن كان قُتل، أفليس عارًا أن نحيا بعده، هلموا وموتوا على ما مات عليه!»

فألقوا بأنفسهم ثانية في خضم المعركة حتى يجتمع دمهم إلى دم النبي، ولكنهم وجدوه حيّاً، فأوسعوا له بين فرسان الأعداء وانثنوا إلى شِعب أُحد، ثم إن محمدًا، وقد كف دم جراحه عن السيلان، ركب فرسه ثانية ورجع إلى مدخل الشعب فقتل بطعنة من رمحه في النحر أول قرشي أراد اجتياز الشعب. فانضم إليه المسلمون وقد دبت الحياة فيهم ثانية لحضرته بينهم ولدفاعه عنهم بيده، واجتمعوا على جانبي الشعب فكان الأعداء يشتمونهم دون أن يجرؤوا على الاقتراب منهم، وأتى عليّ بماء وقع عليه في وقبةٍ[1] بصخرة فجاء بشيء منه في درقته ليغسل الدم والغبار من وجه أبيه الثاني.

وانتشرت، أثناء توقف القتال، هند ونساء قريش - وقد انتصروا - انتشار السحليات، على ساحة المعركة ليشفين ما كان بأنفسهن من غل الثأر الذي اقسمن عليه لأرواح موتاهن من الآباء والأزواج، فلقين سبعين جثة من المسلمين على الأرض، فسلبنها ومثلن بها، وكانت هند الشرسة الضارية تبحث عن جثة قاتل أبيها، حمزة الذي قتل هو بدوره برمية من (وحشي)، العبد الأسود، فاكتشفت الجثة فانقضت عليها وفتحت الصدر بضربة سيف وانتزعت القلب ومزقته بأسنانها، ثم نزعت من صدرها ومن رجليها ومعصميها عقودها وأساورها وحليها وأعطتها للعبد الحبشي ثم اتخذت من آذان الموتى عقدًا وأسورة.

(٧٣)

وبعد هذه المعركة التي ثار فيها أهل قريش من المسلمين، جمع أبو سفيان - قائد القرشيين - جنده، وقد رأى أن المسلمين قد صاروا إلى موقع حصين، وعزم على الرجوع إلى مكة ظافرًا، فكان - وهو يسير في سفح الجبل - يشتم المهزومين بأعلى صوته،

(١) وقبة: الوقبة هي نقرةٌ في الصخر يجتمع فيها الماء. (ج) وَقَبات.

ويصيح متحديًا عمر وأبا بكر: «النصر لآلهتنا» فكان جيش محمد يردّ عليه: «النصر لله الحق الذي سيخزي المشركين» فقال أبو سفيان: «يا عمر، أنشدك الله، أقتلنا محمدًا» فقال عمر: «إنه حيّ، وإنه يسمع ما تقول».

(٧٤)

أما محمد، فإنه نزل - بعد ذهاب أهل قريش - إلى السهل ليبكي موتاه ويدفنهم. وحينما اقترب من جثة عمه حمزة، وقد شوهتها هند ومثلت بها، تملكه الهلع. وقال: «لو لم أكن أخاف أن أُحزن أمه صفية وأولها، لتركته هناك، شاهدًا على كفر المشركين، إلى أن تكون أحشاء النسور قبره، وإذا ما يسّر لي الله يومًا أن أنتصر على قريش، لأمثلنّ بثلاثين منهم انتقامًا لحمزة»

غير أنه لم يلبث أن ندم على ما بدر منه من رد فعل فيه من الغيظ وحب الانتقام ما لا يتجاوز ما يعرو الإنسان في مثل ذلك الموقف، فتدارك أمره وقال: «لا، فلئن كان يحق للمسلمين أن يصنعوا بأعدائهم ما يصنعونه هم بهم، فإن فضلهم هو في احتمال ما يصيبهم من أعدائهم في شهامة وسمو نفس ودون نزوع إلى الثأر» وحرّم التمثيل بالقتلى .

فلفّ بثوبه جثة حمزة، وأقام جنازته بنفسه، ثم وقف على قبره وقال: «أي حمزة، ما فقدت قط صديقًا مثلك» وأسرعت نساء المدينة يبكين آباءهن وأزواجهن وأبناءهن، وأردن احتمال جثثهم لدفنها بالمدينة، فقال: «لا، بل ادفنوا الموتى حيث صُرعوا، ولا تغسلوا دم جراحهم، فإنهم يبعثون يوم القيامة بهذا الدم، وستضوع جراحهم طيبًا، وسأشهد لهم أنا نفسي»

ولقيت إحدى النسوة الجيش المهزوم يدخل المدينة، فسألت الجنود: «أين أبي» فقيل لها: «قد قتل» فقالت: «وزوجي» فقيل لها: «قتل أيضًا» فقالت: «و أبي؟» فقيل لها: «قُتل معهما» فقالت: «ومحمد؟» فقال لها الجنود: «هو ذا حيّ يرزق» فقالت مخاطبة النبي: «إذن، بما أنك ما تزال على قيد الحياة، فليست مصائبنا بشيء»

كان ذلك الحماس مما يبعث في نفسه أمل الثأر من هزيمته، وبدا عليه أنه أحسّ بالحزن مما لقي أكثر مما أحس بالإذلال، وحينما مرّ أمام بعض بيوت المدينة كان يسمع منه بكاء النساء حزنًا على موت أزواجهن، قال، وقد انسكبت دموعه: «يا لحمزة، ما من امرأة تبكيه».

(٧٥)

وبعد أن خصّص محمد يومين للحزن والأسى، دعا المسلمين إلى أن يحملوا السلاح، حتى لا يقعوا مدة طويلة تحت وطأة هزيمة تثبطهم، فاقتفوا أثر جيش قريش بعدة أقوى وعدد أكبر، كما لو كانوا هم الذين انتصروا، ولم يجرؤ أبو سفيان على العودة إلى مقابلة جيش المسلمين. فكانت هيبة النصر وألقه لمحمّد، وجال بجيشه في الجزيرة بحرية في حملات توصل من خلالها إلى فرض عقيدته وإلى إقامة أحلاف مع قبائل عديدة.

وسنُعرض عن تفصيل الحديث في تلك الفتوح التي كانت على مهل ولكن باستمرار حتى صار نصف العرب – شيئًا فشيئًا – تحت سيطرته، إذ إن ذلك الحديث حديث عن الفتح أكثر مما هو حديث عن الرجل. فلنعد إلى الحديث عن الرجل.

لم تنل هزيمته في جبل أحد من سلطته النبوية في المدينة، فواصل الإعلان عن أوامر القرآن ونواهيه واحدًا واحدًا، وكان صيته قد ذاع وسارت به الركبان في الصحراء كما ذاعت التعاليم التي يدعو إليها، فاجتذب ذلك شيوخ قبائل الجزيرة إلى المدينة، فكان يتحدث معهم، ويبهرهم بفصاحته وبلاغته، ويعقد مع قبائلهم معاهدات سلم وصداقة، ولم يعد حينئذٍ يفرض دينه وإنما ينصح باتّباعه، تاركًا لكلّ منهم حرية أن يعتنقه أو أن يظل على دين آبائه، ذلك أنه كان على علم – لكونه فيلسوفًا و رجل سياسة – أن البذرة إذا زرعت أنتشت في تلك الأرض ونبتت، وأن ذلك الدين المظفر سيكون دين الكثرة الكثيرة، إن عاجلاً أو آجلاً.

وحينما تهدّده خطر الحصار في المدينة، حصار ضربه عليه حلفاء قريش، عزّز عاصمته بأن حفر حولها خندقًا نُحت في الصخر، وكان حاضرًا بين أهل المدينة وهم

يحفرون الخندق يشجعهم ويحفز هممهم ويشاركهم العمل في استكمال تحصينه دون إبطاء، وأخذ المعول يومًا وأهوى - هو بنفسه - على الصخرة، فتطايرت منه ثلاث شرارات، فقال له من كان حوله: «ماذا تعني هذه الشرارات الثلاث؟»

فقال في لهجة ملهم قادر على أن يرى المستقبل: «تنبئني الشرارة الأولى بفتح الجزيرة العربية، وتنبئني الثانية بفتح الشام والغرب، وتنبئني الثالثة بافتتاح الشرق كله»[1]

وأحاط بسور المدينة عشرة آلاف من المتحالفين مع قريش، ودام الحصار مدّة طويلة ولكنه كان دون خطر على المدينة. وتميّز علي أثناء الحصار بمنازلته فرسان قريش تحت السور، وثارت أثناءه (صفية)، أمّ حمزة، لابنها[1]، فقد كانت في بيت الشاعر حسّان، فلمحت وهي على سطح البيت، محاربًا من الأعداء يجوس تحت السور، فقالت لمضيّفها: «اذهب إلى ذلك العدو فاقتله» فقال لها: «سامحك الله يا ابنة عبدالمطلب، أنت تعرفين أني لست رجل حرب» فأخذت صفية سيفه، ونزلت إلى السهل تحت السور، وقتلت ذلك المحارب، وشفت بدمه دم ابنها حمزة.

ولم تلبث حيل شيخ، بدوي طاعن في السن، ومكره، وكان محمد يستخدمه مفاوضًا غير رسمي لدى شيوخ القبائل المتحالفة ضده، أن أفسدت ذلك التحالف وكسرته، كان الخريف على وشك أن ينتهي، والشتاء مقبلاً، فأشاع حلفاء النبي: «لم يعد من الممكن أن نمكث ها هنا، فالمطر يطفئ نارنا، والريح تمزق خيامنا، والرمال التي تسفيها الرياح تلوث قدورنا، وينبغي أن نرحل»، فجعلت القبائل ترحل الواحدة تلو الأخرى، عند سماعها ذلك، وفك أهل قريش الحصار وقد انفضّ عنهم حلفاؤهم.

---

(١) قال ابن إسحاق: وحُدِّثت عن سَلْمان الفارسيّ انه قال: «ضربت في ناحية من الخندق، فغلُظت عليّ صخرةٌ، ورسولُ الله ﷺ قريب مني، فلما رآني اضرب ورأى شدةَ المكان عليَّ، نزل فأخذ المِعْول من يدي، فضرب به ضربةً لَمَت تحت المِعْول برقةٌ؛ قال: ثم ضرب به ضربة اخرى، فلمعت تحته برقة اخرى؛ قال: ثم ضرب به الثالثة؛ فلَمعت تحته برقة أخرى. قال: قلت: بأبي انت وامي يا رسول الله! ما هذا الذي رايتُ لَمَع تحت المعول وانت تضرب؟ قال: اوَقَد رايت ذلك يا سَلْمان؟ قال: قلت: نعم؛ قال: اما الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، واما الثانية فإن الله فتح عليَّ الشام والمغرب، واما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق.

قال ابن إسحاق: وحدّثني من لا اتهم عن ابي هُريرة انه كان يقول، حين فُتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم، فو الذي نفسُ ابي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تَفتَتِحونا إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً مفاتيحَها قبل ذلك.، السيرة النبوية، ج٣ ، ص ٢٤٢، مصدر سابق.

(٢) هي صفية بنت عبدالمطلب (اخت حمزة لا امه). انظر: سيرة ابن هشام - ج ٣ ص ٤٦.

فقال محمد وهو ينظر إليهم مولّين: «إنها المرة الأخيرة التي يرون فيها أسوار المدينة، وسيكون الأمر لنا نحن في قادم الأيام - لنحمل عليهم»

وبدأ حملته بتأديب أهل قرية قريبة من المدينة[1] نقضت عهدها الذي قطعته معه، فأرسل إليهم أول الأمر رجلاً يفاوضهم يدعى (أبا لبابة بن عبد المنذر)، يوهمهم ويلوّح لهم بأمل كاذب في العفو عنهم، فقال له شيوخ القبيلة ونساؤها: «أتنصحنا أن نطمئنّ على حياتنا وحياة أولادنا بأن نثق بوعد النبيّ؟» فقال رسول محمد: «نعم». غير أنه، وقد حزّ في نفسه، في الآن ذاته، ما ستلقى تلك الأسر من مصير محتوم، أراد أن يشير بعلامة خرساء إلى مآلٍ هو نقيض ما ذكر في كلامه، فمرّ بيده على رقبته في حركة سيف يجز الرؤوس.

فأدركت القبيلة مغزى الحركة ولم تثق بما سمعت من كلام، ففرّت أثناء الليل، فلم يتمكن النبيّ من تنفيذ ما أعد من عقوبة، ولكن (أبا لبابة)، ما إن أنقذ حياة أولئك الذين كان محمد يطلب تأديبهم، حتى ندم على ما فرط منه من رفق بهم ورحمة، وعزم على أن يعاقب نفسه على ما اقترف، فعاد إلى المدينة، وربط نفسه إلى إحدى سواري المسجد بحبل من الوبر، واعترف، بأعلى صوته بما أتى من حيلة وأقسم ليمسكنّ عن الأكل إمساكًا تاماً حتى يغفر له النبيّ زلته. فعفا عنه محمد وفك وثاقه من السارية، وقد تأثر لصنيعه، ولكنه من غد، بعد أن ظفر بعض قواده بقبيلة أخرى انضمّت إلى تحالف قريش. أمر بأن يحفر خندق واسع في ساحة الحيّ، ودفن فيها سبعمائة جثة قتيل منها، جزاء نكثها العهد، وقسّم بين المسلمين أسلحة تلك القبيلة الثرية وأسلابها وماشيتها.

كان لكل جندي من الرجالة نصيب ولكل فارس ثلاثة أنصباء. فقد كان الفرسان في تلك البقاع المترامية الأطراف، قوام الحرب. وكان محمد يريد أن يتكاثر عدد الفرسان في جيشه، فجعل لتربية الخيول الأصيلة جوائز ومراتب سنية، وأقرّ سباق الخيل، وأمر بحفظ أنساب الخيل الأصيلة وسلالاتها، وركز كذلك حلبات تتسابق فيها النوق ويبدو فيها نبل أرومتها، وقد هُزمت ذات يوم ناقة له، تُعرف بالعضباء، هزمتها ناقة أعرابي، فاحمرّ وجهه خجلاً، كأنه مالك إبل مجده وشرفه معلّقان بسمعة بعيره أو ناقته.

وأثبت محمد، بعد أيام، رفقه ورحمته بأعدائه المكّيين: كانت مكة، وقد ضيق عليها الحصار جيش من المسلمين، تكاد تهلك جوعًا، فكتب إلى قائد الجيش الذي جوّع قريشًا:

---

(١) هم قبيلة بنو قريظة.

«دع المؤن تصل إلى بني قومي». كانت المدينة التي وُلد فيها تحتل من قلبه منزلة مهمّة، وهي ما تزال حينئذٍ تضم أقاربه وأتباعه الذين لم يجهروا باعتناق دينه، ولم يكن يريد أن يأخذ الأبرياء بجريرة الظالمين. فانطلق على رأس مائتي فارس، ليسهر على تنفيذ ما أمر به، وحينما وصل إلى الموضع الذي فقد فيه أمه، نزل إجلالاً لذكراها، وصلّى وبكى على قبر آمنة، ثم نهض فجأة في جهد كأن حماسه الديني قد دفع الطبع الذي في نفسه، وقال: «لا، لا يحق للنبي و لا للمؤمنين أن يسألوا الله رحمته بمن كانوا يعبدون رسومًا لا تغنيهم نفعًا». لقد كان في ذلك تعليق قاس على نفسه، ولكنه يشهد، مع ذلك، على إخلاصه وشدة حماسه لدينه.

(٧٦)

ولما غادر قبر أمه، أسرعت نحوه امرأة بدوية كانت تركب بعيرًا، وقالت له: «إن الأعداء استحوذوا على ماشيتي. وكنت أرعاها في بعض المواضع، فركبت هذا البعير ونذرت أن أنحره لله أمامك إن أنا نجوت منهم بسرعة عَدْوه، وها أنذا جئت لأفي بنذري» فقال لها النبي وهو يبتسم: «ألا تجدين في نذرك نكران جميل الدابة التي تدينين لها بحياتك؟، إن نذرك لاغٍ غير مقبول، لأنه قائم على الحيف، فالدابة التي نذرت لي لم تعد ملكك، فهي لي، وأنا ائتمنتك عليها، فاذهبي لمواساة أهلك وذويك».

(٧٧)

يرجع تاريخ صلاته الأولى مع إمبراطور الروم في الشرق، هرقل، الذي كان يحكم بيزنطة، إلى هذه الفترة. فقد أرسل إلى هذا الامبراطور سفراء لإبرام معاهدة تجارة مع أهل الشام الذين كانوا – عندئذٍ – خاضعين لسلطة الروم. وحين تمت مهاجمة قوافله العائدة من الشام إلى المدينة، أخذ (زيد) – وكان أحد قواده – بثأرها، على رأس خمسمائة فارس مسلم. وجرح (زيد) في تلك الحملة فأخذه أصحابه إلى المدينة، غير أنه عاد يقود قبائل كاملة أسرها في الحملة وأتى بها لتباع بسوق المدينة، وسمع محمد، وهو في بيته بين نسائه، بكاء النساء والأطفال يُفصلون بعضهم عن بعض ليُباعوا فرادى، على ما يهوَى المشترون، ورغم أن تشريعه لم يمنع الرقّ، والرقّ خضوع طبقة لأخرى، وهو عادة قديمة قدم الأعراف الحربية والرعوية لدى الأجداد الأُول، فقد كان يميل إلى الحدّ منه وإلى

جعله ضربًا من الأبوة والولاية القانونية اللتين تجعلان العبد في الشرق مولًى بإرادته أكثر مما هو ملك لأسرة. فرقّ قلبه لما سيلقى أولئك الضحايا من مصير، ومنع أن يفصل الأطفال عن أمهاتهم، والنساء عن أزواجهن، إذا ما بيعت أسر محدودة العدد.

كانت إحدى السبايا، ممن سبى عليّ بعد تلك الفترة بقليل، ابنة شيخ موسر، وكانت ذائعة الصيت بين القبائل لحسنها الفائق ومواهبها، فاتفقت مع عليّ، سيدها ومالكها على أن يعتقها مقابل مبلغ ضخم من المال، ولما لم تتمكن أن تجمع – وهي في المدينة – مقدار المال اللازم لاستعادة حريتها، ذهبت إلى محمد مستعطفة متوسلة ليقرضها ما كان ينقصها من المال. فانبهر محمد بمحاسن خلقتها، وعرض عليها أن يعتقها من ماله الخاص، وأن يتخذها زوجة، فقبلت. فأيقن عرب المدينة أن كل أسرى قبيلتها وسباياها سيشملهم عطف النبي وستكون لهم منزلة من قلبه، فسارعوا إلى عتقهم جميعًا.

(٧٨)

وكانت عائشة بنت أبي بكر – أثناء ذلك – زوجته المفضلة، وقد وُهبت أفضل ما كان العرب يحبون في المرأة من محاسن الفكر والروح ومن أناقة الجسد، وغيرها من الصفات الجمالية التي يتغنى بها شعراؤهم. وكانت تسود بيتها سيادة البنت بقدر ما هي سيادة الزوجة، وكانت أيضًا سيدة قلبه لما كان لنبوغها الطبيعي من مدى ومن سداد، نبوغ هذّبته منذ الطفولة عبقرية محمد وبلاغته وفصاحته، فقد كانت صاحبة مشورته بقدر ما كانت حبيبته، وكان هو يجد فيها كل ما ينشد الأب في ابنته، والزوج في زوجته، والملهم في تابعه. وتشهد الأخبار وما أفضت به من خواطر وما ذكرته هي نفسها بعد وفاة محمد عن حياتها معه وسجله التاريخ، تشهد على أن كل ما كان في فكر عائشة وفي قلبها حريّ بأن يجعل منها امرأة حقيقة بأن تأسر قلب أعظم رجل في عصره. وما من حظية من حظيات ملوك العصر الحديث شرقًا وغربًا، إذا استثنينا (روكسا زوجة الإسكندر المقدوني) تبدو لنا قد برّرت بما لها من حسن يفوق حسن عائشة ومن فتنة تفوق فتنتها، سلطانها على قلب من كانت سبية حبّه. غير أنه عرض حادث كان كالغيمة عكرت صفو تلك السعادة أيامًا وألقت الحزن في نفس محمّد، والريبة في وفاء زوجته المفضلة. وإليك خبر ما خفي من ظروف تلك الحادثة، وقد روتها عائشة نفسها.

حدّثت عائشة قالت: «حين كان نبي الله يخرج من المدينة في حملة على أعدائه، أو يخرج في سفر، كان يصطحب إحدى زوجاته. وكانت تتبعه برفقة بعض جواريها، وهي على هودج» (وما زالت نساء العرب والعثمانيين يسافرن على هذا النحو في الصحراء إلى الآن)[١] «وشاء الحظ أن أكون أنا، في غزوة النبي التي حمل فيها على الكافر (عبدالله بن أبيّ)، وكنت، إذا انطلقنا، في الليل أو في النهار، أخرج من خيمتي، وأتخفّى، على ما جرى به أمر النبي، عن أنظار الرجال، وأتمدد في محفتي، فيحملها عبدان ويوثقانها إلى أحد جنبي البعير، وتعدل محفة أخرى تركبها امرأة من وصيفاتي، محفتي على جَنب البعير الآخر، ولم أكن ثقيلة المحمل، إذ كنت رقيقة العود خفيفة الوزن لشبابي الغض ولتحفظي غاية التحفظ في الأكل، وقد كان ذلك من الخصال التي تشترك فيها جميع نساء جزيرة العرب تقريبًا.

«ولما كان في طريق العودة من تلك الغزوة، وكان الجيش قريبًا من المرحلة الأخيرة قبل بلوغ المدينة توقفنا عند انقضاء النهار وضربنا الخيام لنستريح شطرًا من الليل. وقبل طلوع النهار، أمر النبيّ بالرحيل، وبينما كان الجيش يسير على إثره، وكانت الخيام تُطوى والأمتعة تجمع، ضربت وحيدة في الخلاء فترة، ولما عدت إلى خيمتي، تفطنت إلى أني قد أضعت عقدًا فيه جزْع ظفار، انفرط فانسلّ من عنقي خلال نزهتي. فرجعت أدراجي حالاً، أبحث عنه في الرمال، وأمضيت في البحث عنه زمنًا، وحين وجدته عدت آخر الأمر أجري إلى مضرب الخيام، ولكن الجيش ارتحل، وخيمتي رُفعت، وبعيري مضى، أما العبدان المكلفان بمحفتي، فقد رفعاها وشداها إلى جنب الجمل دون أن يتبيّنا - لخفتها - أنني لم أكن فيها، وحينما وصلت، لم يكن بالمكان أحد، فتلفّفت بجلبابي وقد ذهلت وفزعت، وجلست على الأرض آملة أن لا يلبث من معي أن يتفطنوا إلى غيبتي، فيهرعون للبحث عنّي. ولكن لم يحدث شيء من ذلك، وواصلوا السير دون أن يتطرق إليهم شك في أمر المحفة.

(١) إلى الآن: أي الوقت الذي يكتب فيه لامارتين هذا الكتاب. (المراجع).

وبينما كنت على تلك الحال، متحرّقة أنتظر، مرّ بي (صفوان بن المعطّل السلّمي)، راكبًا بعيره. فعرفني، وكان قد رآني مرات كثيرة في منزل النبي، قبل أن يكون في القرآن تحريم رؤية نساء النبي، فسبّح الله متعجبًا وقال: «أيكون هذا؟ هذه زوجة النبي». «فنزل عن جمله وأناخه أمامي ورجا مني أن أركب بدله، فأقسمت عليه ألاّ يزيد كلمة. فتنحى جانبًا، إجلالاً لمنزلتي، بينما امتطيت أنا بعيره، ثم أخذ رسن مقود الدابة ومشى أمامها في صمت. ولم نستطع اللحاق بالجيش إلاّ عند رأد الضحى، حينما توقف القوم. ولما رآنا الناس قد جئنا معًا، ظنوا بنا الظنون وتهامسوا وغمزوا بنا، وفشا اللغط بثلبنا بين الناس في العسكر، حتى بلغ أذني النبيّ. وإثر العودة إلى المدينة، اعتلّت صحتي من التعب ومن أثر الافتراء في نفسي ولاحظت أن النبي لم يعد يبدي ما اعتاد أن يبدي من رفق بصحتي إذا مرضت. فإذا دخل غرفتي، اكتفى بمخاطبة أمي، وكانت ترعاني وتقوم عليّ بشأني، دون أن يكلمني، فيسألها: «كيف حال ابنتك»، فآذتني برودته تلك التي لم أتعوّدها منه، فقلت له يومًا: «يا رسول الله، إني أود، إن أذنت لي، أن أتداوى في بيت والديّ» فقال: «لك ذلك، على الرحب والسعة» فنقلت إلى بيت أمّي.

فبقيت هناك ثلاثة أسابيع دون أن أرى النبيّ، وذات يوم، وقد برئت من علّتي، جاءت إحدى صاحباتي تزورني، فجعلنا نتناول أطراف الحديث وإذا بها تقطع كلامها فجأة وتصيح قائلة: «لعن الله الساعين بالإفك» فقلت: «ماذا تقصدين بقولك هذا؟» فحدثتني بما كان يدور من شائعات حول لقائي بصفوان، وردّه إلى علاقة مشبوهة بيننا. فاحتقن وجهي، وأجهشت بالبكاء ونهضت فأسرعت إلى أمي، وقلت لها: «سامحك الله! أيمزق الناس عرضي وتدعينني على جهل تام بذلك؟» فقالت أمي: «اهدئي يا ابنتي! فقلّ ما تنجو امرأة شابة، حسناء، يتعشقها زوجها، وتنافسها على قلبه المنافسات، من الاغتياب».

وبلغت الشائعات عني وعن صفوان بالغيبة في المدينة مبلغًا جعل النبي، وقد أحزنه ما في ذلك اللفظ من ثلب، يصعد المنبر في المسجد يومًا ويدفع عنا التهم ويبرئ ساحتنا ساخطًا على من يغتابون بعض أهل بيته ممن كان له منزلة خاصة في قلبه، ومحاربًا باسلاً ما لقي منه إلاّ الطاعة والتفاني.

غير أن تلك الكلمات لم تزد الشائعات إلاّ انتشارًا، وإن تبرّأ بعض الناس منها ونسبوها إلى بعضهم الآخر. فأشار عليٌّ على النبيّ فأمر بإحضار جاريتي ليسألها عن سيرتي وسلوكي، فأقسمت أني كنت عفيفة، رغم أنّ عليّاً كان يضربها ليُكرهها على أن تشهد عليّ قسرًا. وعندئذٍ زارني النبيّ وقد اطمأن خاطره.

فوجدني أبكي، وكنت صحبة أبي وأمي وامرأة من صديقاتي، وهم لا يقدرون على مواساتي. فجلس بجانبي وقال: «قد بلغك، يا عائشة ما شاع عنك، فإن كنت أذنبت فاعترفي لي بذنبك بقلب تائب، فإن الله حليم يغفر عند التوبة».

فمنعني النحيب فترة طويلة من الإجابة، وكنت آمل أن أرى أبي وأمي يجيبان عني، ولكني حينما رأيت أنهما بقيا على صمتهما، تحاملت على نفسي تحاملاً، وقلت: «لم آت أي أمر شنيع ينبغي لي أن أتوب عنه» ولو اتهمت نفسي، لخنت ضميري، غير أني، من وجه آخر، مهما اجتهدت في إنكار ما اتّهمت به، فلن يصدّق الناس، وسأقول قول ...» وتوقفت عن الكلام برهة. ذلك أن ما كنت عليه من الاضطراب أضاع من ذاكرتي اسم النبي يعقوب فظللت أطلبه فيها دون طائل، فاستأنفت ما انقطع من حديثي وقلت: «سأقول قول والد يوسف: «فصبر جميل والله المستعان».

وفي تلك اللحظة، جاءت النبي – وقد تأثر أيما تأثر لكلامي – تلك الغشية التي يتلقى خلالها الوحي من السماء، فوضعت وسادة تحت رأسه وظللت أنتظر دون قلق أن يفيق، وأنا واثقة من أن السماء ستطهّرني من خلال الوحي، ولكن أبي وأمي، وكانا دوني يقينًا من براءتي، كانا في حال من التلهف لا توصف. انتظارًا لنهاية غيبوبة النبي ولكلمته الأولى إثر ذلك، حتى ظننت أن الهلع سيقتلهما.

«وعاد النبي – آخر الأمر – إلى وعيه، فمسح جبينه وقد غمره العرق، رغم أننا كنا عندئذ في فصل الشتاء، وقال: «أبشري يا عائشة، قد جاء الوحي ببراءتك» فصحت قائلة: «الحمد لله!» أما النبي فخرج من البيت على الفور وذهب يقرأ الآية التي تشهد ببراءتي».

إن تبرئة ساحة عائشة على ما ذكرنا، وقد أوحيت قرآنًا نزل على محمد، تشهد بحبه الجارف لزوجته المفضلة، وسنرى دليلاً آخر على ذلك عندما تحضره المنية. وأسكتت عودة عائشة إلى بيت النبي الشائعات التي كانت تنال من عرضها، وأنشد شاعر المدينة حسان - بعد أن نظم أبياتا شائنة - أبياتًا أخرى يمجد فيها عائشة، سعيًا منه إلى الظفر بعفو النبي. ومن هذه القصيدة:

حَصانٌ رزانٌ ما تزنّ بريبةٍ

وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ

(٨٠)

قرّر محمد - بعد أن ظهر، هو نفسه أو بواسطة قواد جيشه، على جميع قبائل الحجاز - أن يعدّ العدّة حتى تبلغ عقيدته مكة وذلك بزيارة مظفرة إلى الكعبة، وقد تجلّى بعد نظره في السياسة الدينية كأفضل ما يكون التجلي في تلك الخطة: فلو كان يريد ألا يكون إلاّ غازيًا، لسار إلى الكعبة ودخلها دخول القائد الظافر، لا دخول صاحب دعوة دينيّة، فقد غدا له حينئذٍ من قوة السلاح وكثرة المال وعدد المقاتلين، والأحلاف في جزيرة العرب كلها ما يتيح له غزو بلده أو حتى محوه من الأرض، خاصة أنّ للمدينة - بلده الذي احتضنه - من الأمجاد ما يخوّل لها أن تكون عاصمته.

ولم يكن أهل قريش - وقد انهزموا أو تفرّقوا - قادرين على الوقوف أمام ذاك الذي طردوه واعتنق نصف العرب مذهبه. ولكن محمدًا، وإن كان بيده أن يطردهم وأن يقضي عليهم آثر أن يهاودهم، فقد أدرك - وهو على حق - أن من يقضي على مكة - وهي مدينة مقدسة - ومن يقوض الكعبة - وهي معبد ذرية إبراهيم جميعًا، يمكن أن يكون المسيطر المستبد، ولكنه لن يكون ألبتة نبي العرب.

كان ينبغي للأفكار والمبادئ التي كان محمد ينوي إقرارها في جزيرة العرب، أن تكون على صلة بما استقر في أعراف بني قومه، حتى يقبلوها ويأخذوا بها.

فقد قبل من أعرافهم البيت، وطرد منها الوثن.

تلك كانت فكرة محمد التي سار على هديها في معاهدته مع قريش، وقد أرهقتهم مكافحته، وفي الحج العسكري الديني الذي قرّر أن يقوده بنفسه إلى مكة. كان أتباعه في ذلك، من الكفار المتحالفين معه ومن المسلمين المؤمنين، يمثلون في الآن نفسه جيشًا وشعبًا. كانوا ألفين من المسلمين في أسلحتهم يركبون الخيل، واثني عشر ألفا من عرب المدينة والصحراء، وقافلة لا يُحصى عددها من الإبل المجلّلة بالأفنان والزهور، والمحمّلة بهدايا ثمينة للكعبة، وحين بلغوا مشارف مكة. خرج إليهم بعض المقاتلين من قريش ممّن استبد بهم حقدهم، رغم تحذير غالبية بني قومهم من مغبة ذلك، وأرادوا أن يمنعوا محمدًا عن أبواب مكة، فتوقف بعيره وبرك تلقاء نفسه عند رؤية السور. فعجب الذين كانوا معه من ذلك، وتساءلوا: «أحرون جمله؟» فقال النبي: «لا، ما هو بالحرون، ولكنه أحسّ بيد خفية تصدّه، هي اليد الخفية التي صدّت في ما مضى فيل ملك الأحباش حينما نوى أن يطأ أرض مكة، فلنتوقف هنا.»

وفاوض محمد – من ذلك المكان – القرشيين على دخوله بحريّة إلى المدينة المقدسة، وأخذت الدهشة المفاوضين القرشيين لما رأوا من آيات الاحترام والإجلال التي كان يبديها العرب – مسلمين كانوا أم كفارًا – لابن جلدتهم الذي أخرجوه من بلدهم ورأوا فيه مجنونًا يسب الآلهة.

فقد كان الناس يجمعون الماء الذي يغسل به وجهه ويديه، وكانوا ينافسون الريح في الشعرة تقع من رأسه، ويحملون الرمل الذي انطبع فيه أثر قدميه، فقال (عروة بن مسعود الثقفي) وهو من وفد قريش، عند عودته إلى مكة: «لقد زرت قصر هرقل، إمبراطور الروم وحاشيته، وزرت ملك الفرس الأعظم وحاشيته في عاصمته، ولكني لم أر قط ملكًا تجله رعيّته إجلال أتباع محمد نبيّهم»

ورغم تململ جيشه وتهامس جنده، إذ لم يفقهوا لحلمه سببًا، فإنه أبرم عهدًا مع قريش يكاد لا يخلو من إذلال له، فقال له عمر وعلي وأبو بكر: «لم وضعت من شأن ديننا المظفر بتنازلات فيها هوان لنا أمام الكافرين؟»

فرد محمد على ذلك التململ والتهامس بقوله: «أنا عبد الله وخادمه، أطيع ما يوحى به إليّ، ولن يضيّعني»

أبرم مع قريش هدْنة بعشر سنين[١]، وكان في ذلك شبيهًا بالملك هنري الرابع عند دخوله مدينة باريس، إذ بدا كأنه يعامل المهزومين على أنهم منتصرون، والمنتصرين كأنهم مهزومون، ولم يكن انتصاره - سلمًا - على مكة إلاّ استعراضًا مهيبًا لجنده، وهم يمرون تحت سور الكعبة وأمام بني قومه وهم ينظرون إليهم مبهورين.

ولم يزعزع تململ جنوده المتزايد ما اختط من هدف كان في الآن نفسه سياسيًا ونابعًا من كرم النفس.

فقال لهم: «لست نبي قومي، وإنما أنا نبي العرب ونبي جميع الذين سيكونون مؤمنين في الأرض»

ولم يدخل هذه المرة المدينة المقدسة، مراعاة للأعراف والعادات، فرجع إلى المدينة دون أن يسل السيف، وأفاد من السلم مع قريش فزاد في نشر عقيدته بأن أرسل مبعوثين في كل الممالك المحيطة بجزيرة العرب.

فمزق ملك الفرس بازدراء الكتاب الذي يدعوه فيه محمد إلى الإيمان بالله الواحد، وقال وقد شعر بالمهانة من نعت محمد نفسه برسول الله: «أكذا يخاطبني رجل هو من عبيدي؟» وحينما علم محمد بذلك الجواب صاح قائلاً: «مزق الله ملكه كما مزق رسالتي»، ولم يمض وقت طويل حتى حلت بملكه اللعنة، على يد علي!

أما ملك الحبشة، فقد عامل رسل محمد إليه باحترام، فالشبهُ الظاهر بين الإسلام والنصرانية جعله يخلط بين الديانتين، ويقبل التحالف مع محمد.

وأما أمير الأقباط، وكان وقتئذٍ يحكم مصر المستقلة ونصف أهلها من النصارى، فقد استقبل سفراء محمد على أنهم سفراء قوة ناشئة قد تساعده على مقاومة الروم، فعاهده معاهدة الصديق، وأرسل إليه هدية فرسًا أصيلاً، وبغلة بيضاء شهيرة بحدسها، واسمها

(١) هو صلح الحديبية الذي تم في العام السادس من الهجرة الشريفة. (المراجع).

(دلدل)، ركبها النبي إلى وفاته، وبنتين من أشراف القبط، تدعى إحداهما (سيرين)، وقد زوّجها محمد لشاعر المدينة الشهير حسّان، وتزوّج هو الثانية وكانت فائقة الحسن، اسمها (مارية) وتلقب بالقبطية، وقد هام بها هيامًا جرف أحيانًا كثيرة عرش عائشة في قلبه.

وبعد ذلك بزمن يسير، استسلمت بعض القرى المحصنة من جزء الجزيرة الشامي، تحت ضربات جنوده، فتزوج أميرة أخرى سبيت في المعركة، وكانت تدعى (صفية بنت حُيَيّ بن أخطب)، وكان محاربوه يتنافسون عليها لحسنها، فلجأوا إليه ليحكم بينهم في أمرها، فألقى رداءه على السبية واختص بها. غير أن نصره ذاك كاد يكلفه حياته: فقد أعدت له إحدى السبايا - واسمها (زينب بنت الحارث الخيبرية) وليمة جعلت فيها نعجة مسمومة، فدفع قطعة اللحم عن شفتيه بعد أن ذاقها، بينما مات أحد أتباعه عند قدميه، وقد أكل منها قبله، فاستبان السم في الدابة. فقال لزينب: «ويحك، ما دفعك إلى هذا الصنيع» فقالت: «قد قهرت قومي وقضيت عليهم، فأردت أن أثأر لهم منك إن لم تكن إلا غازيًا عاديًا، أو أعتنق شريعتك إذا أوحت لك السماء بالخطر» فنالت زينب عفوه لهذا الاختبار الذي أيّد موهبة الوحي والإلهام في النبي.

(٨٢)

حمل اتساع سلطان محمد واشتداد أمره في جزيرة العرب، هرقل، امبراطور الروم، على أن يستقبل سفراء النبي بكياسة ورعاية، حين جاء الشام لزيارة بيت المقدس. فوضع رسالة محمد على مخدة من الحرير المقصّب، وأغدق على مبعوثيه الهدايا. ولما عاد الرسل، قصد محمد مكة ليحج، وهو حجّ أجّل زمنًا طويلاً، وقد صحبه فيه خلق كثير وجيش غفير.

كان النبي على رأس تلك الجموع التي عوّضت بني قومه. محاطًا بأصحابه وأتباعه، وقد غدوا قواد جيشه، وكان يركب ناقته «القصواء» وهي أشهر النوق في صحراء الجزيرة، وقد انتطق بسيفه، رمز نصره الماضي ونصره الآتي، ودخل بلده - آخر الأمر - ودخل الكعبة حيث كان قد لقي ما لقي من الإهانة والشتيمة.

ولم يثأر لنفسه من أي شيء ناله، وأدى في خشوع، باسم إله إبراهيم، كل مناسك الحج كما كانت شائعة عند العرب، فطاف بالكعبة وصعد التلال المقدسة بمكة.

فلم يحمل الناس - لذلك - على تبديل أي شعيرة ممّا اعتادوا عليه من شعائر الحج ولكن ما تبدل هو الفكرة التي تدور عليها عبادتهم، وقد ترك لهم محمد الحرية في أن يعتنقوا دينه أو أن يظلوا على ما كانوا عليه من معتقدات، فاعتنق الإسلام كثرة كثيرة من الناس لما رأوا فيه من قوة لا تقاوم، قوة كانت تبرّر - في نظرهم - بعثة النبي، وتزوّج محمد، تمتينًا لصلة القرابة مع قريش، امرأة منهم، وهي (أم حبيبة بنت أبي سفيان)[1]، أحد قادة قريش، وعاد إلى المدينة في غمرة الاحتفالات بهذا الزفاف.

(٨٣)

ولم يلبث (زيد بن حارثة) - وكان المحارب المفضل لدى محمد - أن غادر المدينة يقود جيشًا من خيرة المقاتلين ليفتح الشام، فجمع الملوك العرب الذين كانوا يحكمون ذلك الجزء من آسيا الصغرى - وكانوا حلفاء الروم - جيشًا عدده مائة ألف رجل لمقارعة ذلك الذي بسط نفوذه على جزيرة العرب المستقلة.

غير أنّ زيدًا لم يصمد أمام ذلك العدد الغفير من الأعداء، فقتل في المعركة، وقبل أن تسقط راية محمد التي كان يحملها زيد، حملها عنه (جعفر بن أبي طالب)، ولكن ضربة سيف بترت يمينه، فحمل الراية بيسراه، حتى أصابته طعنة من رمح فأردته في ثنايا الراية، فحملها عنه ثلاثة مقاتلين آخرين تباعًا وقتلوا، وأمكن لخالد، آخر الأمر، أن يبقي الراية مرفوعة، وأن يجمع جنده وأن يرجع إلى المدينة.

وكان محمد أول من علم بخبر تلك الهزيمة، فكان أله لفقدان أصحابه أشد على نفسه من تنكب الحظ عنه، فذهب لزيارة (أسماء بنت عميس)، زوجة جعفر وقد قتل في المعركة مدافعًا عن رايته، ودعا بولديه، فضمهما إلى صدره وبكى، فقالت له أسماء وقد عراها القلق: «ما يبكيك يا رسول الله» فقال النبي: «لقد فقدا أباهما».

---

(١) تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، واسمها رَملة بنت أبي سفيان/ بن حرب، زوّجه إياها خالدُ بن سعيد بن العاص، وهما بأرض الحبشة، وأصدقها النجاشيّ عن رسول الله ﷺ أربع مئة دينار، وهو الذي كان خطبها على رسول الله ﷺ، وكانت قبله عند عبيدالله بن جحش الأسدي. «السيرة النبوية، ج٤، ص ٣٠٢»، مصدر سابق.

وحينما خرج من بيت تلك الأرملة، لقي في ساحة المدينة بنت زيد، وكانت أيضًا على غير علم بمقتل أبيها، فضمها إليه وهو ينتحب، فقالت له الفتاة: «فيم هذا النحيب؟» فقال: «هو بكاء صديق فقد صديقًا».

ولم يؤنب جنوده المهزومين على ما لقوا ولا آخذهم عليه، بل خرج، على العكس، لاستقبالهم تشريفًا لهم، وتبعه في ذلك أهل المدينة كلهم، وكان يحمل أمامه – على ناقته – أبناء قواده الذين قتلوا من أجله، وقد جاءه الجيش بجثثهم، فأقام لهم جنازة عظيمة، وأنشد الشعراء فيهم مراثي تخلّد مآثرهم، وصعد النبي المنبر وقال: «لا تبكوا جعفرًا، فإن الله عوّضه عن يديه اللتين بترتا في دينه، جناحين هو الآن يطير بهما في الجنة مع الخالدين» وزوّج أرملته أسماء من أبي بكر.

ويبدو أن السماء أيدت ما كان له فيها من ثقة وإيمان، بتشتيت شمل ذلك الجيش الغفير من الشاميين والروم والعرب الذين انتصروا على زيد، كما تذرو الريح الرمال، إذ لم تلبث الفرقة أن دبت بينهم فتشتت جمعهم، ثم إن محمدًا – وهو في تلك الصحراء القاحلة التي لا زرع فيها ولا ماء – ما كان يخشى شيئًا لو عنّ لذلك الجيش الكثير العدد أن يغزوه. فقد كان يقدر على أن يغزو كل مكان يريد دون أن يُقدر على غزوه ألبتة في عاصمته. كان اتساع المدى والقفر يحاربان في صفه. فكان دينه منيعًا في حماه، تحمله – على ما يشاء – إبله وخيله إلى حيث شاء، كانت الهزيمة والنصر ومضيّ الزمن تزيد من يوم لآخر عدد أتباع دينه.

وجاء رأس القرشيين، أبو سفيان، صهر محمد، المدينة يومًا دون إذن أمان من محمد للتفاوض فدخل بيت ابنته (حبيبة) وهمّ بالجلوس على البساط، فسحبت البساط من تحت قدمي أبيها، فقال أبو سفيان: «ماذا تفعلين يا ابنتي؟ أترينني غير جدير بالجلوس عليه؟» فقالت حبيبة: «هذا البساط فراش نبي الله، ومازلت أنت ملوّثًا بعبادة الأوثان».

(٨٤)

كان أتباعه الكثيرون الذين ظلوا – إلى ذلك الحين – في مكة، ومازال خوفهم يمنعهم من الجهر بعقيدتهم يناشدونه أن يأتي – بعد طول انتظار منهم – ليحرّرهم مما كانوا فيه

من أسر روحي. وكانت به هو – من جهة أخرى – رغبة في تعزيز ثقة جيشه في نفسه بعد أن دب فيه إحساس ببعض الإحباط نتيجة هزيمته الأخيرة، فكان ذلك كله يفرض عليه أن يقدم على غزوة طالما أجّلها، فلم يعد يقف دونه ودونها خوف مقاومة القرشيين مقاومة يائسة، فسار إلى مكة على رأس عشرين ألف رجل، وقد قرّ قراره على أن يرفع – آخر الأمر – رايته عليها. وحينما اقترب، ارتجفت القلوب، فهرع إليه أحد أعمامه وهو العباس ابن عبد المطلب، مع جميع أهله وذويه وأعلن إسلامه، ثم صار إثر ذلك المفاوض باسمه مع قريش. أما أبو سفيان، وكان القائد الأوسع نفوذًا في مكة، فظل على تردده، فصانعه العباس – بأمر من محمد – ومنحه حقّ أن يحمي في بيته كل أعداء النبي الذين يلجأون إليه[1]، ثم أوقف العباس أبا سفيان على ربوة يستطيع منها أن يرى مرور الجيش الفاتح، فأحس أبو سفيان أن ذلك العدد الضخم من المقاتلين وما كان لسلاحهم من بريق، يسحقه سحقًا، فقال للعباس: «من هم أولئك الرجال المدجّجون بالحديد حتى لا ترى منهم إلاّ أعينهم من مغافرهم؟» فقال العباس: «هو محمد وحراسه» فقال أبو سفيان: «فملك ابن أخيك إذن ذو أبهة وجلال!» فقال العباس: «ملك؟ ما هذا الذي تقول؟ أنسيت أن ابن أخي ليس بملك، وإنما هو نبي!» فاستدرك القائد القرشي وقال: «نعم، هو ذاك»، وعاد إلى مكة ليقنع أهلها بأنه من الخور مقارعة تلك القوة الجبارة التي كان يعتقد أنها تفوق قوة البشر.

وقسم محمد جيشه إلى أربع فرق عيّن على رأس كل فرقة منها قائدًا يأتمر بأمره، وإذ صاح أحد قواده: «النصر للنبي، ها نحن – آخر الأمر يوم الملحمة!» عزله محمد على الفور، وكان لا يحب أن يتلطخ نصره بالدم، وعيّن قائدًا آخر مكانه، ودخل مكة راكبًا جمله، مردفًا ابن الشهيد زيد، الذي قتل في الغزوة الأخيرة، يحيط به من الجانبين أبو بكر وأسيد وقد امتطيا فرسين، وحراسه أمامه ووراءه كغيمة دكناء، وكانت على رأسه قلنسوة سوداء، علامة على الهول والرعب، وهي قلنسوة لم يلبسها قط إلى يومه ذاك. وأمر أن تضرب خيمة على ربوة يشرف منها على مدينة مكة بأسرها.

---

(١) إشارة إلى قول الرسول ﷺ «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن داخل المسجد فهو آمن» السيرة النبوية، ج٤، ص ٥٢، مصدر سابق.

وأطلق محمد يد عليّ في سبعة عشر مشركًا خرجوا من كل شفاعة وغفران، ليثأر منهم، فانطلق علي وجنوده يلاحقونهم ليقتلوهم، فالتجأ اثنان منهم – اتقاء القتل – إلى بيت إحدى بنات عم النبيّ أبي طالب، واسمها (أم هاني)، فرفضت أن تفتح باب منزلها لجنود علي، وجرت مسرعة إلى خيمة محمد تطلب العفو عنهما. فلما رآها، قطع صلاته ومشى نحوها خطوات وقال لها: «أهلا بك يا ابنة العمّ، ماذا تريدين؟» فقالت: «أسألك حياة رجلين استجارا ببيتي» فقال: «من استجار بك فقد استجار بي، فلا يتعرّض لهما أحد».

ثم ركب فرسًا وطاف بالكعبة، وإذ رأى حمامة نحتت من الخشب ما زالت معلقة بالسقف، رمى بها الجدار فكسرها، وعند تلك الإشارة، هوى الثلاثمائة والستون وثنًا التي كانت تزين ساحة الكعبة فإذا هي تراب، فصاح: «جاء الحق! وزهق الباطل. يا أهل قريش، لا إله إلا الله! صدق وعده وأعزّ جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، لا فرق بين عربي وعجمي، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[١].

ثم أعلن عن عفو عام، وأمر بنسيان كل ما لقي هو من إهانة وشتيمة. وجلس إثر ذلك أمام باب الكعبة، وقد عادت بدعوته وسلاحه إلى الله الواحد، وبدا جذلاً مستمتعًا في ضرب من الوجد العميق، بانجاز ما كُلف به، وبانتشار شرعته في مستقبل الأيام.

وجاء أبو بكر بشيخ ضرير ناهز المائة، كان يرغب – قبل أن تأتيه المنية – في أن يلمس ثوب النبي، وقد طال انتظاره لقدومه حتى يقضي على معتقدات بني قومه وأوهامهم.

فقال محمد لأبي بكر: «لِمَ أخرجت هذا الشيخ الجليل من بيته؟ لو علمت بأمره لذهبت أنا إليه وزرته في بيته» ثم أجلس الشيخ على بساطه، ومسح بيده على صدره في ألفة، وعرض عليه أن يقول الجملة التي تجعله مسلمًا لله الواحد، فتشهد الشيخ وهو يبكي فرحًا.

وذهب محمد بعد ذلك فجلس على صخرة بالصفا، فجاءه إليها أهل قريش وأعلنوا إسلامهم. فأثار إسلام قريش بعض المخاوف لدى أهل المدينة فتهامسوا: «سيتخذ

---

(١) قال تعالى «وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً». سورة الإسراء، الآية (٨١).

عاصمته المدينة التي نشأ فيها» فقال لهم محمد في وفاء واعترافٍ بالجميل: «لا، أقسم لكم أني سأعيش وأموت بينكم».

(٨٦)

ولقي جماعة من قبيلة من القبائل التي في جيشه، محاربًا - بمكة - من قبيلة أخرى كان قد قتل قبل مجيء الإسلام واحدًا منهم فقتلوه. فدعا محمد بهم وقال في حزم: «لما خلق الله الأرض، وهب مكة فضل أن تكون ملاذ أمن وسلام لا يثأر فيه أحد من أحد ولا حتى من شجرة، فأطيعوا الله الذي يحرّم القتل» ودفع هو نفسه دية المقتول لقبيلته التي تأذت من القتل.

ثم إنه - بعد فترة وجيزة - كان مثال من يغضي عن الثأر، تجاه من أساء إليه وجرح قلبه جرحًا عميقًا: ضرب رجل، يدعى (الهبّار بن الأسود بن عبد المطلب)، ابنته زينب، بعصا رمحه، فدحرجها عن راحلتها، وكانت هي خارجة من مكة قاصدة أباها بالمدينة، وكانت إذ ذاك حاملاً، فماتت بعد ذلك بأيّام نتيجة سقطتها وهي في حضن أبيها. فذهب هبّار إلى محمد يستغفره عما أتى، وأسلم بين يديه، فقال له النبي: «اذهب سالمًا، فإن رجوعك إلى الله الحق يجبّ ما سلف من سيئاتك»

وركب مشرك آخر يدعى (عكرمة)[1]، البحر الأحمر هربًا من انتقام المنتصر، فأرسل إليه محمد قلنسوته السوداء، علامة على أنه آمن، فرجع (عكرمة) إلى مكة، ولما كان يهم بالمثول أمام النبي، خشي محمد أن يسيء جنوده إلى عكرمة بقول أو بفعل، لما قد يأخذهم من الغيظ عند رؤيته، فقال لهم: «سيأتي (عكرمة) ليعلن إسلامه، فلا يذكرن أحدكم أباه بسوء.

وقد عفا كذلك عن العبد الأسود «وحشي» الذي قتل حمزة، عم النبي الحبيب إلى نفسه، وعلى النساء اللاتي مثلن بقتلى المؤمنين في ساحة المعركة بجبل أحد، بل وعلى هند نفسها، تلك الشرسة التي امتصت الدم من قلب حمزة. كانت هند متنقبة في جمع النساء اللاتي جئن يعلنّ إسلامهن أمام محمد، تأمل ألا تلتقي عينها بعينه، غير أنه تعرّفها وناداها باسمها، فقالت: «نعم، أنا هند، فاغفر لي ما مضى» ورجعت إلى بيتها وقد عفا عنها النبي، وكسرت ما فيه من أوثان وقد أيقنت أنها لا تملك لها نفعًا ولا قدرت أن تحمي بني قومها.

---

(١) هو عكرمة بن ابي جهل، الذي اسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وأبلى بلاءً حسنًا في المعارك والفتوحات، وبخاصة معركة اليرموك. ومات شهيدًا. (المراجع).

(٨٧)

وبعد تلك الأعمال الدالة على سيادته وسلطانه، ذهب يترحم على قبر زوجته الأولى، الفاضلة خديجة. وظل طويلاً أمام القبر في خشوع لم يجرؤ أحد على سؤاله عن سببه ولا على أن يقطعه عنه، ولم يكن أحد قادرًا على أن يدرك مدى ما كان يجيش بصدره من هواجس وذكريات وفرح وترح، وقد عبر المحنة طويلاً، وانتصر آخر الأمر، وكان يرى عندئذٍ أنه أنجز العمل الذي أوكل إليه. فجاء يضعه كإكليل زهر، على قبر تلك التي كانت أول من آمن به، في زمن كفر الناس جميعًا به وأنكروه، وكانت أول أتباعه، وكانت أول من أفضى إليه بما يعتزم الاضطلاع به من أمر عظيم، لقد سلبه موت خديجة أعذب ما في النصر بالفتح من متعة، متعة أن تحسّ بالظفر الزوجة التي قاسمته - طوعًا - ما لقي من اضطهاد وازدراء، غير أنه اكتفى بأن رتل على قبرها آيات من القرآن صلاة على تلك المرأة المؤمنة.

(٨٨)

وقبل أن يعود محمد إلى المدينة، نشر الجزء الأكبر من جيشه في أنحاء جزيرة العرب، ليفرض الطاعة على جميع القبائل، سواء كان ذلك مثلما وقع في مكة أو كان عنوة، وكانت أوامره إلى قوّاده أن يكونوا مسالمين ينشدون التحالف أكثر من أن يكونوا فاتحين، ومنع عليهم إراقة الدماء، غير أن أحد القواد، وهو خالد، خرق الأمر ونكل بقبيلة جاءت تعلن عن إيمانها بالله الواحد. فلما علم محمد بالخبر، استفظعه، ورفع يديه إلى السماء وصاح قائلاً: «اللهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد».

وبينما كان عائدًا إلى المدينة هاجمه عند مخرج شعب عرفات ائتلاف من المحاربين ينتمون إلى قبائل مازالت - حينئذٍ - على شركها، يقودهم شيخ أعمى تجاوز المائة، لم تعد ذراعاه قادرتين على حمل السيف، ولكن طول تجربته جعلت منه دومًا فطن الصحراء.

فكان يستعرض جموعه، لا بالبصر، بل بحسيس الحشود، يتعرفها دون أن يحتاج إلى أن تُسمى له، فكان يقول: «نحن في مكان كذا، وهو مكان يصلح لأن يكون ساحة قتال للخيالة، فالأرض ليست صخرية ولا رملاً متحركًا»، أو يقول: «أسمع ثغاء نعاج القبيلة الفلانية» أو «أسمع وقع حوافر خيل بني فلان» أو «أسمع الأطفال يبكون والنساء يتهامسن وراء المقاتلين».

وخرجت تلك الجموع فجأة من شعاب الجبال التي كانت تحجب حشود المقاتلين، فردت المسلمين على أعقابهم وشتّتت شملهم حتى التفّوا حول محمد نفسه، وكاد يقضى عليه، وهو في غمرة ظفره. فغمز بغلته البيضاء (دلدل) فأركضها فعدت به بما وسعها من السرعة حتى بلغ أعلى ربوة فتوقف وتوصل - بعناء - إلى جمع جنوده الفزعين حوله، وقال بصوت مدوٍ: «إليّ إليّ، يا أيها الذين أقسمتم على أن تموتوا تحت السَّمُرة»[1]. فأوقفت هذه الذكرى المقدسة فرار الهاربين، وشدت من عزم الباسلين، فانقلبت المعركة على المشركين. ووقف محمد على الركاب ليشرف ببصره على المعركة، وصفّق فرحًا وقال: «إنها النار تستعر في قلب المعركة من جديد»[2].

وقطع علي عرقوب الجمل الذي يحمل الشيخ المسنّ، فتدحرجت الراية والدابة وراكبها في التراب، وكان النصر للمسلمين، وحينما رأى محمد سقوط الراية، زاد حماسًا وكلم بغلته الذكية فقال:ابركي يا (دلدل) فبركت، فالتقط النبي حفنة من تراب ونثرها بعيدًا، لعنةً للكافرين».

---

(١) قال ابن إسحاق: حدثني الزُهري، عن كَثِيرِ بن العباس عن أبيه العباس بن عبدالمطلب، قال: إني لمع رسول الله ﷺ آخذٌ بحكَمَةِ بغلتِه البيضاءِ قد شَجَرْتُها بها، قال وكنتُ امرا جسيمًا شديد الصوت، قال: ورسول الله ﷺ يقول حين راى ما راى من الناس: اين ايها الناس؟ فلم ار الناس يَلْوُون على شيء، فقال يا عباس، اصْرخ، يا معشر الأنصار: يا معشر اصحاب السَمُرَة، قال: فأجابوا: لبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، قال: فيذهب الرجل لِيثْنيَ بعيرَه، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ دِرْعه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وتُرسَه، ويقتحم عن بعيره، ويخلّي سبيله، فيؤمّ الصوت حتى ينتهيَ إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة، استقبلوا الناس، فاقتتلوا، وكانت الدعوى اولَ ما كانت: يا لَلأنصار. ثم خَلصَت اخيرًا: يا لَلْخزرج. وكانوا صُبُرًا عند الحرب، فأشرف رسولُ الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مُجتَلَد القوم وهم يَجْتلدون، فقال: الآن حَمِيَ الوَطِيس. «السيرة النبوية، ج٤، ص ٩٥.

(٢) غزوة حنين التي جرت في العام الثامن للهجرة. (المراجع).

(٨٩)

غير أن قائد تلك الجموع الشيخ، أُركب على جمل آخر في هودج، وفرّ هاربًا إلى بعض الشعاب في الجبل. فأدرك الجملَ مقاتل شاب من أتباع محمد يدعى (ربيعة بن رُفَيع)، فاعتقد أنه ظفر بسبيّة، ففتح الهودج وإذا به يرى شيخًا أعمى، قال له: «من أنت، وماذا تريد؟» فقال: «أنا ربيعة، أحارب في صف محمد، وأريد أن أقتلك» وضربه بسيفه ضربة لم تكن قاتلة، ولم تزد على أن جرحت عنق الشيخ، فقال: «يا بني إن أمك وضعت في يدك سيفًا غير مصقول، فخذ سيفي، وهو في مؤخر الرحل، ثم اضربني بين الرقبة والرأس، فطالما أطحت رؤوسًا على ذلك في شبابي، وإذا عدت إلى أمك فأخبرها أنك قتلت (دريد بن الصمّة) وقد شاخ، فإنها ستنبئك بما لي على نساء قبيلتك من دين».

وبعد أن سمع ربيعة هذا الكلام، بحث في الهودج وأخذ السيف وقطع رأس أسيره، وحينما سلبه ثيابه، عجب إذ رأى جسمه كله مغطى بالشعر كجسم حيوان برّي، باستثناء باطن رجليه فقد صقله احتكاكهما الدائم بجنبي الفرس لكثرة ركوبه، حتى صار كالرخام، وحمل ربيعة الرأس الأشيب إلى أمه، ولما رأته بكت وقالت: «ويحك، لقد قطعت رأس رجل تدين له ثلاث من نساء بعض جدودك بعرضهن وحياتهن !».

(٩٠)

ولاحق محمد فلول جيش أولئك الذين تحالفوا ضده، وقد التجأوا إلى الطائف وتحصنوا بها. فظفر بقوادهم وجنودهم ونسائهم وماشيتهم. ولما أساء بعض جنوده معاملة إحدى النساء وقسا عليها صاحت: «وقّروني، فإني من قرابة نبيّكم» فاقتيدت إلى محمد، فقالت: «يا نبي الله، أنا (شيماء) بنت حليمة مرضعتك !» فقال لها: «وما حجتك في ما تقولين؟» قالت: «أثر عضة في كتفي، عضضتني ذات يوم كنت أحملك – وأنت طفل – على ظهري». وكشفت عن كتفها وأبدت أثر أسنان أخيها من الرضاعة. فرقّ قلب محمد وقد مرت بخاطره ذكريات طفولته وما لقي من حدب أم على ابنتها في تلك الخيمة البائسة في وقت لم تبد بعد أي بادرة تنبئ بعظمته، وترقرق الدمع في عينيه، فخلع ثوبه وفرشه لها على الأرض بساطًا، وقال لها: «إن أردت البقاء معي، عاملتك معاملة ابنة أمي، وإن فضلت العودة إلى قبيلتك، ضمنت لك فيها حياة رخية هنية» فاختارت بنت الصحراء خيمتها على المدينة، وعادت إلى قومها محمّلة بهدايا محمد.

(٩١)

وأرسل المهزومون إليه، وهو تحت سور الطائف، مفاوضين ليطلبوا منه أن يردّ لهم سباياهم وأموالهم. فقال له شيخ طاعن في السن عُهد إليه بحمل كلام بني قومه: «يا نبي الله، قد نشأت بيننا، فهؤلاء النسوة اللائي أمكنك منهن نصرك هم خالات مرضعتك، أمّك الثانية، وأخواتها وبنات عمومتها، وإنك لمن قرابتهن، للحليب الذي رضعت، فأعتقهن، فإن في ذلك كرمًا حقيقًا بوعودك، فلو خاطبنا ملوك فارس أو الشام، لردّوا ضراعتنا، ولكن أتقدر أنت أن تحزننا وتغمنا بالرفض؟» فردت السبايا بعد أن رجا محمد مقاتليه أن يعتقوهن فلم يحتفظوا إلا بالغنائم، فقسمت بين المنتصرين أربعة وعشرون ألفًا من الإبل، وأربعون ألف شاة، وآلاف الخيل وخزائن من الحلي والذهب المسكوك، وسلّم محمد نصيبه للعرب الذين قبلوا اعتناق الإسلام وقال: «أشتري الأرواح لله الحق».

وأثارت القسمة همهمة ولغطًا، واجترأ أحد الأعراب على محمد فقال له: «لست عادلاً، أيها النبي» فقال محمد ساخطًا: «الويل لك!» وأراد عمر، وكان حاضرًا، أن يضرب ذلك المتهور بسيفه فقال النبي: «لا تمسسه يا عمر، إن لله في هذا الرجل أمرًا مقضيًا: ستنشأ منه فرقة تخترق الإسلام كسهم أُفرط في شدّه إلى القوس فخرق هدفه» ولم تلبث هذه النبوءة التي استشعرها محمد، على الأرجح، من بذرة انقسام بين المسلمين كان على علم بها، أن تحققت في فرقة من المتصوّفة الغلاة في ممارسة دين محمد.

(٩٢)

وبدأ أهل المدينة يهمهمون أيضًا: «قد نسينا الرسول، ولم يعد يفوز بحظوته إلاّ بنو قومه، من مكة» وإذ تناهت إلى محمد همهمتهم جمعهم وقال لهم: «أعلم ما تعتبون عليّ في سرّكم، وحينما جئتكم منذ ثمانية أعوام، كنتم في الظلمات، فمن أخرجكم إلى النور؟ وكنتم ضعفاء أمام أعدائكم، فمن جعلكم أقوياء؟ وكنتم على خلاف بينكم، فمن وحّد كلمتكم؟

ألست أنا فعلت ذلك؟ فصاح المسارعون إلى الفتنة، وقد تأثروا بما في كلامه من حقائق: «بلى! وإن علينا أن نعترف لك بالفضل!»

فقال محمد في مروءة: «كلاً، بل أنا من يعترف لكم بالفضل، كان يمكنكم أن تقولوا غير ما قلتم، كان يمكنكم أن تقولوا من ناحيتكم: «جئتنا هاربًا، فآويناك، وجئتنا طريداً فشددنا أزرك، وجئتنا فقيرًا فأغنيناك، متهمًا بالدجل والتضليل، فآمنا بك، منبوذًا من الناس جميعًا إذا دعوت، فاعتنقنا شرعتك، هذا ما كان يمكنكم قوله، لي، ولو قلتموه لقلتم حقًا.» فقال أهل المدينة: «لا! لا! بل نحن الذين ندين بكل شيء لله ورسوله»

كانت دموع الرأفة والوئام تسيل من عيني محمد ومن أعين أهل المدينة في الوقت نفسه، أثناء ذلك الحوار الذي كان معركة امتنان وعرفان، واستأنف محمد كلامه بصوت متقطع بالعبرات تخنقه: «قد حزنتم، رفاقي، لأنكم لم تنالوا نصيبكم من متاع الدنيا الفاني الذي أعطيته لرجال ضعيفي الإيمان، ينبغي شراؤهم بجزاء مادي، لدين الله، أما أنتم، فإيمانكم ثابت مترفع عن تلك الدنايا، ولا أراني في حاجة إلى إغرائكم لتتبعوا الحق! فليعد غيركم بقطعان الشياه والإبل، فإنكم تعودون إلى بيوتكم ومعكم نبي الله! والذي نفسي بيده، إني مِلك المؤمنين بالمدينة، أنصاري، وأوفيائي، وأرحمهم جميعًا، والدًا وما ولد، وجيلاً بعد جيل».

فتأثر الناس لتلك الفصاحة والبلاغة ولذلك الدعاء، تأثرًا حتى صاحوا جميعًا: «إننا، من جهتنا، راضون تمام الرضى، وسنقاتل لله لا للغنائم» واخضلّت كل اللحى من الدمع، على ما جاء في كتاب الأغاني.

(٩٣)

وعاد محمد مرة أخرى إلى مكة بعد أن قسم الغنائم، لتوطيد نفوذه فيها وتعيين والٍ عليها من قبِله، وطلب منه، أثناء سفره ذاك، واحد من أهل الطائف الذين أسلموا حديثًا أن

يأذن له بالدعوة إلى الإسلام في مدينته التي كانت ما تزال عندئذٍ لم يعتنق كل سكّانها الدين الجديد، فحذّره محمد من ذلك، ولكن الحماس للشهادة كان يلح على المؤمن، فدخل المدينة التي وُلد فيها، وجعل يدعو الناس من شرفة في بيته، فانطلق سهم من صفوف المشركين فقطع كلامه وطرحه محتضرًا على عتبة داره.

فشكر الله وهو يَهوي لأنه قتل في سبيله، ولم يطلب، لثأره، إلا أن يدفن وسط قبور المسلمين الذين قتلوا في غزوة الطائف.

(٩٤)

وأنجبت زوجة محمد الأخيرة، ماريا القبطية، وكانت مسيحية، ولدًا، عند عودته إلى المدينة. فسماه إبراهيم، وأقام احتفالات رائعة لمولده. وأعتق جاريته الحسناء ماريا، عرفانًا لها وامتنانًا بما حملت، وقال: «إن الابن، في القرآن، يعتق أمه»، فأُعتقت الجواري الولودات لأمومتهن. وتنافست جميع نساء المدينة فخر إرضاع ابن النبي ووريثه، فأعطاه لامرأة كريمة الأصل لترضعه، وكانت زوجة أحد مقاتليه، وكان يتردد كثيرًا على بيت المرضعة لزيارة ابنه، غير أن الموت الذي يبدو أنه يحسد العظماء على الخلف، عجّل باختطاف ذلك الابن. فكان أعداء محمد يرون في حرمانه من ابن ذكر نقمة من السماء، وأطلقوا عليه لقب «الأَبْتَر» وهو لقب رجل ليس له خلف من صلبه.

وعكّرت صفو بيته، منذ ذلك اليوم، خصومات بين نسائه. فقد جعل إنجاب ماريا منها امرأة أحب إلى قلبه، فكانت نساؤه الأخريات، وقد نشأت في نفوسهن الغيرة من تواتر زياراته لماريا، يهمهمن بسخطهن على تفضيله إياها عليهن. ودخلت زوجته الثانية، حفصة، على حين غرّة إلى غرفتها، ففاجأت ماريا على بساط النبي، فانفجرت باكية تلومها على ذلك، فخشي محمد أن تعرو نوبات الغيرة بيته من تردده على أم إبراهيم والحديث إليها، فرجا حفصة ألا تخبر صاحباتها بشيء، وأقسم لها أنه لن يرى ماريا بعد ذلك

اليوم، فوعدته حفصة بذلك كله ولكنها لم تف بشيء مما وعدت، فأسرّت إلى عائشة، صديقتها، بالأمر، وكانت عائشة شموسًا غيورة، فأشاعت غضبها في كل مكان، فعاقب محمد هاتين المُنافستين، بأن طلّق حفصة وهجر عائشة مدّة شهر، ولم يبدِ رقة وعطفًا إلاّ لأم ولده، وانحاز عمر، والد حفصة، وابو بكر، والد عائشة، لصف ابنتيهما، فخشي محمد نفورهما مدة أطول، فأرجع حفصة وتعطّف على عائشة وأبدى لها ما عهدت منه من الرقة، غير أنه جاءت آيات خاصة من القرآن تبرّر ميله إلى مارية وهي: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾[1] ولم تنل هذه الخلافات النسائية من ألوهية بعثة محمد في نظر العرب.

كان مئات الشيوخ، وفود القبائل النائية، يأتون إليه ليقرّوا بسلطانه عليهم وليدفعوا الجزية. وكان سفراء العرب الرحل ينافسون عرب المدينة رفعة المنزلة لدى النبي ومحبته. فكانت معارك بلاغة وشعر بين الخطباء والشعراء من الجانبين، فكان البدو الرحل يقولون: «إن انسابنا ضمان شرفنا وعزنا، فنحن الفرسان والحكماء، وإنا لنجز الرؤوس التي تدّعي مطاولتنا» فكان الشاعر حسان يجيب عن أهل المدينة فيقول: «نحن أنصار محمد وأصحابه، فقد عرّضنا حياة نسائنا وبناتنا للهلاك دفاعًا عن حياته، أتجرؤون على ذكر الشرف والمجد أمامنا، وأنتم الذين منكم مرضعات أطفالنا وخادمات بيوتنا».

فكان سفراء البدو يعترفون بنبوغ حسان، شاعر النبي، غير أن محمدًا أراد أن يواسيهم بالحديث مع شاب منهم مكث، لحداثة سنه، يحرس الإبل، خارج المدينة، وبعد أن سمع ذلك الخطيب الشاب الذي كان يزري بحكمة الشيوخ وبلاغتهم، صاح قائلاً: «حقاً، إن من البيان لَسِحْرا» وجعل منه داعية لدينه في الصحراء، فاعتنقت الإسلام على يديه آلاف البيوت.

---

(١) سورة التحريم، الآيتان ٤ و٥.

(٩٥)

وجاء المدينة راهبان وأسقف من عرب الشام المسيحيين، في تلك الفترة نفسها، ليستعلموا، من الحوار مع محمد، عن علاقات التماثل والتباين بين الديانتين، اللتين يجمع بينهما الإيمان بوحدة الله، والأخوة، والمساواة، والتصدّق، والصيام، وإجلال المسيح مما يلوح من خلاله أنهما شريعة واحدة. فأوضح لهم محمد، حين اجتمع بهم خارج أسوار المدينة، أنه يقرّ بأن المسيح نبيّ حق، وبأنه كلمة الله، وبأنه عبد الله الأكمل، ولكن عيسى، مثله مثل آدم، خلق من تراب، ولما ألحّ الأسقف وعدد الحجج على أن المسيح إله، وأنه ابن الله على الحقيقة، وأنه الشخص الثاني في ثالوث إلهي في جميع عناصره، ذكر محمد هذه الآية من القرآن إنهاءً لذلك النقاش.»

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ • يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ• هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[١]

(٩٦)

وجاءه جنوده ذات يوم بسبيّة بنت حسب ونسب، باهرة الحسن، فقالت: «يا نبي الله، قد مات عني أبي، أما أخي وهو حاميّ الوحيد، فهرب إلى الجبل عند اقتراب جندك من حيّنا، ولا أمل لي في أن أفكّ من السبي، ولا ملاذ لي في الخلاص إلاّ كرم نفسك وشهامتك، فقد كان أبي رجلاً ذائع الصيت، شيخًا مطاعًا في قومه، وكان يحرّر الأسرى، ويصون أعراض النساء، ويقري الضيف ويطعم الفقراء، ويواسي المحزونين، وما كان يردّ أحدًا، أنا «سفانة بنت حاتم» فقال محمد لعلي: «أطلق هذه الفتاة، فقد كان أبوها كريمًا رؤوفًا، والله يحب أهل الخير، ولو لم يكن عبد الأوثان لاستغفرت له!»

(١) سورة آل عمران، الآيات ٦٣ - ٦٦.

فانطلقت السبية المحرّرة إلى الشام حيث أخوها واسمه عديّ فسارع ممتنًا يشكر النبي لتحريره أخته من السبي، وصون عرضها، واعتنق دين المحسن إليه، ثم أخرج قبيلته كلها من الوثنية.

(٩٧)

ورغب شاعر شهير، واسمه (كعب بن زهير)، في أن يلاقي النبي دون أن يدري به أحد، وذلك بعد أن أغلظ في شتم العقيدة الجديدة، فأبدل اسمه، وقطع الصحراء، وأناخ راحلته عند باب مسجد المدينة ودخل.

فرأى رجلاً مهيب المظهر، يطوف بين حلقات الناس، فيحدث هؤلاء ويسلّم على أولئك، ويلقى منهم جميعًا أمارات التبجيل، فاقترب منه وقال له: «يا نبي الله، لو جئتك بكعب، أكنت تعفو عنه؟» فقال محمد: «نعم» فقال: «إذن، أنا هو كعب!» وما إن ذكر هذا الاسم البغيض في المدينة، حتى استأذن المقاتلون محمدًا في قتل الكافر، فقال لهم: «لا! لقد وهبت إليه الحياة!» فأنشد كعب عندئذٍ قصيدة اشتهرت منذ ذلك الحين، وتدعى: قصيدة البردة، وتعتبر من أجود عيون الشعر العربي.

بانت سعادُ فقلبِي اليومَ متبولُ
متيّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولُ

وقاد تخلّص الشاعر، فكره إلى الله، وإلى كاشفه في قلوب البشر، وحينما أنشد الشاعر هذا البيت:

إنّ الرسولَ لنورٌ يستضاءُ به
مهنّدٌ من سيوفِ اللهِ مَسْلول

خلع عليه محمد بردته علامة على حماسه وسخائه وكرمه، وقد صار هذا القصيد مقدسًا يسمى قصيدة البردة، وقد اشترى بعض خلفاء محمد تلك البردة من ورثة كعب ومازالت إلى اليوم محفوظة عند العثمانيين، باعتبارها من مخلّفات مشرّعهم.

(٩٨)

وأطلق على السنة التاسعة لهجرة محمد سنة الوفود، وكانت تلك السنة عنده سنة الحصاد. فقد انغرست وحدة الله في كافة أرجاء جزيرة العرب، وفي ما جاورها، وكانت الطرق تغطيها القوافل التي كانت تأتي المدينة لتقديم آيات الولاء، لمحمد، ثم تنقل ديانته إلى أهل الشرق.

(٩٩)

بدأ محمد، منذ ذلك الحين، يحسّ بأن حقيقة وحدة الله وروحانيته، تلك التي زرعها في مختلف أرجاء جزيرة العرب، أخذت تبدو يانعة وتؤتي أكلها، فكانت الأوثان تسّاقط في كل مكان لتعوّضها عبادة الله الواحد، وكان يحسّ بأنه قد أتمّ مهمّته وبأن الزمن كفيل باستكمال ما قد يكون تبقى منها، وشعر ببعض علامات الوهن تعرو قواه وتنذره بنهاية مساره. فأراد أن يحج حجة الوداع قبل أن يموت، فقصد مكة ومعه جميع قوّاد جيشه، وخلق كثير جدًا، فخطب في العرب للمرة الأخيرة، وقد اجتمعوا حوله على ربوة الصفا، وركب هو بعيره حتى يراه الناس وقد غطت جموعهم جوانب الربوة، وكلّمهم من أعلى ذلك المنبر كما لو كان هاتفًا من الصحراء، وكان صوته - وإن ظلّ جهوريًا رخيمًا - قد داخله بعض الضعف لكثرة ما دعا الناس وخطب فيهم وبشّر بدينه، ولذلك اختار بعض أتباعه ممّن كانت أصواتهم رنانة، فدرّجهم على جنبات الربوة، تفصل بين كل واحد منهم والآخر مسافة، حتّى يصرخوا في الناس بما كان يقوله فكانوا يعيدونه على مسامع أولئك الآلاف من المؤمنين حتى يصل إلى أطراف ذلك الحشد العظيم. وقد احتفظت لنا السنّة بهذه الخطبة التي ألقاها نبيّ العرب كاملة، وقد قال فيها:

«أيّها الناس، اسمعوا قولي، لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدًا. أيّها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقَوْا ربّكم كحرْمة يومكم هذا، وحرْمة شهركم هذا، وستلقوْن ربّكم، فيسألكم عن أعمالكم. وقد بَلّغْتُ، فمن كانت عنده أمانة فليُؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ كلّ ربًا موضوع، ولكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون

ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإنّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلّه، وأنّ كلّ دمٍ كان في الجاهلية موضوع، وإنّ أوّل دم أضَعُ دمَ (ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب)، أيها الناس ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(١)

«أمّا بعد أيها الناس، فإنّ لكم على نسائكم حقًا ولهنّ عليكم حقًا، لكم عليهنّ ألا يُوطِئْن فرشَكم أحدًا تكرهونه، وعليهنّ ألا يأتينَ بِفاحشة مُبَيِّنَة، فإن فعلن فإنّ الله أذِن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضربًا غير مُبَرِّح، فإن انتهينَ فلهنّ رزقهنّ وكِسْوَتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهنّ عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسهنّ شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإنّي قد بلّغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلنْ تضلُّوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيّه.

أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بلّغت، واعقلوه. تعلمُنَّ أنّ كل مسلم أخو المسلم، وأنّ المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم».

ثم أشهد الناس الحاضرين جميعًا على ما أنجز من تبدّل عظيم في عقيدتهم وفي عادات عيشهم بالقضاء على الأوثان، فقال قول من يسأل في ثقة قاضية: «اللهم هل بلّغت؟» فانطلقت آلاف الحناجر - حناجر الحاضرين تقول: «نعم يا نبيّ الله، قد بلّغت!»

فقال وقد ازداد ثقة في نفسه: «اللهم اشهد بما سمعت من خلقك» ثم نزل عن ناقته وصلّى، ثم تلا وهو يقوم من الصلاة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام دينا﴾(٢).

ثم جاءه حلاق فحلق رأسه ووزّع شعره على المؤمنين.

---

(١) سورة التوبة. الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة من الآية (٣).

وعاد إلى المدينة عودة من لم يبق له إلا أن يتخفف من عبء مهمّته، فوزّع بها غزواته الروحية على جميع صحابته، وكان يبدو متعجّلاً تنظيم مملكة الأرواح التي سيتركها لرحمة الله.

لم يعيّن خليفة له في الحكم ولا في الدعوة، وقال إنه لا يحب أن يتدخل في الاختيار الذي سيلهمه الله للأمة.

(١٠٠)

واشتدّ به المرض، واضطرب ليله بالأرق، وغرق في تلك الكآبة التي تحبط النفوس العظيمة إذا لم يبق فيها للتوتر الدافع إلى العمل أو التفكير ما يحمل عليه، وكان ذات ليلة نائمًا في غرفة عائشة، فنهض من نومه وذهب وحده إلى مقبرة المسلمين خارج سور المدينة، فقال: «السلام عليكم، أهل المقابر، ليَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه!»

ثم مرّ على القبور إلى طلوع الفجر، قبرًا فقبرًا، مترحّما على أرواح أتباعه ومقاتليه المدفونين هناك.

وكانت الحمّى المستعرة تنهشه حينما عاد إلى عائشة، وكانت هي نفسها أيضًا مريضة، فشكت ما كان بها من ونى إلى زوجها، فقال لها: «إني لأحق منك بالشكوى»، ثم قال مواسيًا زوجته الشابة على ما روت هي، مازجًا في مواساته الرفق والرقة بالظرف مشوبًا بالكآبة: «يا عائشة، ألا تشعرين ببعض التأسي إذا متِّ قبل أن أفارق أنا هذه الفانية وتصوّرت أني أنا الذي أكفّنك بيديّ، وأصلي عليك وأوسّدك في قبرك؟ فقالت عائشة الغيور وهي مبتسمة مفكّرة: «بلى، إني لأحبّ ذلك لو لم يجل بخاطري أنك، إذا عدت من جنازتي، رجعت إلى جوار ماريا أو غيرها من نسائك لتتأسى عن فقدي !»

فابتسم محمد لما أبدت له زوجته المفضلة من دعابة ونقد، ولم تكن الحمى لتنال من حيويته وطاقته. فقد ظهر عندئذٍ بعض العرب يريد منافسته، فجمع حوله بعض الأتباع، واجترأ فأرسل إليه مبعوثين برسالة، فأجابه محمد برسالة ازدراء على النحو التالي: «من

محمد، رسول الله، إلى مسيلمة الكذّاب! السلام على من اتبع الهدى دون غيرهم، ليست الأرض لي ولا لك، إنها ملك الله، يعطيه لمن يشاء، أولئك الذين يخشون ربهم هم وحدهم الفائزون» وأخمدت تلك الثورة المطعّمة بالغيرة ومثيلاتها في حينها.

وأعدّ محمد العدة - في نفس الوقت - لغزوة كبيرة على العرب والروم بالشام، وأولى قيادتها إلى شاب في العشرين، يدعى (أسامة بن زيد)، مفضّلا إيّاه على قادته جميعًا، فتململوا وسرى لغطهم، فقال لمحاربيه الذين تقدمت بهم السن: «أطيعوه، فإني أعرف أن هذا الشاب هو الأجدر بها».

(١٠١)

كان، ذلك الحين، يراوح في إقامته بين نسائه، حتى لا يبدي لأي منهن من الحظوة ما يؤذي الأخريات. غير أنه، لما أحس بدنو ساعته، جمعهنّ كلهنّ وسألهنّ موافقتهنّ على ألاّ ينتقل منذئذٍ من واحدة منهنّ إلى أخرى، وعلى أن يُحمل حصيره - إلى شفائه أو إلى موته - إلى بيت عائشة، وقال لهن: «أزفت ساعة افتراقنا، فكنّ وفيات مخلصات لله، وأدعو الله لكُنّ بالرحمة»، فبكين عليه، وقيل له: «يا نبيّ الله، إذا مت كيف ندفنك؟» فقال: «في ثيابي هذه أو في قماش اليمن الخشن» فقالوا: «ومن يقوم بالصلاة عليك» فقال محمد: «إذا غسلتموني وكفّنتموني، فضعوني على هذا الحصير على شفير قبري، الذي سيكون في بيتي هذا، تحت موضع حصيري، ثم اتركوني وحيدًا مع الملائكة التي كانت تحدّثني أثناء حياتي، فإنها ستجيء للصلاة علي بعد موتي، ثم تأتون أنتم للصلاة عليّ فوجًا فوجًا، بدءًا بالرجال من أهل بيتي ثم النساء ثم يأتي المسلمون، فالسلام عليكم، أنتم الذين تستمعون إليّ، والسلام على أصحابي الغائبين، والسلام على كل من يتبع ديني في العصور الآتية». ثم تحامل على نفسه ليستغفر من الأحياء ويسلم عليهم قبل أن يمثل أمام الديّان. وأسنده من إبطه صاحباه الحبيبان إلى قلبه: علي وأبو بكر، فمشى في عناء حتى منبر المسجد، وقال بصوت مخنوق: «أيها الناس،(...) من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقدْ منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقدْ منه، ألا وإن الشحناء

ليست من طبعي ولا من شأني، وإنّ أحبكم إليّ من أخذ مني حقّاً إن كان له (...)» فجرؤ رجل وقام بين الناس وطلب من محمد أن يؤدّي له دينًا خفي عنه، فقال النبي: «خذ مالك، ألا إن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة»[1]

(١٠٢)

وترحّم عندئذٍ، جهرًا، على جميع أصحابه الذين ماتوا قبله في الكفاح من أجل وحدة الله أو شملتهم الشهادة، ثم رجع بالحديث إلى نفسه وإلى نهايته القريبة، قبل أوانها فقال: «خيّر الله عبده بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة !» فقال أبو بكر باكيًا: «نفديك بأنفسنا».

كان محمد قد بلغ به الوهن مبلغًا حال دونه ودون مواصلة وعظه اليومي والصلاة بالناس، فكلّف أبا بكر بأن يضطلع مكانه بوظيفتي إمامة الصلاة والحكم.

وازدادت به الحمى نهشًا طيلة ثلاثة أيام، وأورثته رؤى وهذيانًا، وكان يغمس يديه في إناء ماء بارد ويمسح بهما جبينه لتبريد وجهه المضطرم بلفح الحمّى، وكان يواصل - في ساعات صفوه - الحديث مع أتباعه في شؤون الدين والآخرة. وكان أمر بقاء شرعته وتواصلها مصدر قلقه الأعظم، إذ لم يكن يحب أن ينحدر بنو قومه إلى الوثنية أبدًا، وكان يعتقد أنه لم يبلغ قطّ من الجهد ما يكفي لتحذير الناس من مغبة تأليه حواسّهم وغرائزهم، فقال يومًا: «ائتوني بحبر وبسعف النخيل، فإني أريد أن أكتب لكم كتابًا يجنبكم تلك الأوهام إلى الأبد»، فقال أتباعه في ما بينهم: «قد اختلف كلامه بسبب المرض، أليس لنا القرآن».

وأحسّ في اليوم الثالث بنفسه أحسن حالاً وأهدأ، فأراد أن يذهب مرة أخرى إلى المسجد ليحضر صلاة الصبح التي يؤمها أبو بكر مكانه. ثم أذن لأبي بكر أن يزور زوجته التي هو حديث عهد بها، وكان قد تزوجها بالمدينة، وكانت تسكن بعض بساتين النخيل في ضواحي المدينة.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري، ج ٣، ص ص ١٨٩ - ١٩٠ (طبعة القاهرة - دار المعارف ١٩٦٩).

ولما رجع إلى بيته، اضطجع على حصيره، وظل ساكنًا، صامتًا، كأنه في إغفاءة، مدّة ساعات عديدة، كان رأسه على ركبة عائشة، وكانت هي تراقب بالعين والأذن مغادرة روحه الجسد، ففتح عينيه فجأة وتمتم كلمات متقطعة، لم تميّز منها عائشة إلاّ هذا الدعاء: «اللهم !... نعم، في السماء!... مع ملاك الوحي ... الصديق السماوي!»

وأحست عائشة – عند هذه الكلمات – برأسه وقد صار أثقل ممّا كان – يخور بين يديها، فنظرت إليه فإذا بالنفَس يهجر شفتيه وبالنور يغادر عينيه. فوضعت رأس النبي على الوسادة، وغطّت وجهه.

فأسرع الناس وقد نبّههم النحيب المنبعث من بيت النبي، وهم لا يصدقون أنه مات، وقال عمر: «لا! إنه لم يمت، وإنما ذهب لزيارة ربه، مثل موسى الذي عاد بعد أربعين يومًا من اختفائه، رجع حيّاً إلى قومه».

وهرع أبو بكر عند سماعه نعي سيده، فرفع عن وجهه الثوب الذي كان يغطيه، وهو يبكي، وقبل قدميه الباردتين وصاح قائلاً: «ألا إنك كنت أعز عليّ من أبي وأمي! لقد ذقت إذن الموت المقدّر على جميع الأحياء» ثم التفت إلى الناس من حوله وهم لا يصدقون، فقال: «أيها المسلمون، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات! ومن كان يعبد الله، فإن الله حيّ لا يموت! أتراكم نسيتم بعد بعض آيات القرآن التي ذكر فيها محمد نفسه: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[1] أو الآيات التي من قبيل: ﴿وإنك ميّتٌ إنهم ميّتون﴾[2].

واختير أبو بكر، في ذلك اليوم نفسه، أثناء اجتماع المؤمنين، ليخلف محمّدًا، وسادت روح الوفاق فأدت إلى الإجماع على ذلك الاختيار، رغم بعض أمارات المنافسة التي أبداها عمر وعلي أول الأمر، ولكنهما لم يلبثا أن كانا أوّل من صادق على استخلاف أبي بكر أمام الحاضرين فصعد أبو بكر المنبر مكان النبيّ، وقال في تواضع: «لقد وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني، ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله، فلا طاعة لي عليكم».

---

(١) سورة آل عمران من الآية (١٤٤).

(٢) سورة الزمر من الآية (٣٠).

(١٠٣)

كان أول عمل قام به أبو بكر هو إقامة جنازة النبي.

وكان العباس وقد طعن في السن، وهو أخو أبي طالب وعم محمد، يشرف على جهازه: وُضع الجثمان تحت ظُلّة، وتولى عليّ غسله وعليه قميصه يدلكه من ورائه، وطيّبه ثم دخل الناس جميعًا أرسالاً يصلّون عليه، ثم تولّى علي وأبناء عمه حفر القبر في بيت عائشة، ودُفن في نفس الموضع الذي كان فيه فراشه، جنب فراش زوجته المفضّلة. وصار ذلك القبر منبرًا ينشر عقيدة وحدة الله في جزيرة العرب.

ذهب الموت بمحمد وهو في كامل قوته، قبل أن تمتهن الشيخوخة أيّا من مداركه العقلية أو قواه الجسدية وخاصة فصاحته وبلاغته في نظر أتباعه أوتنهكها.

كان في سنته الثالثة والستين، وكان جسمهُ سليمًا سلامة عقله. وكانت مهابة طلعته تؤيد - طبعًا - في من حوله من الناس فكرة سموّ طبعه وتفضيل الله إياه على سائر البشر العاديين. كان لا طويل القامة ولا قصيرها، شبيهًا - في ما أقدّر - بقامة موسى القويّة في التمثال الذي نحته إزميل (مايكل انجلو)، فقد كان دون الإله، وفوق الإنسان، كان نبيّاً.

كان في يديه ورجليه الحافيتين دومًا، بعض الغلظ، بعضلات قويّة قوّة تجعل قدميه تنغرسان في الرمل عند المشي ويديه تقبضان على السيف في حزم، كان رقيق البشرة أبيضها، مشربًا حمرة، وكنت ترى من تحت بشرته، شبكة عروق مملوءة دمًا هادئًا كريمًا، وكان صدره الأملط يتردد فيه نفس طويل متزن، وكان لصوته الجهوري الرنان، في صدره تردد الصدى يتجاوب في قبة، وكان أدعج العينين، ثاقب النظرة، ينبعث منهما بريق الحماس في أغلب الأحيان أو بريق الحسّ أحيانًا، وكان خفيف اللحية والشعر، أسودهما غير جعدهما[1]. وكان على كبر شدقيه لا ينبس إلاّ ليطبع حكمة أو ليرسل ما يأتيه من وحي على مسامع الناس، مثله في ذلك مثل الذين غالبًا ما يحاورون العالم الأعلى ويراعون

(١) تتفق كتب السيرة والتاريخ على انه كان «كثّ اللحية، ذا وفرة» انظر: الطبري، تاريخ الرسول والملوك، ج ٣، ص ص ١٧٩ - ١٨٠.

في أنفسهم عدة الوحي، وكان في ابتسامته من الذكاء ما يفوق البهجة، و في هيئته ما يشي بالجدّ والرفق، بيد أنه كان يحبّ - كما رأينا ذلك - الشبان والنساء والأطفال وكل ما فيه جمال الطبيعة وبراءتها، كان البهاء والحسن يملكان عليه أحاسيسه.

وكانت حياته حياة القناعة والشظف، بل والزهد، حياةً مفعمة تأمّلاً وصلاة وصومًا وخشوعًا لله، وهَوْنا في المشي ومواظبة على المسجد، وتطهّرًا وسجودًا على الرمل ووعظًا ودعوة إلى سبيل الله، ولم يكن يبدي - في علاقته بالناس - ترفّعًا عدا ما يلوح عليه من قداسة النبوة، ولم يكن فيه ولا حوله ما ينبئ بأنه ملك أو غازٍ، فقد كان كل ما فيه ينمّ عن النبي المرسل. كانت ثيابه ثياب الفقراء: كانت من قماش الصوف الخشن، وكان ينتطق بحبل مضفور من الوبر، ولم يكن يرضى أن يضع على رأسه ما كان بعض جنوده يضعون من تلك القلنسوات البيض من قماش الهند، إذ كان يرى في ذلك بذخًا وصلفًا، وكان يعيش على التمر ولبن ماشيته التي لم يكن يأنف من حلبها بنفسه، ولم يكن يستعين بغلمانه في ما يشق من أشغال بيته، إلاّ قليلاً، فقد كان يرد الماء ويكنس بيته، وكان يجلس على حصير ويخصف نعله ويرقع ثوبه القديم، ولم يكن له من مظاهر الرقة إلاّ الحرص على نظافة البدن، وقد جعل منها في القرآن صورة من طهارة الروح، كان يمشط لحيته بعناية، وكان يُكحّل جفنيه وحاجبيه، ويخضب بالحناء أظافره.

كان يستخدم - بدل المرآة - جردلاً مملوءًا ماء، حتى يرى فيه - على استحياء - صورته وهو يلف قلنسوته، ولم يكن يكنز ذهبًا ولا فضة، إذ كان يوزّع ما يجتمع عنده من الزكاة على الجنود والفقراء، ذلك أنه قد نذر على نفسه أن يكون فقيرًا، وكان يودع في أيدي الفقراء وفي قلوبهم كل ما كان يتلقى، إذ كان يرى فيهم أمناء مكلّفين بأن يسلّموه تلك الودائع في اليوم الآخر، في السماء.

كان فناء بيته، وأبواب المسجد المتاخمة له، وصحن المسجد، دار ضيافة شاسعة ومأوى رحبًا يأتيها المساكين واليتامى والمرضى ينشدون فيها إطعامًا من جوع وبرءًا من

سقم، وكانوا يدعون أَهْل الصُّفَّة، لأنهم كانوا يقضون حياتهم جالسين أم مضطجعين على الدكك التي كانت قرب بيت النبي. وكان محمد يزورهم كل ليلة فيواسي المريض ويكسو العريان ويطعم الجوعان تمرًا وخبز شعير من بيته، ويستضيف كل يوم عددًا منهم في بيته ليقاسموه الطعام، ويوزِّع الآخرين على الموسرين من أتباعه، باعتبارهم ضيوف الرحمن، وكان سلوكه مع الذين يخاطبونه - مهما اختلفت درجتهم - رفيقًا مفعمًا بالاحترام، ولم يكن ألبتة يسحب يده من يد مصافحه قبله، على ما يذكر المؤرخ (أبو الفداء)، وإذ لم يكن له أطفال يلاعبهم فقد كان يلاعب أطفال عليّ، زوج ابنته فاطمة، مثلما كان الملك (هنري الرابع) - على ما يحكى - يلاعب أحفاده، فحدث أن تسلّق ظهره يومًا - وهو ساجد وجبينه في التراب - أحد سبطيه اليافع، واسمه الحسين فظلّ النبي ساكنًا على ذلك الوضع إكرامًا للصبيّ حتى جاءت أمّه فأخذته وخلّصت أباها من ذلك الحمل.

وكان - يومًا آخر - قد أجلس في حجره إحدى حفيداته يداعبها، فرآه أعرابي وَثَنيٌّ على تلك الهيئة، فقال له يمازحه في جفاء وقسوة: «ما هذه النعيجة التي تضمّها وتداعبها، أيها النبيّ، قد كان لي العديد مثلها، ولكني وأدتهن جميعًا دون أن أضمّ أيًا منهن ولا قبلتها!» فقال محمد وقد أحنقه ذلك السلوك الشائن الذي كان عليه الأعرابي: «أيها الشقي، لا بد أن يكون قلبك قد نُزع منه كل إحساس طبيعي، فأنت لا تعرف أحسن ما رُزق الإنسان من متعة»

وكان كثيرًا ما يردد: «حُبِّب إليّ من مباهج الدنيا الأطفال والنساء والعطر، وجُعلت قرة عيني في الصلاة».

وكرّس محمد حقوق الملكية للنساء، وقد كنّ - إلى ذلك العهد - محرومات من كل حق في أن يمتلكن شيئًا، في سياق الحياة الزوجية، وأوصى بالأرامل أولادهن وجعل «الجنة تحت أقدام الأمّهات».

وقد غدت ماشيته - من الإبل والشياه بعد وفاته وهي تركته الوحيدة - ملكًا لبيت المال على أن يضمن قوت أرامله وغلمانه، وقد قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نُوَرِّث، ما تركناه صدقة».

(١٠٤)

تلك إذن كانت أطوار حياة محمد وبعثته وموته. فما من إنسان ألبتّة رسم لنفسه – عن قصد أو غير قصد – إدراك هدف أسنى ممّا نوى هو أن يبلغ، إذ كان هدفًا يفوق طاقة البشر: نسف المعتقدات الزائفة التي تقف بين المخلوق والخالق، إرجاع الله للإنسان وإرجاع الإنسان لله، بعث فكرة الألوهية المجرّدة المقدسة في خضم فوضى الآلهة المادية المشوهة، آلهة الوثنية.

وما من إنسان ألبتة، أقدم، بما كان له من عدة هزيلة، على إنجاز عمل مفرط الضخامة قياسًا إلى القوى البشرية، إذ لم يكن له في تصوّر ذلك المشروع العظيم وتنفيذه من أداة سواه هو نفسه، ومن مساعدين إلا حفنة من غلاظ كانوا يسكنون ناحية من نواحي الصحراء.

وما من إنسان ألبتة – في نهاية المطاف – قدر على أن ينجز في وقت أوجز ثورة على الأرض أعظم ولا أبقى مما أنجز هو، إذ إن الإسلام، كان في أقل من قرنين بعد دعوته، يسود سلمًا أو عنوة، كامل أنحاء جزيرة العرب ويفتح بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر والهند الغربية والشام ومصر والحبشة وكامل الجزء المعروف عندئذٍ من إفريقيا الشمالية، وعديد الجزر بالبحر المتوسط وإسبانيا وجزءًا من بلاد الغال.

فإذا كانت عظمة المقصد وضآلة العدة، وضخامة النتيجة مقاييس عبقرية الإنسان الثلاثة، فمن يجرؤ أن يقارن – على الصعيد الإنساني – أي عظيم من عظماء التاريخ الحديث بمحمّد، إذ إن أبعدهم في الشهرة لم يهزّ سوى أسلحة وقوانين وممالك، ولم يؤسس (إن كان أسس شيئًا) سوى قوة مادية غالبًا ما انهارت قبل أن ينهار هو. أما محمد، فإنه قلقل جيوشًا، وتشريعات وزرع ممالك وهزّ شعوبًا وعروشًا وملايين البشر على ثلث اليابسة المسكونة، بل إنه هزّ فوق ذلك معابد وآلهة وأديانًا وأفكارًا ومعتقدات

وأرواحًا، وأقام، على أساس كتاب صارت كل كلمة فيه قانونًا، انتماء إلى أمة روحية تجمع شعوبًا من مختلف اللغات والأجناس، وطبع في تلك الأمة الإسلامية بأحرف لا تمّحي، مقت الآلهة الزائفة وعشق الله الواحد المجرّد. إن ذلك الحماس الذي ثار من تدنيس السماء بالشرك هو فضل أمة محمد، وإن نشر شريعته على ثلث الأرض هو معجزته، أو فلنقل إنه ليس معجزة رجل، بل هو معجزة الفكر. ذلك أن فكرة وحدة الله التي نادى بها زمن كلال آلهة الأوثان الزائفة قد كان فيها - هي ذاتها - من الفضل، ما جعلها - بمجرّد أن لفظتها شفتاه - تضرم النار في معابد الأوثان القديمة، وتضيء بأنوارها ثلث العالم.

(١٠٥)

أكان هذا الرجل دعيًا كاذبًا؟ لا نعتقد ذلك، بعد أن مَحَّصنا بالدرس تاريخه. إن الكذب منافقة الاقتناع، وليس للنفاق قوة الاقتناع، كما أن الكذب لا تكون له ألبتة قوة الصدق.

فإذا كانت قوة الإسقاط في علم الميكانيكا هي المقياس الدقيق لقوة الدفع، فإن العمل - في مجال التاريخ - هو كذلك مقياس الإلهام. إن فكرة تبلغ ذلك المبلغ الرفيع ويكون لها ذلك الصدى الواسع، وتعمّر قرونًا طويلة لهي فكرة على درجة عظيمة من القوة، ولكي تكون لها تلك القوة، فلا بد أن تكون صادقة كل الصدق مخلصة كل الإخلاص.

غير أن حياته، وخشوعه، وشجاعته في تسفيه آلهة قومه ومعتقداتهم، وجرأته في مواجهة سخط الوثنيين، وثباته على احتمالهم خمس عشرة سنة في مكة، ورضاه بأن يكون مثار سخرية بني قومه بل وبأن يكاد يكون ضحيتهم، وهجرته، ودعوته دون هوادة، وحروبه المتفاوتة القيمة وثقته بالنجاح والظفر، ونجاته بما يفوق طاقة البشر، عند الهزائم، وعفوه وحلمه عند النصر، وطموحه إلى تحقيق فكرة لا إلى بناء ملك، وصلاته التي لا تنتهي، وحواره الصوفي مع الله، وموته وما حاز من مجد بعد وفاته، كل ذلك يشهد بأننا بإزاء ما يتجاوز الإدعاء، بإزاء إيمان واقتناع. فقد زوده إيمانه واقتناعه بالقدرة على بعث عقيدة،

كانت مزدوجة: كانت عقيدة وحدة الله، وعقيدة تجريده من المادة، فإحداهما تنبئ بماهية الله، والأخرى تنبئ بما ليس من الله، وإحدهما تهدم بالسيف الآلهة الزائفة، والأخرى تدشن بالكلمة فكرة.

إنه فيلسوف، خطيب، نبي، مشرّع، مقاتل، فاتق أفكار، باعث عقائد في شريعة لا صور فيها ولا تماثيل، مؤسس عشرين مملكة على الأرض ومملكة روحية، ذاك هو محمد.

ومهما تكن المعايير التي نقيس بها العظمة الإنسانية، فإننا نتساءل: أي إنسان كان أعظم منه؟

****

السفر الثاني

(١)

ظل فكر محمد على الأرض بعد وفاته، يطفئ أوار المنافسات التي كان يمكنها أن تنسف ما بنى بانقسام المتزاحمين على خلافته، وظلت روحه تحكم أصحابه وأتباعه فترة بعده، وحدٌّ الإيمان والحماس ونكران كل تفضيل للذات على الآخر، من رغبتهم في الفوز بالسلطة، فضحّوا - مدفوعين بالتقوى - بما في قلوبهم من نوازع إنسانية من أجل ما كان حقًا في بعثة محمد: القضاء على الأوثان وعبادة الله الواحد.

وما إن سُمّي أبو بكر خليفة لرسول الله حتى أمر المقاتلين بالمدينة، وكانوا قد جمعوا لغزو الشام، بأن يخرجوا إلى الفتح تنفيذًا لأمر النبي بعد وفاته..

غير أن عمر - وكان محمد قد عيّنه ليكون ضمن تلك الحملة - ظل متردّدًا في الإذعان للأمر، خوف أن يُلحق غياب أفضل جنود الإسلام عن يثرب أثناء الاضطراب الذي أحدثه موت محمد في جزيرة العرب، ضررًا بالمدينة وبالدين وبحكم الخليفة، وتحدّث بذلك الخطر إلى أبي بكر وألحّ عليه إلحاحًا، ولكن أبا بكر، وقد أنكر عليه ذلك وأخذ لحيته وعاتبه على ضعف إيمانه بوعد الخالق، قال له: «لا، ولو سقطت المدينة في براثن الوحوش الكواسر، لن انقض أمرًا أمر به النبي، ولا بد أن تتم إرادته بعد موته كما كانت تتحقق خلال حياته».

وانطلق الجيش تحت إمرة الشاب أسامة، الذي عيّنه محمد قائدًا لتلك الحملة، رغم قلة حنكته وخبرته، وصاحب أبو بكر جموع الجنود إلى أن توقف الجيش للمرّة الأولى، وكان يمتطي جوادًا، ويسير إلى جانب القائد الشاب تأكيدًا لواجب أن يحترمه الجند،

وحينما همّ بمغادرته ليعود إلى المدينة، قال له في احترام وتقدير: « أود أن أبقي معي عمر أستشيره في ما سيعرض للمدينة من مكاره أثناء غياب أفضل مقاتليها عنها، فانظر إن كان يسعك أن تدعه لي دون أن يكون في ذلك خطر عليك !»

فسارع أسامة إلى إعفاء عمر من المشاركة في الحملة، فأمر أبو بكر - عندئذٍ - بأن ينتظم الجيش من حوله في شكل حلقة وقال لهم: « يا جند الإسلام، توقفوا ساعة وأنصتوا إلى المبادئ التي سأسنها لتتبعوها زمن الحرب: قاتلوا في شجاعة وإخلاص ! لا تلجأوا إلى الخداع والمكر مع أعدائكم، ولا تمثلوا بالمهزومين، ولا تقتلوا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء، ولا تقلعوا النخيل ولا تحرقوا الزرع ولا تقطعوا الشجر ولا تنحروا الدواب إلاّ لمأكلة، وسيعرض لكم في طريقكم رجالٌ يعيشون في الوحدة وفي التأمل وفي عبادة الله، فلا تمسّوهم بأذى ولا تغلظوا لهم في القول».

ولم يستثن من حرمة الضعفاء والرهبان المسيحيين وحصانتهم في الحرب إلاّ الذين يدعون الناس إلى خلاف مبدأ وحدة الله.

إن هذا البرنامج الذي أمر به يومئذٍ قائد عرف عندنا بأنه جلف، عصابةً من بدو الصحراء، مايزال - إلى اليوم - بتسامحه وببعده الإنساني، يقوم نقيض بيانات الحرب التي يصدرها قادة جيوش ينتمون إلى دين أبعد في الأخوّة من دينه، وإلى حضارة أرقى بدرجات من حضارته.

(٢)

كان خبر وفاة محمّد قد أثار بين بعض العرب - كما كان عمر قد توقع - صيحة ريبة وكفر، إذ وقر في اعتقادهم البسيط أنه وهب الخلود على الأرض، فقالوا: « لو كان نبيّا حقّاً، كيف يموت؟»، وارتد عدد كبير عن الإيمان، وثارت مكة على الوالي الذي عينه محمد، واسمه (عتّاب بن أُسيْد)، فقال للثائرين: «لئن مات محمد، فإن عقيدته ظلت حيّة، وسينتشر أمرها، و يتعزز سلطانها وتقضي عليكم».

أما قبائل الصحراء، فكانت في مهبّ الشك والفوضى، وظهر بينهم أنبياء زائفون يطوفون بهم ليرثوا ما كان لمحمد عندهم من الإجلال والسلطان، فتألفت - في غضون أسابيع قليلة - أحزاب تضاهي القبائل عددًا، وحاصر المتمردون المدينة، وأرسلوا الرسل إليها يعلنون أنهم لن يدفعوا الجزية، فأشار عمر وأهل السياسة بالمدينة، وقد دعاهم أبو بكر للتشاور، بالتأني والمصالحة ريثما يعود الجيش ويعزز سلطة الخليفة. غير أن أبا بكر ظل على صرامته وصاح: «لا !لا! إن الشرع يحرّم علينا مصالحة من ارتدوا عنه ويمنعنا من أن نشك في نجدة الله لنا في المعارك التي نخوضها فيه ولو وجب أن أقاتل بمفردي هذه الجحافل من المتمرّدين لفعلت، أسوة بالنبي الذي لم يحص قط أعداءه».

فخجلوا لما عراهم من وهن، وقد أربكهم حماس أبي بكر، فصرفوا الرسول الذي جاء يفاوضهم، وقال عمر: « بنفس أبي بكر وحده من الإيمان ما يفوق ما بأنفسنا جميعًا»، وأقبلوا يقاتلون، وهزَم أبو بكر جموع المتمرّدين وردهم على أعقابهم إلى الصحراء، وأمر فرسانه بملاحقة فلولهم، فابتكر الفارّون حيلة أنجتهم من سيوف المسلمين، فقد نفخوا قربًا جروها وراءهم بحبال طوال، فكان مظهرها الغريب وما كانت تحدث من دويّ في تدحرجها ممّا يثير الخيل ويخيف الإبل التي كان يركبها جنود أبي بكر، فرجعت الدواب فزعة براكبيها إلى المدينة. غير أن ما حازه أبو بكر من النصر في معارك أخرى عديدة ردّ إلى الخليفة هيبته، ورجع جيش أسامة إلى المدينة منصورًا أيضًا، فضاعف من قواه وأمكنه بذلك أن يخضع كل ما كان حوله في منطقة نجد.

ولكن، بينما كان يحقق نصرًا تلو نصر في أقاصي جزيرة العرب، ظهرت امرأة عربية من بلاد ما بين النهرين، هي (سجاح بنت الحارث بن سويد)، وأعلنت أنها قد استولت عليها روح النبوة، فجلبت إلى معتقدها عرب الشام، وخرجت على رأس جيش حرّضته بفصاحتها وبيانها وحسنها لغزو اليمن.

فتحصّن مسيلمة في هجر، وكان قد ادعى النبوة أيضًا، وارتعد فرقًا من أن يرى مدينته يجرفها طوفان تلك الغزوة، وبعث إليها من هناك بالهدايا ودعاها إلى المدارسة

والتعاهد على السلم. فضُربت لذلك اللقاء قبة عظيمة بين الحصن والمعسكر، وتحادث القائد المتمرّد والمقاتلة الشابة، دون شهود، ردحًا من النهار. وانتهى الحديث بزواج بينهما يرسّخ السلام، واتبعت سجاح دين زوجها، ورجعت بجيشها إلى الشام محمّلاً بالغنائم، ولم ينل زواجها من مسيلمة شيئًا من هيبتها ولا من طاعة أتباعها لها، فعاشت وماتت في سلام في تلك القبائل التي قادتها إلى الظفر.

(٣)

أما أبو بكر، فقد أخضع ما تبقى من بلاد العرب بفضل أمراء جنده، فقد جال خالد، وكان من أشجع القوّاد، في أنحاء الجزيرة يضرب حينًا ويعفو حينًا آخر، واستسلم له أحد قادة المرتدين، واسمه (مالك بن نويرة) وكان زوج امرأة من أحسن نساء الصحراء كان خالد قد أحبها في ما مضى من حياته - وطلب عفوه، فقال خالد لفرسانه: «سلوا سيوفكم !» فارتمت زوجة مالك، واسمها ليلى، عند قدمي القائد المظفر، وقد كشفت عن وجهها وأرسلت شعرها، تتوسل إليه أن يبقي على زوجها، فصاح مالك المسكين، وقد رأى زوجته تسفر عن مفاتنها: « آه، هذا هو سبب موتي حقًا!» فقال خالد: « سبب موتك هو ارتدادك عن عقيدة النبي، إن يد الله هي التي تضربك، لا يدي!» فتدحرج رأس الزوج عند قدمي زوجته.

غير أنه فنّد قوله ذاك من غد، بزواجه من ليلى أرملة ضحيته، فأثار ذلك سخط الجند وتصايحوا به، وغادر الجيش عدد منهم ورجعوا إلى المدينة يشكون صنيعه، وأشاعوا حول الخليفة قولهم: « لقد نكل بالأسرى، وقتل رجلاً ليتزوج أرملته»، فرجاه عمر بأن يعاقب المذنب، فقال أبو بكر: «لا، سأصلح ما تسبب فيه من أذى، ولكني لن أعيد إلى الغمد سيفًا سلّه الله نفسه على الكافرين».

ولم يلبث أن رجع خالد منتصرًا إلى المدينة، يطلب من الخليفة الصفح عنه وتبرئته، وكان قباؤه مسودًا من صدأ لأمَتِه وسلاحه، وعمامته قد غرزت نبالاً كانت أصابته في

المعارك، وكانت جموع من المسلمين المنكرين عليه قسوته يترصدونه عند أبواب المدينة، ولم يتمالك عمر، عند رؤيته، من كبت غضبه، فرفع يده إلى عمامة خالد وانتزع منها الأسهم في ازدراء وكسرها على ركبته وصاح به: «أهذا أنت إذن! قتلت امرأً مسلمًا لتستمتع بزوجته! إليك عني، لا تنتظر مني أن أمنع رجمك لإساءتك إلى دين النبي!» إننا لنتبيّن بهذا مدى الوهم التاريخي في ما ينسب إلى عمر من شراسة وقسوة تفندهما أفعاله وأقواله بالمدينة. ولم يجبه خالد بشيء انتظارًا لإدانته أو تبرئته من فم الخليفة، وحينما خرج من لقاء أبي بكر، وقد عذره في ما أتى، مشى نحو عمر في تحدّ وقال له: « يا ابن أم شملة، أ مازالت في نفسك خصومة تنازعني بها؟» فمكث عمر ساكتًا، ولم يجرؤ على معاقبة ما كان الخليفة قد عفا عنه، غير أنه ظل دومًا متهمًا خالدًا بافتقاره للإنسانية.

(٤)

وأرسل أبو بكر خالدًا مرّة ثانية، وقد عززه بالمدد، ليخضع بقايا المتمرّدين فأنقذت (ليلى) – وقد غدت زوجة خالد كما مرّ بنا – أسيرًا من سيف زوجها في بعض المعارك بأن أجارته في خيمتها، فهجم على مخيم خالد، في اليوم الموالي، جماعة من فرسان الأعداء، ودخلوا خيمة خالد شاهرين سيوفهم وهمّوا بطعن ليلى، فإذا بذلك الأسير الذي أجارته يهبّ إلى نجدتها وحمايتها منهم.

وخلّف خالد في آخر النهار، وكان منتصرًا، عشرة آلاف جثة من أعدائه، في الرّغام.

أما الزنجي «وحشي»، وقد اعتنق الإسلام، فقد أنفذ يومئذٍ حربته المسنونة في قائد جيش الأعداء، وقال وهو يعرضها: «هذا هو السلاح الذي قتلت به خير الناس وشر الناس» وكان يشير، بتلك الكلمات، إلى مقتل حمزة، عمّ محمد الموقّر، وقد طعنه بها في جبل أحد، مدفوعًا وقتئذٍ بتحريض نساء قريش، زمن كان يعبد الآلهة الزائفة. ودخل خالد «هجر» مظفرًا، وكانت معقل المتمرّدين، فعفا عن سكّانها، وتزوّج ابنة (مجّاعة بن مُرارة)، رأس بني حنيفة، فكتب إليه أبو بكر: «ألا تستحي من أن تطلب اللذات بزواج جديد وحول بيتك دم عدد جم من المسلمين الذين قتلوا ليتحقق لك النصر، لم يجفّ بعد».

وكان من بين القتلى ما يزيد على الستمائة من أهل المدينة، وفيهم عدد كبير من أصحاب محمد والتابعين الذين كانت ذاكرتهم، إلى ذلك الحين، هي المرجع الوحيد للقرآن وشرحه والتعليق عليه. فخشي أبو بكر أن تندثر تعاليم النبي وأحاديثه باندثار ذكريات الأحياء الذين أخذوا ذلك سماعًا منه، فأمر بجمع كل أجزاء الكتاب، وكان بعضها مكتوبًا على سعف النخيل، وبعضها على جلود الخرفان أو الغزال، وبعضها الآخر لم يُدوّن قط. فألّف لذلك ضربًا من المَجمع لتحرير القرآن وتنسيق أجزائه، كان متكونًا من أجلّ الرجال قدرًا و أحرصهم على المواظبة على الاستماع إلى محمد، وكلّفهم بتحرير مصحف كامل يتخذ أنموذجًا للقرآن يرجع إليه في سائر نسخ الكتاب، وعهد بتلك النسخة الفريدة إلى حفصة بنت عمر، وكانت إحدى أرامل النبي.

(٥)

وحينما استتب الأمر لأبي بكر، بفضل أمراء جنده، على كامل الجزيرة إلى عدن، أرسل قواده وجيشه نحو الفرات ونحو دجلة بالعراق، وكان خاضعًا لملك الفرس. فسار خالد إلى الحيرة، وكانت مدينة كبيرة، عاصمةً لبعض العرب التابعين لملوك الفرس، بعد أن عرّج على جزء من الخليج على رأس عشرين ألف مقاتل مسلم من قبائل الصحراء، حملهم إيمانهم على الانضمام إليه.

فانتظره هرمز، حاكم العراق، بالحفير، وبدأت المعركة بالمنازلة، بين القائدين، على مرأى من الجمعين، بيد أن هرمز، وقد قتله خالد في تلك المنازلة، ترك جيشه بلا قائد. ولكن الفرس، في عزمهم على النصر أو الموت، قيّدوا أرجل بعضهم بعضًا بسلاسل الحديد حتى يمتنع عليهم الفرار، فقتلوا جميعًا بسيوف العرب ونبالهم.

وقسّمت الأسلاب والغنائم بين المنتصرين، فكان من نصيب خالد قلنسوة هرمز الفارسية، وهي كالتاج مرصعة بجواهر لا يقدّر ثمنها. وبدأ المسلمون - وكانوا إلى ذلك الحين يقاتلون وهم بدو فقراء - ينشدون في النصر جزاءً آخر غير الجنة. فقد فتح ذلك

النصر، نصر يوم السلاسل - إشارة إلى حلق الحديد التي ربط بها الجنود الفرس بعضهم إلى بعض - بلاد بابل وبلاد فارس أمام جيش خالد، فواصل مسيره مراعيًا - حيثما حل - خصائص أهل تلك البلاد وعاداتهم، لا يطلب منهم إلا جزية خفيفة الوطأة، علامة على خضوعهم.

واعترضهُ جيش فارسي ثانٍ قرب المذار، فهزمه خالد وألقى ثلاثين ألف فارسي في النهر، فسميت هذه الوقعة الثانية بيوم الثِّني. وخضعت الحيرة دون مقاومة، وكان الهلع الذي يثيره ذكر اسم خالد، يسبقه، وكان عدد المسيحيين بالحيرة كبيرًا، فدعا خالد برؤسائهم، وحينما أحضروا أمامه خيّرهم بين ثلاث: دفع الجزية، أو اعتناق شريعة محمد، أو القتال حتى ينتهي أمر إحدى الديانتين. ففضل المسيحيون دفع الجزية والبقاء على دينهم، فقال لهم خالد يلومهم على ثباتهم: «أيها الحمقى! إنكم مسافرون ضللتم الطريق في الصحراء، وجاءكم دليلان (يعني عيسى ومحمدًا)، أحدهما غريب عنكم، والآخر من قومكم، وتسلمون قيادتكم للغريب ينجيكم!».

وكان خالد - أثناء الحديث - ينظر تكرارًا إلى كيس صغير من الحرير المقصب بالذهب مشدودٍ إلى حَقْوِ ابن حاكم الحيرة، وبعد أن حدد شروط المهادنة، أخذ ذلك الكيس الصغير في فضول، وفتحه، فسقطت منه في يده أقراص صغيرة لم يكن يعرف كنهها. فسأل الشاب: «ما هذا؟» فقال: « هو سمّ ذعاف» فقال خالد: «وما كنت تبغي أن تفعل به؟» فقال: « أمنع نفسي منك بالموت، إن وجدناك دون رحمة ولا شفقة!» فقال خالد: «إن للموت أجلاً مكتوبًا على كل واحد منا، وليس بوسع أحد أن يقدّمه أو يؤخره» ثم نطق باسم الله الرحمن الرحيم، وابتلع أقراص السم كلها، رغم ما بذل الحاضرون من جهد ليمسكوا بيده عن فمه، وقال: « ما من شيء يضرّ بالإنسان إذا ذكر في إيمان مطلق اسم العزيز القويّ» فكان الذين من حوله يتوقعون في كل حين أن يروه قد خرّ بلا حراك عند أقدام الفرس خاصة وقد نز جبينه عرقًا باردًا وامتقع وجهه امتقاعًا، وفي ذلك أمارة الموت، ولكن تلك الأعراض لم تلبث أن زالت، فمسح بيده العرق البارد عن وجهه، وعاد إليه لون العافية،

فأذهل الفرسَ ذلك العملُ الجسور الناجم عن تسليم بالقدر، وقال له مرزبانهم: «إن كان جميع المسلمين مثلك، ملكتم العالم».

وبعد أن رتب خالد أمور الحيرة وما جاورها، أرسل إلى أكابر بلاد فارس الرسالة التالية: «باسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى مرازبة الفرس، العزة لله الذي أطاح بمملكتكم، وكسر مجد قوتكم! كونوا معنا في عقيدة الإسلام واعترفوا بأنكم رعايانا، وسواء أحببتم أم كرهتم، فإنكم ستخضعون لديننا، لأنه سيحمله إليكم قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»

(٦)

كانت بلاد فارس عندئذٍ في فترة فراغ في السلطة، تشكو التفكك نتيجة تنازع المرازبة وخلافاتهم، فاستنجد قواد الجيش بالروم، وكانوا معسكرين في تخوم بلاد ما بين النهرين، على حدود فارس، فاجتاز الروم - وقد انضموا إلى الفرس - نهر الفرات قصد إيقاف خالد عن غزواته، غير أن خالدًا هزم الجيشين جميعًا في اليوم نفسه.

وبينما كان الجيش المظفر يقترب من الحيرة محمّلاً بالأسلاب والغنائم، قرّر خالد - مدفوعًا في ذلك بوازع من التقوى كانت انتصاراته تتيح له إرضاءه - أن يحج، فتسلّل من بين جنوده، بدعوى أنه يسبقهم إلى الحيرة، وقصد مكة وحيدًا فقطع الصحراء على بعير في خط سويّ، فوصل الكعبة وأدى المناسك دون أن يتعرفه أحد من الناس، ورأى الخليفة أبا بكر ولم يكلمه، وركب بعيره مرة ثانية وعاد أدراجه فقطع الجزيرة كلّها والتحق بجيشه في اليوم الذي كان جنده يدخلون الحيرة.

(٧)

وبينما كان خالد يعدّ العدّة، بالحيرة، لغزو بلاد فارس كلّها، أعلن أبو بكر - بالمدينة - الجهاد على الروم، سادة الشام وقتئذٍ، فمشى أمراء الجند في ألوية عديدة لغزو مختلف مدن الشام وأقاليمه.

وكان هرقل – إمبراطور الروم عندئذٍ – قد ملّ الحروب وأثقلته وطأة مملكة كان عليه أن يدعم أطرافها على بعد الشقة، فرغب في مصالحة الفاتحين، غير أن المسيحيين المتحمسين من أهل بلاطه اتهموه بالتهاون، فلم تثمر جهود الروم إلاّ بعض الحدّ من نسق تقدم الفتح، وإذا بالمسلمين يبلغون – في الحملة الأولى – قلب بلاد ما بين النهرين، ويصلون إلى ضفاف النهرين اللذين يرويان سهل دمشق الخصيب. فبدت تلك الأرض وتلك المياه الجارية وتلك البساتين، وجدران دمشق الناصعة البياض من خلال ظلال الصفصاف، بدا ذلك كله لعرب الصحراء صورة من الفردوس الأرضي الذي تصوّره قصصهم على هيئة تلك الغوطة.

وقبل أن يواصل أبو بكر مسيرته في الفتح إلى لبنان وإلى البحر، كتب إلى (عمرو ابن العاص)، وكان من أشدّ أتباعه ثباتًا في الحرب وصبرًا عليها، وأمره بأن يجمع المقاتلين من القبائل، وبأن يأتي بهم إلى دمشق تعزيزًا ورفدًا لسيل الإسلام العرم، وكان عمرو حينئذٍ واليًا على بعض قبائل رعاة الإبل يحكمها في سلام، فتلقى ذلك الأمر على مضض ولكنه لم يتردد في الطاعة.

فكتب إلى الخليفة: «إني سهم من سهام الإسلام، وقد وضع الله القوس في يدك، وإنه لك أن تسدّد السهم إلى الهدف الذي ترى».

(٨)

كان ذلك العسكر كله – تحت إمرة أبي عبيدة ويزيد[1] – وقد اجتمع في ذلك الوادي العريض الطويل من شمال الجزيرة، حيث يسيل نهر الأردن باتجاه البحر الميت، وظل ينتظر مقارعة ستين ألفًا من جند الروم يقودهم أمراء جيش هرقل، فكتب أبو بكر – وقد أُخبر بما يحيق بجيش المسلمين من خطر – إلى خالد – وقد هزم الفرس – يأمره بترك غزواته في بلاد فارس إلى حين، وتعزيز الجيش الإسلامي في الشام. فأطاع خالد الأمر،

(١) أبوعبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان. (المراجع).

ووزّع جنده على لواءين، وأوكل لأحدهما الحفاظ على ما افتتح من البلاد، وأمر الثاني بأن يسير معه إلى الشام، وكانت المفازة التي كان عليه أن يجتازها صحبة عشرة آلاف رجل، مترامية الأطراف، لا عهد له بها، فلم يكن يهديه فيها إلا النجوم. وعرض عليه بعض البدو أن يكون دليله، فمشى القوم خمسة أيام بلياليها دون أن يلقوا في طريقهم رشح ماء في تلك الوهاد الرملية، فنضب ماء القرب في سقاية الرجال والدواب، وكان البدويّ خبيرًا بمثل تلك الحال من الشدة والظمأ، فنصح خالدًا بأن يلجأ إلى مورد فيه من القسوة ما فيه، غير أنه لا مندوحة عنه لإنقاذ الجند من الهلاك، فاختيرت أضخم نوق بلاد فارس وأسمنها، ومُنعت من الماء أيامًا، ثم أخذت إلى ضفة نهر، فأقبلت على الماء تعبّ منه عبًا على قدر ما طال عطشها، فغدت بذلك قربًا حيّة كانت تتبع الجيش دون أن يكون على ظهورها حمل، فكان العسكر ينحرون كل مساء عددًا منها، وكان الماء الذي في بطونها يروي جند الجيش الإسلامي وخيوله.

(٩)

ولكن، بينما كان خالد يجتاز الصحراء تنفيذًا لأمر أبي بكر، حضرت المنية الخليفة بالمدينة من مرض مفاجئ، فأمر بأن تكتب وصيته وعيّن (عمر بن الخطاب) خليفة له، فقال له خلطاؤه: «سيكون عمر شديدًا جدًا على المسلمين» فقال لهم: «لا، ليس عمر بالشديد إلا إذا كنت أنا رقيقًا، ولكني رأيت أني إذا كنت صارمًا، طلب مني دومًا الصفح عن المذنبين».

فأُدخل عمر، فقال له أبو بكر: «قد عقدت لك الخلافة»، فرجاه عمر أن يستخلف من هو أحق بذلك منه، وقال له إنه لا يطمح ألبتة في تقلّد تلك المسؤولية العليا. فقال أبو بكر: «أعرف ذلك، ولهذا استخلفتك، فلست بحاجة إلى الخلافة، ولكن الخلافة في حاجة إليك». واعتمد على ذراع أسماء – زوجته – ومشى بعناء حتى بلغ نافذة في بيته مفتوحة على ساحة المدينة وكانت تعج بالناس ينتظرون – في قلق شديد – كلماته الأخيرة، فقال لهم في صوت خافت: «أيها المسلمون، لقد عقدت لعمر الخلافة من بعدي، فهل تقبلونه؟» فقال الناس بصوت واحد: «نرضى به». ولفظ أبو بكر أنفاسه والناس يثنون على خلافته، وقد

قال أبو بكر في توديعه المسلمين: «إن قوتي وقوت أسرتي، زمن خلافتي، قد كلف المسلمين ثمانية آلاف درهم، وإني أوصي لهم بالبستان الذي أملك بظاهر المدينة، تعويضًا لهم لما أصبت من أموالهم».

كان ذلك همّ رجل كان بيده أمر غنائم جزيرة العرب والعراق والشام وجزء من بلاد فارس وإمبراطورية الروم.

(١٠)

كان عمر معروفًا بين الناس: رحيم القلب، مثالي الإيمان، لم يكن له طموح شخصي، ولكنه كان ذا طموح في فتح البلدان لنشر كلمة ربه، فكان لذلك ملائمًا تمام الملاءمة لتركيز دين لم يكن بعد يطمع في شيء لأتباعه، بيد أنه كان يطمع في أن يكون الكون على شرعة ربه.

وما إن قبل عمر الحكم حتى تذكر قول النبي: «لا يُترك بجزيرة العرب دينان» فنفى النصارى واليهود خارج الجزيرة، وأمر لهم - لتعويضهم عن ذلك - بأراضٍ ومنازل في ما فتح من العراق وفارس وبلاد ما بين النهرين.

وفيما كان - أثناء ذلك - يجتهد في استبعاد كل ما قد يثير خلافًا في جزيرة العرب، كان خالد الباسل - وقد بلغ الشام عبر الصحراء صحبة لواء من الجيش الذي كان بفارس - يقاتل الروم على رأس خمسين ألفًا من أهل الشام اعتنقوا الدين الجديد، وذلك قرب أجنادين، فسقط تحت ضربات سيوف المسلمين في تلك المعركة من جند هرقل وأتباعه مائة وعشرون ألف رجل حسب المؤرخين العرب، وأربعون ألفًا حسب الروايات البيزنطية. ولفّ أمير جند هرقل وكبار قواده في تلك المعركة رؤوسهم بأثوابهم - كما فعل قيصر روما من قبل - ليموتوا.

كانت ريح جزيرة العرب تطيح بكل ما يعترضها، وتلقى خالد - وهو في ميدان المعركة - بريدًا من المدينة ينعى إليه أبا بكر ويعلمه بأنه عُزل عن قيادة الجيش. فلم يندهش لما انعقد إزاءه من غيظ في نفس عمر، وقد أحفظه أن قتل زوج ليلى. فسلّم إمارة الجيش دون

تردد إلى أبي عبيدة، إذ عيّنه عمر على رأس العسكر، وكان خالد أثناء ذلك سعيدًا بتدني مرتبته سعادته بقيادة أمراء جند المؤمنين وتقدمهم.

أما فلول جيش الروم، فقد لاذت بوادي الأردن قرب بحيرة طبرية، تلك البحيرة الشهيرة التي شهدت معجزات المسيح، وملأت المدى ما بين بيت المقدس ومدخل مصر.

وكان أبو عبيدة يريد أن يسير على إثرهم إلى تلك المواضع، فاستشار عمر، فقال: «عليكم بالقلب فاضربوه» وكان القلب دمشق، عاصمة الشام العظيمة الثرية، ومفتاح بلاد الرافدين ولم تكن القسطنطينية ولا الإسكندرية تضاهيانها، لا في عدد السكان ولا في الصناعات والحرف ولا في خصب الأرض ولا في الثراء، وكانت أسوارها تعانق أنهارًا ثلاثة وبساتين غنّاء.

(١١)

وأرسل هرقل جيشًا ثانيًا لحماية دمشق والدفاع عنها، فاعترضه المسلمون في مضايق حمص وشعابها بينما كانت أوفر جموعهم تحاصر المدينة، صمدت دمشق أربعة شهور في بسالة اليأس، وكانت أربعة جيوش قد ضربت عسكرها عند أبوابها الأربعة دون أن تقدر على كسرها، وكان خالد، وقد ضُم لأبي عبيدة، أمير أحد تلك الجيوش، وكان حنقًا لإبطاء الفتح، فكان يجول، ذات ليلة، وحيدًا حول أسوار المدينة، فسمع بداخلها صوت آلات موسيقى، فقد كان حاكم دمشق قد بدأ يفاوض أبا عبيدة ويحتفل بميلاد ولد له، وكان العسس على السور ينالون حظًا من تلك الأطايب فينشغلون عن مواقعهم، فانتخب خالد عددًا من شجعان أصحابه الذين ساهموا في انتصاره بفارس، فأرسل الأوهاق على شَرفات السور عند المتاريس التي تركها الحراس، وتسلّق تلك الحبال التي على هيئة السلالم، يتبعه صحبه، وصعدوا إلى السور، فذبّح حرس الباب، ثم فتحه للجيش، وأسرع إلى داخل المدينة حرقًا وقتلاً. فأفاق أهل المدينة على صيحة أرعبتهم، صيحة: «الله أكبر، ومحمد نبيّه!» وخروا سجدًا أمام الظافرين يسألونهم الإبقاء على

حياتهم وإطفاء ألسنة اللهب، وغلب حزم أبي عبيدة في الدعوة إلى الرفق والرحمة، وغَدَا كل ما كان للروم غنيمة للمسلمين.

وحافظ أهل دمشق على حريتهم، ودورهم وأراضيهم على أن يدفعوا جزية سنوية خفيفة من القمح والشعير، لا تساوي إلاّ مقدار ما بذروا من فلاحتهم، ولم يكن المسلمون يطلبون من الأرض التي فتحوا إلاّ أن تمدّهم بالقوت هم وخيولهم.

(١٢)

ومشى جيش عمر، بعد فتح دمشق، إلى وادي الأردن، فكانت لهم وقعة ثانية مع جيش الروم، وكان في ثمانين ألف مقاتل، على ضفاف اليرموك، فهزموه ففتح لهم الطريق إلى فلسطين، وابتلعت بحيرة (الحولة) كل ما أخطأه الحديد، ووزع المسلمون عسكرهم، وقد تخلصوا من الأعداء، إلى ألوية عديدة لتذهب من فلسطين إلى جبال الطوروس، ومن البحر إلى الصحراء، ليخضعوا كل من قد هزموا.

وعفا عمر عن كل العرب الذين شكّوا في عقيدة محمد بعد موته، فأرجع خبر ذلك العفو وأخبار انتصاراته آلاف المسلمين تحت لوائه، وجاءه (عمرو)، وكان رأس المتمردين، كما كان مقاتلاً ضخم البدن ذا يد من حديد، بألفي محارب فسأله عمر مداعبًا: «كم تودّ أن يكون عطاؤك، إذ إنك وحدك تساوي جماعة من الرجال؟» فضرب عمرو جنبه الأيسر بيده وقال: «ألف درهم لهذا» ثم ضرب جنبه الأيمن وقال: «ألف لهذا» ثم ضرب موضع قلبه من صدره وقال: «ألف لهذا أيضًا» فقال عمر وهو يبتسم: «حسنًا، سأجعل لك ثلاثة آلاف درهم» ثم نظر إليه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وتأمّل قامته العظيمة في إعجاب وقال: « الحمد لله الذي خلق عمرًا وأرسله إثر ذلك ليلحق بالجيش الذي يجتمع على ضفاف الفرات لغزو بلاد فارس. ووفد على معسكر المسلمين رسل ملك الفرس للمفاوضة، فقال الفرس: «ما الذي يدفعكم إلى حربنا؟» فقال المفاوضون العرب: « إن الله قد أمرنا على لسان نبيّه، بأن ننشر الإسلام بين جميع الأمم والشعوب، وإننا لنطيع أمره، فكونوا

إخواننا، واتركوا آلهتكم التي صنعتم بأيديكم واعبدوا الخالق الواحد السرمدي، أو اخضعوا لحكمنا وادفعوا الجزية لمساعدتنا على نشر هذه الحقيقة في أنحاء العالم.» فقال بعض الفرس: «ومن تكونون وأنتم الأمة الفقيرة المبثوثة كالحشرات الحقيرة على الرمل، حتى يأخذكم الغرور بفرض شرعتكم على مملكتنا القوية؟». فأجابه بعض خطباء المسلمين: «ما تقوله عن فاقتنا وعن همجيتنا وعن فوضانا وعن جهلنا أمر كان يصحّ علينا في ما مضى، أجل، لقد كنا على درجة من البؤس بحيث ترى منا من كان يُسكن جوعه بأكل الحشرات والثعابين، وترى منا من كان يئد بناته لئلا يقاسمهن الطعام، وكنا غارقين في ظلمات الوثنية والمعتقدات الوهمية، لا قانون لنا ولا وازع يزعنا، يعادي بعضنا بعضًا، ولا يشغلنا إلا السلب والنهب والقتل، تلك كانت حالنا، أما اليوم فإننا أمة جديدة، فقد أظهر الله فينا رجلاً منا هو أفضل العرب مولدًا وأفضلهم خُلقا وأكملهم نبوغًا، واصطفاه ليكون رسوله ونبيّه، وقال لنا على لسان ذلك الرجل: «إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلّكم داري، دار السلام»[1] فانفتحت قلوبنا شيئًا فشيئًا واستقرّ فيها الإيمان، فآمنا ببعثة محمد، وأقررنا بأن كلامه هو كلام الله، وبأن أوامره هي أوامر الله وبأن الدين الذي يبشر به، ويسميه الإسلام، هو الدين الحق، فأنار عقولنا وأطفأ الحقد في نفوسنا، وألّف بين قلوبنا فصرنا مجتمعًا من الإخوة تحكمه قوانين أملتها الحكمة الإلهية، ثم قال لنا: «أتمّوا ما شرعت فيه، وانشروا سلطان الإسلام في كل مكان، فالأرض ملك لله وقد وهبها لكم، وإن الأمم التي تعتنق دينكم تكون منكم، لها ما لكم وعليها ما عليكم، فأما الأمم التي تبقى على دينها فتدفع جزية مقابل حمايتكم إياها، وأما الأمم التي ترفض اعتناق الإسلام وترفض دفع الجزية، فقاتلوهم حتى تفنوهم عن آخرهم، وسيُقتل منكم قوم في المعركة، فللذين قتلوا الجنة، وللذين يبقون بقيد الحياة النصر والظفر. تلك هي غايتنا وقدرنا، العزة والنّصر، وقد عرفت الآن من نكون، فاختر بين الإسلام أو الجزية أو الحرب حتى الموت.»

---

(١) ذكر الطبري هذا، انظر: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٠٠.

كان عمر يقود من المدينة الغزوتين اللتين أمر بهما في الوقت نفسه، على الروم وعلى الفرس، فأرسل أمره إلى جيش الشام لينضم إلى جيش الفرات لخوض معركة حاسمة ضد الفرس قرب القادسية. وقد دامت تلك الوقعة ثلاثة أيام وقد أذهلت فيلة الفرس، وهي كالقلاع المتحركة، العرب أوّل الأمر، غير أن جنود الصحراء تمرسوا، في اليوم الثالث، على تلك الدواب المدرّعة بالحديد، فصاروا يضربونها في جنوبها وأعينها وخراطيمها، فردوها دامية حانقة على الفرس، فهلك في تلك المعركة خيرة جند الفرس، فافتقرت المملكة للمقاتلين، وكانت الأسلاب والغنائم على قدر ثراء بلاد فارس وصيتها، وبعد أن جُمعت الأموال والكنوز الضخمة لبيت المال بالمدينة خاصّة، أعْطِي كل فارس ستة آلاف درهم وكل راجل ألفين، وكان سعد قائد تلك الوقعة التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا حاسمًا على الفرس، فطلب من عمر أن يدله على ما يفعل بباقي الأسلاب والغنائم بعد أن وزّع ما وزّع، فقال له عمر: «أعط نصيبًا زائدًا لكل من كان يحفظ أوفر جزء من القرآن» وكان (عمرو بن معديكرب الزبيدي) من بين قواد الجيش، ولكنه، رغم أنه كان شاعرًا، لم يستطع أن يرتل أكثر من: «بسم الله الرحمن الرحيم» فضحك القوم من جهله بالقرآن. فاغتاظ من سخريتهم، وأنشد بحضرة سعد أبياتًا يقول فيها:

إذا قُتلنا ولم يبكِ لنا أحدٌ
قالت قريشٌ ألا تلك المقاديرُ

ونحن بالصّفّ إذ تُدمى حواجبُنا
نُعطَى السويّةَ ممّا أخلص الكير

نُعطى السويّةَ من طعنٍ له نَفَذٌ
ولا سويّة إذ تُعطى الدنانير[1]

---

(١) ديوان معديكرب الزبيدي. تحقيق: هشام الطعان، بغداد - وزارة الإعلام، ١٩٧٠ ص ١٠٠.

وحينما بلغ عمرَ خبرُ شكوى عمروٍ انصفه، وكان عمرٌو رفيق عنترة ومجايله، وكان عمره زمن فتح بلاد فارس يفوق القرن من الزمان، وقد واصل القتال سنوات بعد ذلك، ولم يغادر سلاحه إلاّ بمغادرة الحياة.

وأُخذت عاصمة فارس - المدائن - وهُدمت، وسرعان ما أنشئت المدن الجديدة كالكوفة والبصرة، وانقادت البلاد كلها لسيطرة المسلمين، وبعد أن هُزم الفرس في نهاوند، اعتنق بعضهم دين النبي، وأدى بعضهم الآخر الجزية.

(١٤)

أما خالد، وقد بقي بالشام حفاظًا على الفتح، فقد سار حتى بلغ جيحان: كان العرب قد استولوا على أنطاكية، وكانت منافسة القسطنطينية، وأما عمرو فسار إلى بيت المقدس على رأس جيش آخر، وأجبرت المدينة - رغم أنها كانت مهد النصرانية وعاصمتها - على قبول سيطرة المسلمين عليها. ولم يَطلب أهلها من الفضل - عند انهزامها - إلاّ أنهم لا يفتحون أبوابها إلاّ للخليفة نفسه، فرضي عمرو بهذا الشرط من المغلوبين.

ولم يتردد عمر في تلبية أمنية أهل المدينة التي يقدسها المسيحيون، وهو فخور بأن يأتي بشريعة محمد إلى مدينة المسيح، مفعم بالإجلال لذلك النبي الذي يعترف الإسلام بأنه مدين له بأطهر تعاليمه وأنقى مكوّنات سلوكه الأخلاقي. فانطلق عمر من المدينة، لا غازيًا، بل حاجّاً، وكان يصحبه غلام واحد، ويرتدي بُردًا من شعر العنز ويركب بعيرًا يحمل مخلاتين في عنقه: إحداهما مملوءة تمرًا والأخرى شعيرًا، وقربة ماء أمامه وجفنة خشب وراء قتبه، وقطع الصحراء على ذاك، فإذا تعب الغلام، أركبه عمر البعير مكانه ومشى هو حافيًا على الرمل. ولما علم أمراء جنده باقترابه من المدينة، خرجوا إليه على خيلهم وقد ازدانت بأبهج حلل الحرب. فسخط عمر لما رأى من علامات البذخ والبهرج الزائف والانحلال على قادة الجيش، فترجّل عن بعيره عند رؤية ذلك، والتقط حصوات ممّا كان في طريقه، ورمى بها لاعنًا أولئك الفرسان الذين لبسوا الذهب والحرير، مثل أهل

الشام والفرس، وقال لهم: «أتجرؤون على المثول أمامي وأنتم بزينة الكفّار؟» فقالوا: «إننا نحمل أسلحة من حديد تحت هذه الأثواب من الذهب» فسكت عمر ودخل في ثيابه البسيطة إلى بيت المقدس.

(١٥)

زار الخليفة قبر المسيح، وصحب البطريق سوفرونيوس - رئيس النصارى - نفسَهُ عمرَ إلى كنيسة القيامة، فجلس وسطها وأطرق متأملاً في صمت فترة طويلة، ثم، لما حان وقت صلاة المسلمين، طلب من البطريق - في احترام - أن يعيّن له مكانًا في بعض أركان المَعلم يمكنه أن يؤدي فيه صلاته دون إخلال بما يليق بالمكان المقدّس من الهيبة فأذن له أن يصلّي حيث كان جالسًا، غير أن عمر رفض ذلك تحرّجًا، فأخذه سوفرونيوس إلى كنيسة دون كنيسة القيامة عظمة، هي كنيسة قسطنطين، فرفض عمر كذلك أن يصلّي في ذلك المعبد، ولما بلغ الأبواب أدى صلاته وسجد تحت الباب الذي إلى الشرق، فعجب البطريق سوفرونيوس من تواضع ذلك الفاتح ومن تحفظه.

فقال له عمر: «إنك لا تدري - على الأرجح - لم امتنعت عن الصلاة في كنيسة نصرانية، لقد فعلت ذلك احترامًا لكم، فقد يستولي المسلمون على معابدكم، أسوة بما أفعل، ولن يمنعهم شيء من الصلاة في كنائس صلى فيها خليفتهم.»

إننا ندرك من خلال هذه القصّة التي رواها نصارى بيت المقدس أنفسهم، مقدار الخطل والادعاء عند الحديث عن اضطهاد عمر للنصارى، ومدى المغالطة الورعة المخترعة بعد تلك الحادثة، زمن الصليبيين، لزرع الحقد على المسلمين وكرههم.

لم يطلب عمر من البطريق إلاّ أن يعيّن له موضعًا يمكنه فيه أن يبني مسجدًا يصلّي فيه المؤمنون، فعيّن له البطريق الموضع الذي فيه «الصخرة»، وهو الموضع الذي يُروى أن يعقوب أسند فيه رأسه عند نومه النبوئي، وكانت تلك الصخرة - وقد أهملت منذ تشييد كنيسة القبر المقدّس - مغطاة بكناسة بيت المقدس، فنادى عمر المسلمين لتنظيف المكان،

وحمل في جانب من ردائه بعضًا من تلك البقايا لأخذها إلى هوّة وادي قدرون وبنى المسجد الذي ما يزال قائمًا إلى اليوم على حرف تلك المهواة، كأنه معبد المسلمين على قمّة قلعة أثينا، ثم رجع إلى المدينة في بساطة الزي نفسها التي جاء بها إلى بيت المقدس.

(١٦)

لم يعد ما يقوم حائلاً دون فتح مصر، فقد هُزم الروم، وخضع الشام، وغطّت أرض يهودا جنود الإسلام، فمنح ذلك كله أمنًا للمسلمين وقاعدة تمكنهم من التوجّه بأسلحتهم وعقيدتهم إلى عاصمة إفريقيا.

ولما مرّ عمر ببيت لحم في طريقه إلى المدينة عبر دمشق، وصلّى - كما فعل في بيت المقدس - في الكنيسة التي رفعها النصارى في الموضع الذي كان به مهد المسيح، وأعطى لبطريق بيت لحم النصراني عهدًا وقعه بيده يمنع المسلمين على مر العصور من الاستحواذ على ذلك المعبد وإقامة صلاتهم فيه، ولما وصل إلى دمشق، أغدق على أهم قواد الجيش صفة الأمير.

وكان منصفًا - آخر الأمر - لخالد وقد كفّرت بطولاته عن زلّته، فأولاه بعض المدن القريبة من دمشق. ودفعت كثرة الغنائم والأموال - وهي نتاج تلك الحروب والفتوحات العديدة - عمر إلى أن ينشئ بالمدينة دواوين لإدارة بيت المال، فجعل فروضًا وعطايا للمقاتلين والقضاة وأرامل النبي وآله، وخصّ عائشة - وكانت أحب زوجات النبيّ إليه - ففضّلها عليهن وعاملها معاملة السيّدة، أما هو، فقد اكتفى بما قنع به محمد وأبو بكر من الجزاء، تمرًا وشعيرًا، أخذاهما لقوتهما من بيت المال.

كان هرقل قد صاح: «وداعًا أيها الشام، إلى الأبد»، وهو يسحب جنوده خلف جبال الطوروس ويفرّ إلى القسطنطينية، وسار المسلمون على إثره حتى اجتازوا باب الحديد، وبلغوا أودية (قيليقيا).

واعتنق (جبلة بن الأيهم) وهو أحد أمراء الشام من قبل الروم دين الظافرين، فجاء إلى المدينة يبايع الخليفة ويعلن خضوع الغساسنة. فاصطحبه عمر - زمن الحج - إلى

مكة ليؤدي المناسك. كان الأمير الغساني في ثوب من الحرير، وعلى رأسه تاج من الجوهر لا يُقدر ثمنه، تذكّر جواهره بأقراط (ماريا) التي أهدتها إلى الكعبة عند اعتناقها الإسلام، وكانت تتبع الأمير جياده النجدية الرائعة يقودها العبيد من أرسانها، وكان يصحب عمر في المناسك والطواف بالبيت العتيق. فوطئ بدوي من فزارة كان يمشي وراءه ذيل ثوبه فأسقطه عن كتفه. فالتفت إليه جبلة حانقًا ولطمه على وجهه فأدماه. فطالب الفزاري من عمر أن يقتصّ منه. فقال الخليفة لجبلة: «ألطمته؟» فقال: «نعم! ولولا إجلالي للكعبة لفلَقت رأسه بسيفي» فقال عمر: «قد اعترفت بجريرتك، يجب عليك أن تعوّضه عما لحقه حتى يتنازل عن شكاته!» فقال: «وإذا لم أفعل؟» قال عمر: «عندئذٍ تكون العين بالعين والسن بالسن، وسآمر هذا البدوي بأن يصفعك كما صفعته!» فقال: « ولكني ملك، وليس هو سوى نكرة!» فقال: «الملك وغيره سواء في شريعة الإسلام، وليس لك عليه من فضل إلا فضل قوة البدن» فقال جبلة: « كنت أعتقد أني سأزداد شرفًا وسؤددًا بدخولي الإسلام عمّا كان لي في ديني الأول» فقال عمر: «كفى جدلاً، أرضِ الشاكي أو احتمل الجزاء» فقال: «أفضل أن أرتد إلى النصرانية» فقال: «إذن آمر بقطع رأسك، وذلك مصير كل مؤمن يرتد عن الإسلام» فقال جبلة: «أمهلني إلى غدٍ حتى أنظر في أمري» فمنحه الخليفة ليلة للتفكير، غير أن الأمير الغساني لم يطق أن يخضع كبرياءه لتلك المساواة ولذلك التواضع، فاغتنم تلك الليلة للهروب والالتجاء - بثروته - إلى القسطنطينية.

وقد قال، بعد ذلك بفترة، وهو في منفاه، أبياتًا يتمنى فيها أن لو لم تلده أمه، ندمًا على أنه لم يستجب لما طلب منه عمر، ويتمنى أن لو لم يكن إلاّ راعي إبل في بادية الشام أو غلامًا يخدم بني مضر، حتى يتمكن بذلك من أن يعيش بين إخوته في بلاد العرب.

ومات وهو يطلب من عمر أن يصفح عنه، ويعبّر عن أساه لمفارقة بلده.

(١٧)

يذكر المؤرخون العرب أن ستًا وثلاثين ألف مدينة وقرية وقبيلة وقصرًا غدت وقتئذٍ تحت سيطرة عمر، ولكن لم يأخذه زهو ولا عجب بما تحقق له من نصر بالسلاح. فقد كان

يفتح لله ويقاتل في سبيله، لا في سبيل مجده هو، وأذهلت الدهشة بعض المرازبة الفرس وقد جاء إلى المدينة في تلك الفترة وكان يتوقع أن يلقى حول الخليفة ما كان يرى من بهرج وأبهة حول ملوك الفرس، فإذا بالناس يدلونه على عمر وكان نائمًا في فناء المسجد بين فقراء المدينة.

وقد قضى عمر ضحية حكم ذكي حاذق في شكله، جائر في جوهره ومضمونه، حكم به هو نفسه بالمدينة: فقد جاءه يومًا غلام فارسي من عبيد المغيرة بن شعبة، يدعى فيروز، يشكو سيده وقد فرض عليه أن يعطيه كل يوم درهمين فلا يبقى من أجرة يومه في يده ما يكفي قوت عائلته، فقال له عمر: «وكم شغلاً بيدك» قال فيروز: «ثلاثة: نجار ومهندس وجصّاص» فقال الخليفة: «لا يبدو لي في ما تعطي شططًا،فإنك تساوي ثلاثة رجال، وقد يُطلب منك أن تعطي ثلاثة دراهم في اليوم، وإني أستعملك - إن شئت - في بناء طاحونة لحبوب المسلمين».

فاغتاظ الرجل لذلك الحكم الجائر، وقال له وهو خارج من مجلسه في همهمة كانت تدوّي في قلبه دويّ رعد باطني: « كن مطمئنًا، لأبنينّ لك طاحونة سيظل الناس يتحدثون بها ما دارت عجلة الأفلاك على رأس البشر» فقال عمر: «ما يقول الرجل؟ يبدو - من نبرة صوته - أنه يتوعّدني بالقتل».

فكان أن تسلّح الغلام - عند عودته إلى بيته - بإزميل مشحوذ ممّا يستخدمه في عمله، وجعل يترصد الخليفة إلى أن ألفاه وحيدًا أو يكاد بساحة المدينة، فغرز الحديد في صدره ثم جعل يطعن بذلك الحديد الدامي كل من جاءوا لنجدة عمر فأرداهم قتلى عند قدميه، ثم طعن نفسه آخر الأمر، فخرّ - وقد ثأر لنفسه - وسقط على جثة من قهره بذلك الحكم.

(١٨)

أما عثمان، وقد نشأ على الخلافة، فهلك هو نفسه ضحية خلافات مدنية. فبايع المؤمنون عليّاً بالخلافة بعد عثمان، وكان علي صاحب محمد المفضل، وقد زوجه من ابنته

فاطمة، وكان كأبطال هوميروس سواء بسواء. فبدأت خلافته في بعض اضطراب بسبب ما كانت عائشة الحسناء الفصيحة البليغة تدبّر، إذ أثارت أرملة النبي فتنًا في دار الإسلام بسبب غيرتها وطموحها، واختتمت خلافته في الفتوح. ورجعت عائشة – بعد أن هُزمت، وصَفح عنها من غلبها وأكرمها – لتقضي بقية حياتها بالمدينة في عيشة راضية. كان علي يجمع شجاعة عمر إلى ثبات محمد، وقد قال أشعارًا وأرسل حكمًا ظلت في نظر المسلمين وفكرهم، من وحي الإسلام إن لم تكن إلهامًا صرفًا، ومن بينها – وهي كثيرة – ما يبدو محاكيًا لحكمة النصارى وتزهدهم. وكان كثيرًا ما يذكر الحكمة التالية في ساعات يسره وفي ساعات عسره: «من أراد أن يكون ثريا بلا مال، وقويًا بلا تاج، وخادمًا بلا سيّد، فعليه أن يترك زيف الدنيا الفانية، وأن يكون في خدمة ربه، فإنه واجد لديه تلك الثلاثة».

وقد شهدت فترة حكمه نشأة أول فرقة في الإسلام، فقد نصّب معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفة في دمشق وصار رأس بيت بني أمية بينما كان عليّ يحكم بالمدينة، ولما قُتل في المسجد – قتله متعصب من فرقة الخوارج – ترك ولدين:فأما أكبرهما سنًا، فهو الحسن، وقد خلف أباه، غير أنه كان مهادنًا مسالمًا، فتنازل عن الخلافة لمنافسه معاوية. وأما الأصغر، فهو الحسين، وقد رفع راية عليّ في وجه الخليفة يزيد بن معاوية ولكنه قتل على تخوم بلاد فارس، في كمين نصبه له أتباع يزيد. وعُهد إلى أحد القتلة بأن يحمل رأسه إلى قائد جند يزيد بالكوفة، ولما وصل الرجل إليها ألفى أبوابها مغلقة فعاد أدراجه ليقضي الليل في بيته وكان خارج الكوفة. وأيقظ زوجته وقال لها: « قد أتيت بأثمن هديّة تهدى إلى الخليفة» فقالت: « وما هي؟» فقال: «رأس الحسين، هُوَ ذَا، وقد عُهد إليّ بحمله إلى قائد جند يزيد» وإذا بزوجته، وقد أسخطها وارعبها ما أتى من رجس إذ ذكرت أن الحسين ابن فاطمة وحفيد النبيّ، فوثبت من فراشها، وصاحت مستفظعة، مانعة زوجها من عناقها: « لن أدنو من رجل أتاني برأس حفيد النبيّ!».

ودعا الرجل واحدة أخرى من زوجاته لتقضي الليل معه، ولكنها لم يغمض لها جفن في تلك الغرفة، وقد بهرتها – على حد قولها – هالة من النور كانت تنبعث من عيني الحسين ومن جبينه ومن دمه.

وكانت زينب، أخت الحسين، رفيقة درب أخيها المخلصة له في السّراء والضرّاء فقُبض عليها واقتيدت أسيرة صحبة علي ابن أخيها اليافع، إلى قائد جند يزيد، فأمر بقتل الغلام ليقطع دابر فرقته، فصاحت زينب وقد حمت بجسدها ابن أخيها: «ابدأ بقتلي أنا قبله»، فلم يجرؤ الذي ظفر بها أن يتمّ جريمته، وقد أخجلته شجاعة المرأة، واكتفى بإرسال زينب وابن أخيها علي مقيّدين في أصفاد كانت ترضّ يديهما ورجليهما، إلى الخليفة بدمشق. فحنق يزيد على قائده، حين استقبل من تبقى من أسرة غريمه على تلك الحال، وأمر بفك الحديد عن زينب وابن أخيها، وأدخلهما قصره وأكرمهما ثم بعث بهما إلى المدينة معززيْن مكرّميْن مثقليْن بالهدايا.

وغدا مقتل الحسين بن علي - الذي اعتبر موته شهادة وصار أشياع علي يحتفلون بذكراه من جيل إلى جيل - التاريخ الذي كُرّس به الانقسام الذي ما يزال إلى الآن بين الفرس والأتراك في أمر شرعية الخلافة. فالشيعة، أتباع علي، وهم يعتبرونه الوريث الشرعي لابن عبد الله، ظلوا طويلاً يطالبون بأن تكون الخلافة والحكم في ذريّة النبي، ولكن النصر ظل حليف أهل السنة الذين يعترفون بسلطة الخلفاء الثلاثة الأول بعد محمد، وبسلطة الأمويين. وقد اختار خلفاء بني أمية - وكانوا أحيانًا محلّ اعتراض عليهم، وأحيانا معترفًا بهم في كامل بلاد الإسلام - دمشق، المدينة الثرية المثيرة، عاصمة لهم، فإذا ببذخ الشام ونعيمه لم يلبثا أن أفسدا طهارة أبناء جزيرة العرب وشظف عيشهم. غير أن كلام النبيّ وأسلحتهم ظلت تفتح لهم الشرق والغرب:فغزوا إفريقيا الشمالية، وإسبانيا وجنوب بلاد الغال، غير أن وقعة تور[1] التي انتصر فيها شارل مارتل سنة (٧٣٢) لميلاد المسيح هي وحدها التي أنقذت النصرانية من ربقة الإسلام.

---

(١) المعروف المتداول في كتب التاريخ أنها وقعة (بواتييه)، ومدينة تور تقع شمالها، ولا تذكر كتب التاريخ أن عبدالرحمن الغافقي بلغها، إذ كانت المعركة الفاصلة بينه وبين شارل مارتل في مدينة بواتييه.

(١٩)

أما في آسيا، فقد بدأ اسم الأتراك يذكر في كتب التاريخ الإسلامي بصفة جدّية، إذ عبر أحد قادة جيش الخليفة، وهو قتيبة، والي خراسان التي كانت في ما مضى ولاية فارسية تتاخم تركستان من جهة الشمال، عبر نهر جيحون على رأس جيش غفير، وذلك نحو سنة مائة من هجرة محمد وزحف حتى بلغ سمرقند. ولكن المدينة أغلقت دونه أبوابها، وكانت تعجّ بآلاف المقاتلين يدافعون عنها، وقال كهنة سمرقند، وهم يسخرون من عجز العرب عن فتحها: « إن الهواتف قد أخبرتهم بأنه لن يأخذها غازٍ قبل أن يدخلها راعي إبل منصورًا مظفرًا» فنقل خبر ذلك التحدّي إلى قتيبة فقال: «الحمد لله! فقد ندبني لفتح هذه المدينة، لأنه قد قيل لي في شبابي، لن أكون إلاّ راعي إبل» فبعث كلامه الحماس في جنده، وفشا بين الأتراك فقضى على ما ذهب في وهمهم، فخضعت سمرقند ودفعت جزية سنوية بألف ألف دينار وثلاثة آلاف من العبيد.

وكان قتيبة رحيمًا بالعباد، شرسًا على الوثنية وسدنتها فزرع الإسلام في بلاد تركستان. وكان أهل تلك البلاد قد تعوّدوا أن يروا شرعة الله في النصر، فلم يلبثوا أن حوّلوا إلى عبادة الله الواحد ما كان لهم من حماس ظلوا طويلاً يبدونه لأوثانهم، ولم يكن لهم وطن محدد ثابت في تلك السباسب التي كانوا ينقلون بينها مواشيهم، فاختاروا جنة المسلمين موطنًا حقيقيًا، وصاروا أعوانًا على نشر عقيدتهم الجديدة، أعوانًا أفظاظا ولكن لا يُغلبون.

(٢٠)

وبينما كان قتيبة يفتح بلاد ما وراء النهر ويخضعها لدولة الإسلام، كان قائد آخر من قواد جيوش بني أمية يغزو الهند ناحية وادي الهندوس. وكان ذلك هو موضع توقف فتوحات العرب، ذلك أن الخليفة سليمان الذي تولى الحكم إثر الوليد كان يغبط أمراء الجيش الذين تخيّرهم أخوه، على ما حازوا من نصر، فعزلهم وحكم على عسكرهم المظفر

بالتعطّل. فعوّضت نار الفتن الداخلية والثورة على السلطة صخب الحرب الخارجية وجلبتها. فحمل العلويون السلاح ثانية في وجه الأمويين، واغتصب السلطة العليا ذرية العباس، عم النبي، في خضم تلك النزاعات المقيتة.

ويبيّن حكم يزيد الثاني، وهو تاسع خلفاء بني أميّة، درجة الضعف التي انحدر إليها أولئك الأمراء بعد أن كانوا زمنًا على حظ عظيم من الشجاعة.

كان يزيد يفضل - من بين نسائه جميعًا - امرأتين شابتين شاميّتين، تدعى الأولى (سلامة) والثانية (حبابة) وبينما كان ذات يوم خريف يروّح عن نفسه من عناء الحكم وهما في صحبته في بعض بساتينه على ضفاف نهر الأردن، ويلهو بأن يلقي عن بعد في فميهما حبات عنب، من عنب فلسطين، وهي أكبر حجمًا ممّا نعرف في أوروبا. فكانت حبابة تتلقى تلك الحبات بفيها وهي تضحك، وكان الخليفة معجبًا برشاقتها وبراعتها في ذلك، وإذا ببعض الحبات - للأسف - تقف في حلق تلك الحسناء فتسد عنها النفس سدًا حتى أنها ماتت مختنقة ضاحكة موتًا مفاجئًا، وهي بين ذراعي الخليفة.

فآلم الخليفة فقدُ معشوقته ويأسه من رجوعها إليه، وبلغ به ذلك حد الجنون، فحمل هو نفسه جثتها إلى غرفته وطرحها على البساط، وظل معها وقد أغلق دونه الباب رافضًا أن توارى بقايا حبيبته التراب، حتى جعل تحلّل عناصر جسمها ينزع منه محاسن حظيته نتفة بعد نتفة، دون أن يُسلي قلبه عن حبها. ولم يستطع أهل بلاطه أن ينتزعوا الجثة قسرًا من غرفته ليدفنوها إلاّ بعد ثمانية أيام وثمان ليالٍ من ذلك التأمل الهائم الفاجع.

ولم يقدر الخليفة على العيش بعدها فلم يلبث أن مات من فراقها، وأمر أن يلحق بها في ذلك القبر نفسه ليجتمع برفاتها التي منذ غابت عن الأنظار اندثر كل ما على الأرض في نظره.

وبسقوط حكم الأمويين في دمشق (سنة ٧٥٠ من ميلاد المسيح) بدأت تجزئة مملكة العرب، وبينما كان العباسيون يؤسسون بغداد ويجعلونها مستقرّهم وعاصمتهم، ويولون

كامل عنايتهم للثقافة والعلوم والآداب، وينشطون مدارس الفكر العربية التي ستقوم همزة وصل بين المدرسة الإغريقية بالإسكندرية والمدرسة الحديثة، نشهد قيام خلافة قرطبة بإسبانيا وخلافة القاهرة بمصر فيقضي بذلك على الوحدة الإسلامية. وأعقب حكمَ هارون الرشيد والمأمون، الزاهر، حكمُ أمراء عجزة اتخذوا حرسهم من العبيد الأتراك، فسلك أولئك الحرس مسلك عسكر روما في غطرستهم فاستولوا على الملك إثر انقلابات داخلية: فحينما استولى الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر - وكانوا أسياد بلاد ما وراء النهر وخراسان - على بلاد فارس وآسيا الصغرى. وجدوا إخوة لهم في صفوف الأعداء، وسيأتي بعدهم المغول وجنكيز خان ثم يعقبهم - آخر الأمر - الأتراك العثمانيون.

****

المحتـوى

****